مجلد ٣ — عدد ١٠
يوليه ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



بعد أربعة أشهر
من ظهور باكورة انتاج دار الكاتب المصرى
حكايات فارسية
دار الكاتب المصرى
من حوارينا
قصص مصرية
شبح كانترفيل
وازن الأرواح
حكايات فارسية
أرض البشر
المقامر
الحب الأول
الباب الضيق
بدت جهود دار الكاتب المصرى فى مختلف نواحى الثقافة والأدب من قصص مؤلفة وكتب مترجمة لمؤلفين فرنسيين وانجليز وروسيين فضلا عن نقل كتاب مشهور للمستشرق العظيم جولدتسيهر إلى اللغة العربية .
وستسير الدار فى إنتاجها على نهج وضعه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين بك فتقدم كتبا أخرى قيمة فى طبعات أنيقة تخطو خطوات واسعة فى إخراج الكتاب العربى إخراجا فنياً رائعاً .
احرصوا على اقتناء كتب دار الكاتب المصرى
فتزيد مكتبتكم قيمة ورونقاً
تباع كتب دار الكاتب المصرى
فى المكتبات الشهيرة



نابليون
لاميل لودفيج
★
الشخصية التى استوحت الاسكندر
وقيصر وشارلمان ، واوحت بما خلد ويخلد
الى آخر الزمان .
البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع
بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولته
فى انسانيته ، وفاقت كل
ما عرف الى الآن .
ترجمة عن الألمانية
محمود ابراهيم الدسوقى
اميل لودفيج
نابليون
محمود ابراهيم الدسوقى
دار الكاتب المصرى
ظهر الجزء الاول
طبعة فاخرة مزينة بالصور
٤٥
البريد ٣٦ مليما



INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للمواريث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

تعريب

عبد العزيز فهمي

رئيس محكمة النقض والابرام سابقا

تحت الطبع





آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
صراع بين الاثم والضمير
صورة تهرم بينما صاحبها محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الانجليزية
فى مزاج من الهزل والجد
٣٠ م
والبريد ٤٠ مليما
اوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
تعريب لويس عوض
اوسكار وايلد
صورة دوريان جراى
دار الكاتب المصرى
اوسكار وايلد
شبح كانترفيل
تعريب لويس عوض
شبح كانترفيل
١٨ قرشا
والبريد ١٦ مليما
مظهر آخر لفن اوسكار وايلد
مغامرات شبح يجول فى ابهاء قصر عتيق
موازنة بين العقل الانجليزى المحافظ والعقل الامريكى المجدد.
قصة فكاهية مرحة
كتابان مزينان بصور مختارة من افلام م . ج . م





انقلبت الطائرة فى جبال
أحداً فى الشتاء ... هل
شجاع يكافح الموت باسم
من خليقة ، يخرج من
الميثوس ؟
كتاب يعد فتحا جديدًا فى الأدب
أرض البشر
للكاتب الطيار انطوان دى سانت اكسوبرى
أرض البشر تلك الهباءة من الثرى التائهة
بين الأجرام السماوية ، تلك الأرض الجديرة
بإعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال
يقول بارك ، وقد أخذته نشوة
« لست بارك . أنا محمد بن الحسين
وأخذ يقلد الرجل الحر كما يقلد
أحد المستكشفين .
كيف تكون طلعة عبد على أبواب الحياة ؟



…راء ؟ لقد هيء لى ذات يوم أن
…ها فى صميمها . كنت أطير فى
…مصر على تخوم ليبيا ووقعت فى
…ل كما يقع المرء فى شرك . وظننت
…مات . وهاك القصة …
رائد من الرعيل الأول
الطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا فى صميم الخطر
وفى صميم العمل
انطوان دى سانت اكسوبرى
أرض البشر
تعريب مصطفى كامل فوده
دار الكاتب المصرى
…ريب مصطفى كامل فوده
…طبعة مزينة بالصور
٢٥ ح
والبريد ٢٠ مليمًا



هل توجد الروح؟
وكم تزن؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها؟
وهل يمكن أن تمتزج
بعد الموت روحان كانتا
مؤتلفتين أثناء الحياة؟
أندريه موروا
عضو المجمع اللغوي الفرنسي
وزن الأرواح
تعريب عبد الحليم محمود
٢٠
والبريد ١٦



قصص من الشرق
حكايات فارسية
كتاب يحمل الى قراء العربية
عبيرا رقيقا حسن الموقع فى
النفس من هذه الحياة الفارسية
الممتازة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة
من حولنا
جميل من الناس فى أفراحهم وآلامهم ،
يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى
رائع فى بيانه وفى فنه
يحيى الخشاب
حكايات فارسية
دار الكاتب المصرى
٢٠
البريد ١٦ مليما
محمد سعيد العريان
من حولنا
قصص مصرية
دار الكاتب المصرى
فى ثوب أنيق خلاب
٢٥
البريد ٢٠ مليما



قصتان من الأدب الروسى الرفيع
فيدور دستوفسكى
المقامر
تعريب
شكرى محمد عياد
دار الكاتب المصرى
إيفان ترجنيف
الحب الأول
تعريب
محمود عبد المنعم مراد
دار الكاتب المصرى
قصة شاب ممتحن
بداء القمار لقى من هذا
الداء فى حياته شراً عظيماً.
وهى قصة عنيفة تستأثر
بحاجة القارئ إلى الاستطلاع
الثمن ١٨
البريد ١٦ مليماً
قصة ساذجة
تصور قلب شاب ناشئ
يندفع إلى الحب فى غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه من يأس
حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه
الثمن ١٥
البريد ١٢ مليماً



Une traduction de mes livres en votre langue... A quels lecteurs pourra-t-elle s'adresser?
André Gide
ترجمة كتبي الى لغتكم ؟.. الى اى قارئ يمكنه أن تساهم ؟ وأى الرغبات يمكنها ان تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطئ انا ؟
اندريه جيد
اجهدوا للدخول
الباب الض
(انجيل . لوقا :
لم تخطئ انت ،
دفعت الى الخطأ .
كثيرا من المسلمين ولكنك لم
الاسلام ... فلو قد تعمق
الدين تعمقا دقيقا
على ما يثير القرآن من مسائل
يعرض لها من جواب .
طه
اندريه جيد
الباب الضيق
تعريب
نزيه الحكيم
مقدمة لاندريه جيد وطه حسين
١٨ قرشا والبريد ١٢ مليما

الكاتب المصري

شعبان ١٣٦٥  يوليه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١٠

بين العدل والحرية

مسألة واحدة تُلقى فى كل مكان متحضر وفى كل بيئة مثقفة، يلقيها بعض الناس على بعض، ويلقيها الأفراد على أنفسهم عن إرادة وتعمد واختيار حيناً، وعلى غير إرادة ولا شعور ولا اختيار حيناً آخر.

يلقيها بعض الناس على بعض ويلقيها الأفراد على أنفسهم، عامدين إلى الدرس والتحليل، محاولين أن يجدوا لها جواباً، شاعرين بذلك مريدين له؛ وتلقيها الحياة العاملة على الأفراد والجماعات فى كل لحظة وعند كل فرصة، ويعجز الناس فى كثير من الأحيان عن أن يجدوا لها حلا حاسماً حازماً، أو جواباً قاطعاً ساطعاً. وهم من أجل ذلك يضطربون فى حيرة متصلة، تظهر آثارها واضحة فى أقوالهم حين يتحدثون، وفى أعمالهم حين يعملون.

أيمضى العالم إلى تحقيق العدل أم إلى تحقيق الحرية؟ هذه هى المسألة، أو قل هى المشكلة التى ألقاها القرن التاسع عشر على بعض العقول فى أوربا، والتى جعلت تتسلط على هذه العقول قليلا قليلا حتى شغلتها واستأثرت بها، ثم تجاوزتها إلى عقول أخرى، ثم جعلت تتنزل شيئاً فشيئاً من الطبقات المفكرة الممتازة إلى الطبقات الوسطى ثم إلى الطبقات الدنيا، ثم استأثرت بالتفكير السياسى كله فى أواخر القرن الماضى حتى انقسمت لها أوربا شيعاً وأحزاباً. ثم عظُم استئثارها بالحياة الأوربية فى أوائل هذا القرن، ولاسيما فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، حتى اضطربت لها أوربا اضطراباً شديداً، واضطرب

لها العالم خارج أوربا اضطراباً شديداً أيضاً كان من آثاره أن ثارت الحرب العالمية الثانية، وصبت على العالم ما صبَّتْ من الشر والهول.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية كما انتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تجد إحداها جواباً لهذه المسألة أو حلاً لهذه المشكلة، وإنما كانت نتيجة الحربين أن المسألة ظلت قائمة ولكنها ازدادت شدة وإلحاحاً، وأن المشكلة ظلت قائمة ولكنها ازدادت صعوبة وتعقيداً. والله وحده يعلم أيحتاج العالم إلى حرب ثالثة لتجيب على هذه المسألة وتحل هذه المشكلة، أم يستطيع السلام المنظم أو غير المنظم أن يخرج الإنسانية من حيرتها ويسلك بها إحدى الطريقين: طريق الحرية أو طريق العدل.

ومن الخطأ أن نظن أن هذه المسألة حديثة لم يعرفها الإنسان إلا حين ألقاها القرن التاسع عشر، وإنما هي مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة جداً. وقد يستطيع الفلاسفة الذين يدرسون التاريخ ويحللونه أن يستقصوا أصل هذه المسألة، وأن يتتبعوا تطورها منذ فرضها العقل على الإنسان المتحضر فيما يسمونه فجر التاريخ. وليس من شك في أن الفلاسفة قد فعلوا فدرسوا الحضارة منذ نشأتها، واستقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل في أطوار الرقى الإنساني على اختلافها، ثم انتهوا إلى ما انتهى إليه العالم الآن من هذه الحيرة المتصلة والاختلاط الشديد: فمنهم من آثر الحرية؛ لأنها تحقق كرامة الإنسان وتتيح له أن يكمل نفسه ويظفر بشخصيته موفورة تامة، وفريق منهم آثر العدل لأنه يرضى حاجة الإنسان إلى المساواة، ويتيح له حظاً من الإنصاف يعصمه من استعلاء القوى على الضعيف، وتحكم الغنى في الفقير، وتفوق القادر على العاجز. وفريق آخر حاول أن يلائم بين العدل والحرية، فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئاً ذا خطر؛ لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لا يستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل، وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويهاً ما. هنالك يستطيعان أن يلتقيا لقاء لا يخلو من تشويه تتأثر به الحياة الإنسانية نفسها، فتدفعها الحرية إلى العمل والنشاط، ويدفعها حب العدل إلى الاختلاف والاختصام، وتنتهي إلى هذا التطور الذى نشهده الآن كما شهدناه في العصور المختلفة، والذى يبث فيها العداوة والبغضاء ويملؤها شراً ومكراً وكيداً، ثم يدفعها حيناً بعد حين إلى حرب من هذه

الحروب التي لا تبقى ولا تذر ، والتي تزداد على مر الأيام بشاعة ونكراً .

ومن الخطأ كذلك أن نظن أن هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على بيئة إنسانية دون بيئة ، أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان ، وإنما الواقع الذى نستطيع أن نلاحظه فى كل وقت هو أن هذا الصراع قائم فى البيئات الإنسانية المثقفة كلها ، وفى أجزاء العالم المتحضر كلها أيضاً ، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل إلى الخمود ، ولكنه موجود دائماً ومتصل على كل حال . ويكفى أن ننظر إلى العالم المتحضر الذى نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية والعدل عنيف إلى أقصى غايات العنف فى أوربا وأمريكا ، وأن عنفه فى هاتين القارتين أشد منه فى القارات الأخرى ، وإن كان يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأمم والشعوب . وليس المهم أن ندرس هذا الصراع بين العدل والحرية درساً مفصلا مستقصى ، فذلك شئ لا سبيل إليه بل لا حاجة إليه الآن ، وإنما المهم أن نلاحظ مظاهر هذا الصراع فى أوربا وأمريكا وفى بلاد الشرق الأدنى خاصة ، لنتبين إلى أى طريق نحن مسوقون ، وإلى أى غاية نحن مدفوعون . وليس من شك فى أن إلغاء المسافات فى الزمان والمكان قد جعل شرقنا الأدنى متصلا بأوربا وأمريكا اتصالا يوميًّا دقيقاً ، بحيث لا نستطيع أن نفلت مهما نحاول ذلك ، من التأثر بما يحدث فى هاتين القارتين من الأحداث والخطوب ، وما يثار فيهما من المصاعب والمشكلات . ومن المحقق أن الشرق الأدنى لو استؤمر حين أثيرت الحرب العالمية الأولى لآثر العافية ، ولتمنى أن يلتزم هذه الحيدة التى تجنبه أخطار الحرب وأهوالها . ولكنه لم يستأمر ولم يكن من الممكن أن يستأمر ؛ لأنه كان ميداناً من ميادين الحرب وغرضاً من أغراضها . وهو كذلك لم يستأمر حين أثيرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر ؛ لأنه كان ميداناً من ميادين الحرب وهدفاً من أهدافها . وأكبر الظن أنه لن يستأمر إذا أثيرت حرب عالمية ثالثة ؛ لأنه سيكون من أهم ميادين الحرب ومن أعظم أغراضها خطراً .

فينبغى للشرق الادنى إذن أن يوطِّن نفسه على أنه جزء من هذا العالم المتحضر الحديث الذى يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل بين الحرية والعدل ، متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من

أثر فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والخير أن يوطن نفسه على ذلك وأن يعدّ له عدته ، وأن يقبل عليه مريداً لهذا الإقبال لامكرهاً عليه إكراهاً . ولم يخطئ الشاعر حين قال :

إذا لم يكن إلا الأسنَّةَ مركبٌ   فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وليس للشرق الأدنى بد من أن يركب هذه الأسنة ، فإذا أراد أن يحيد عنها أو أن يتجنب ركوبها ، فلن يجد إلى ذلك سبيلا . وحَسْبُه أن يعلم أن هذا ليس مقصوراً عليه ، وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان . والناس يقولون فى كثير من الصواب إن العالم الآن موضوع للنزاع بين قوتين عظيمتين تريد كل منهما أن تسيطر عليه وتنشر فيه سلطانها ، وتخضعه لما يقتضيه ذلك من مذاهبها فى السياسة ونظمها الاجتماعية المختلفة . وهاتان القوتان قد تعاونتا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاتفقتا ما ظلّت الحرب قائمة حتى كسبتا النصر ، ثم لم تستطيعا أن تمضيا فى الاتفاق فعجزتا عن تنظيم السلم . وقد انتهت الحرب فى أوربا منذ عام وبعض عام وما زال المنتصرون عاجزين عن أن يقروا السلم وينظموه ؛ لأنهم عاجزون عن أن يتفقوا فيما بينهم . وليس الخلاف بينهم مقصوراً على تقسيم الغنائم وتوزيع الأسلاب ، ولكنه أبعد من ذلك مدى وأشد من ذلك عنفاً ؛ لأنه يتجاوز الدول المنتصرة نفسها لما تملك من حول وطول ومن قوة وأيد ، إلى الشعوب التى تمثلها هذه الدول . فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، يريد بعضها أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعاً للحرية لا متبوعاً . ويريد بعضها الآخر أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافلة تتحقق إن سمح العدل بتحقيقها ، ويضحى بها إذا لم يكن بد من التضحية بها فى سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس .

ثم تختلف الشعوب فى حياتها الداخلية نفس هذا الاختلاف بين الدول ، فتكون فيها الأحزاب المتباينة التى يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة ، ولا يتردد فى التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية . ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل ، ولا يتردد فى إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها .

وكذلك يشهد العالم هذا المنظر الرائع الغريب : دول تختلف فيما بينها تختصم حول الحرية والعدل ، وأحزاب تختلف فيما بينها تصطرع حول الحرية والعدل ، وأفراد يختلفون فيما بينهم يتمارون فى الحرية والعدل . والحياة تمضى متعثرة فى طريقها لا تكاد تخطو خطوات إلى أمام حتى تضطر إلى أن تنحرف إلى يمين أو إلى شمال ، وقد تضطر أحيانا إلى أن ترجع القهقرى ، وتعيد للناس نظما كانوا يظنون أنها قد ذهبت إلى غير رجعة ومضت إلى غير مآب . وقد يبلغ من اضطراب الشخص الواحد أن يذهب إلى مذهب الحرية إذا أصبح ، فلا يكاد يمسى حتى يذهب مذهب العدل . وقد يبلغ من اضطراب الشعب الواحد أيضا أن ينحرف اليوم إلى يمين ليؤيد الحرية ، فإذا كان الغد انحرف إلى شمال ليؤيد العدل ، وهو بهذا التذبذب بين اليمين والشمال لا يحقق حرية ولا عدلا ، وإنما يمضى فى الاضطراب ويغرق فى الارتباك إلى أذنيه ، وقد يُغْرِق معه أمما وشعوباً أخرى ؛ لأنها خاضعة له أو متأثرة به قليلا أو كثيرا .

هذه كلها حقائق يسيرة قريبة يلاحظها الإنسان حين يقرأ صحف الصباح وحين يقرأ صحف المساء ، وكل ما فى الأمر أنه ينظر إليها نظرة سريعة غير متعمقة ولا مستأنية ، ينظر إليها كما ينظر إلى أحداث الحياة اليومية التى يغيرها مر الغداة وكر العشى . فالشعب الإنجليزى مثلا حين تخلّص من سلطان المحافظين فى العام الماضى وألقى بمقاليد الأمر إلى العمال ، لم يزد على أن انحرف من طريق الحرية المحافظة إلى الشمال حيث العدل ، أو قل - إن شئت - حيث الطموح إلى العدل ، وحيث التضحية ، أو قل - إن شئت - حيث الاستعداد للتضحية بكثير من حرية الفرد والجماعة فى سبيل تحقيق هذا العدل . ولكن الشعب الإنجليزى نفسه حين يضطر حكومة العمال إلى أن تلتزم سياسة محافظة خارج بريطانيا العظمى ، فلا تفرط فى شئ من مستعمراتها ، ولا تتخلى عن قليل من مصالحها فى البلاد التى تخضع لنفوذها قليلا أو كثيراً ، وإنما تستمسك بالامبراطورية كما تلقتها من حكومة المحافظين ، وتحافظ على مصالحها فى أقطار العالم كله على نفس النحو الذى كان يصطنعه المحافظون - أقول إن الشعب البريطانى حين يضطر حكومة العمال إلى أن تسلك هذه الطريقة لا يزيد على أن يتراجع فينحرف من شمال إلى يمين ، ويضحى بشئ من العدل ليستبقى حريته تلك التى أتاحت له أن يستذل ويستغل جزءا عظيما من الأرض . والشعب البريطانى

حين يتخلص من سلطان المحافظين ويجعل أمره إلى العمال ، ويتيح لرئيس وزرائه ووزير خارجيته أن يتحدثا عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعن حق العالم فى أن يخلص من الاستعباد والاستبداد ، يخطو خطوة إلى الشمال فى سبيل العدل الدولى ، ولكنه لا يلبث أن يعود أدراجه ويخطو خطوة إلى يمين فى سبيل الاحتفاظ بحريته القديمة التى كانت تتيح له أن يتحكم فى مصير الشعوب ، وإذا هو يذهب فى سياسته مع اليونان ويوجوسلافيا نفس المذهب الذى كان يذهبه المحافظون . وهذا الشعب البريطانى نفسه يخطو خطوة إلى شمال حين يعلن رئيس وزرائه ووزير خارجيته أنه يريد الجلاء عن مصر بلا قيد ولا شرط ، ثم لا يلبث أن يعود أدراجه بتأثير المحافظين ، وإذا هو يشترط للجلاء شروطا تلغيه ، ويقيده بقيود تمنعه من الحركة والنشاط ؛ لأنه يضحى بالعدل الدولى فى سبيل حريته التى تتيح له أن يتحكم فى مصير مصر ، فلا يجلو عنها إلا حين يريد وبالشروط والقيود التى يريد أن يعرضها . وهذا الشعب البريطانى نفسه يخطو خطوات إلى الشمال حين « يؤمّم » طائفة من المرافق البريطانية ، ثم يتردد ويتراجع حين يعرض لتأميم طائفة أخرى من المرافق . يلغى حرية الأفراد والجماعات فى سبيل العدل ، ولكنه يلغيها بمقدار لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا ، ويحتفظ بهذه الحرية للأفراد والجماعات بالقياس إلى بعض المرافق الأخرى ؛ لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا أيضا . فهو مذبذب بين الطموح إلى العدل والاحتفاظ بالحرية ، وكل المصاعب التى يلقاها وكل المشكلات التى تأتلف منها حياته إنما تأتيه من هذا التذبذب بين العدل الذى يقتضيه التضحية بحرية التسلط على الأمم والشعوب والتحكم فى مصير الدول والأقطار ، وبين الحرية التى تحتفظ له بالقدرة على أن يتحكم فى مصير هذه الأمم والشعوب .

والشعب الفرنسى يذهب هذا المذهب نفسه ، فهو يتذبذب بين الحرية والعدل ، يُقبل على انتخاباته العامة فى أكتوبر الماضى فيندفع اندفاعا قويا إلى شمال ، ويؤلف الكثرة فى جماعته التأسيسية من الشيوعيين والاشتراكيين ، وإذا هو يؤمّم طائفة من مرافقه ، ثم لا يلبث أن يأخذه الخوف ويملكه الذعر ، وإذا هو يرفض الدستور الذى وضعته له هذه الجماعة التأسيسية الشمالية ، فإذا طلب إليه أن ينتخب جماعة تأسيسية أخرى انحرف إلى يمين فألف كثرتها من المعتدلين

وجعل اليساريين لهم تبعا أو شيئا يشبه التبع، ودل بذلك على أنه يريد العدل ولكن بمقدار، ويحرص على الحرية أكثر مما يحرص على أى شىء آخر. وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى حديثين دار أحدهما بينى وبين رجل من عامة الشعب فى مارسيليا قبل رفض الدستور بيوم واحد. فقد قال لى هذا الرجل إنه سيرفض الدستور إذا كان الغد لأنه لا يريد دستورا يساريًّا، ولكنه سيصوِّت لليساريين بعد ذلك؛ لأنه يريد الإصلاح الاجتماعى، ولا يريد برلمانا رجعيا أو حكومة مسرفة فى الاعتدال. ودار الآخر بينى وبين أستاذ من أساتذة السوربون فى باريس بعد أن رفض الدستور بيومين. وهذا الأستاذ يسارىُّ الميل متطرف فى حبه لليسار، ولكنه رفض الدستور مع أصحاب اليمين. فلما كلمته فى ذلك قال: نعم رفضت الدستور لأنى لا أريد أن أخضع للرقابة فيما أنشر من الكتب وما أذيع من الفصول وما ألقى من الدروس والمحاضرات. فهو إذن يريد العدل ولكن بشرط ألا يقيد هذا العدل حريته حين يكتب أو يقول. وصاحب الصناعة يستطيع أن يقول كما قال هذا الأستاذ ذاته، رفض الدستور اليسارى لأنه لا يريد أن يخضع للرقابة فيما تنتج مصانعه وفيما تغل عليه من ربح. وكذلك يتردد الفرنسيون كما يتردد جيرانهم البريطانيون بين العدل والحرية: يطمحون إلى العدل ولكنهم يخافون منه إذا كمل وشمل كل شىء، ويحرصون على الحرية ولكنهم لا يكرهون تقييدها حين تضطرهم الظروف إلى ذلك. وقل إن شئت إنهم يؤثرون الحرية على كل شىء، ولا يضحون بقليل منها إلا ليحتفظوا بما يستطيعون أن يحتفظوا به. فهم يتحدثون عن العدل كما كان مستر تشرشل يتحدث عن استقلال الشعوب أثناء الحرب. يتحدثون عن العدل على أنه من هذه المُثُل العليا التى يتوق الإنسان إليها ويجدّ فى تحقيقها، ولكنه لا يبلغها لأنها من الظرف واللطف والأناقة بحيث تحسن الدلال وتمتنع على الطامحين إليها والطامعين فيها، تغريهم بنفسها وتدعوهم إلى محاسنها، ولكنها تنأى عنهم كلما دنوا منها، وتتركهم يتمثلون قول جميل لبثينة:

وَمَنَّيْتِنِى حتى إذا ما ملكتِنى ... بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطحِ
تناءيتِ عنى حين لا لِىَ حيلةٌ ... وغادَرتِ ما غادرت بين الجوانحِ

وهم يحبون من المثل العليا هذا التدلل والامتناع، وهم يستمتعون بلذة هذه النار التى تضطرم بين جوانحهم وتحرق قلوبهم شوقاً إلى العدل، وهم يكرهون أن تخمد هذه النار وأن تبرد جوانحهم، وأن يبلغوا العدل فيطمئنوا إلى أنهم بلغوه. وهم يحبون الحرية على نحو آخر، يحبون أن يأخذوها بين أيديهم ويضموها إلى صدورهم ويستمتعوا منها بأعظم حظ ممكن، لا ينالون منها حظاً إلا طمعوا فى حظ أعظم منه، ولا يفقدون منها شيئاً إلا تقطعت قلوبهم عليه حسرات. ذلك لأن هناك فرقاً خطيراً جداً بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع بالعدل. فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة؛ لأنه يدفع إلى العمل والنشاط، ويغرى بالكد والجد، ويمنع الإنسان من أن يريح ويستريح. أما الاستمتاع بالعدل فمريح حقاً؛ لأنه يقتل الطمع ويغرى بالرضا ويزين القناعة فى القلوب، أو قل يفرض القناعة على القلوب فرضا. فأى غرابة فى أن يكون الإنسان أشد إيثارا للحرية التى تملؤه قوة ونشاطاً وتدفعه إلى الأمل والعمل وتمسكه فى هذا القلق الحلو المتصل الذى لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان، منه للعدل الذى لا يثير قوة ولا نشاطاً، ولا يدفع إلى مزيد من أمل أو عمل، والذى يملأ القلوب أمنا ورضا ويعصمها من القلق والخوف!

والأمر فى سائر أوربا الغربية كالأمر فى فرنسا وبريطانيا العظمى: حب مؤكد للحرية، وحرص مصمم عليها، وطموح إلى العدل كما يطمح العشاق العذريون إلى من يعشقون.

وحسبك أن تنظر إلى بلجيكا وهولندا، فهما كبريطانيا العظمى وفرنسا تمجدان العدل وتغنيان بمحاسنه، ولا تكرهان أن تحققا منه شيئاً فى الأرض البلجيكية والهولندية مختارتين أو مضطرتين، ولكنهما فى الوقت نفسه تؤثران الحرية أشد الإيثار: تؤثرانها فى السياسة الخارجية؛ فالعدل لم يخلق لأندونسيا مثلا ولا للكونجو البلجيكية، كما أنه لم يخلق للمستعمرات البريطانية والفرنسية وللشعوب الضعيفة بوجه عام. وهو إن كان قد خلق لأوربا، فإنما خلق لها لتصيب منه بمقدار كالملح الذى يصلح قليله الطعام، فإذا كثر فسد له الطعام فساداً شديداً. ولذلك تحتفظ بلجيكا وهولندا، كما تحتفظ فرنسا وبريطانيا العظمى، بحرية واسعة شديدة السعة للأفراد والجماعات، وتحاولان

تحقيق شىء من العدل ؛ لتُسكتنا هؤلاء الطامعين فيه المطالبين به الذين لا ينفكون يجأرون بطلب العدل الاجتماعى حين يمسون وحين يصبحون .

وليس من اليسير أن نتبين ميول ألمانيا المنهزمة ؛ فهى لم تظفر بعدُ بهذا القدر اليسير من الحرية لتعرب عما تريد فى مستقبلها القاتم ، ولكنها على كل حال قد قُسمت بين المنتصرين يحتل كل منهم جزءا من أرضها . وهؤلاء المنتصرون يهيئون الشعب الألمانى أو يحاولون تهيئته لما يحبون ويألفون من مذهب فى السياسة والاجتماع . فأوربا الغربية وأمريكا تهيئان جزءا من الشعب الألمانى او تحاولان تهيئته لهذه الديمقراطية التقليدية التى تؤثر الحرية على العدل ، وتتخذ الإصلاح الاجتماعى وسيلة إلى إرضاء الطبقات البائسة من جهة ، وإلى الدفاع عن نفسها والاحتفاظ بما بقى لها من السلطان والقوة من جهة أخرى . ولكن روسيا السوفيتية تحتل جزءا عظيما من ألمانيا ، وهى تهيئه أو تحاول تهيئته لمذهبها فى السياسة والاجتماع . ومذهبها واضح معروف ؛ فهى تؤثر العدل والمساواة وإلغاء التنافس والتزاحم والتفوق والامتياز على الحرية وما تستتبع من اصطراع بين الأفراد والجماعات واستباق ، إلى تحقيق المنافع واستئثار بهذه المنافع إذا تم تحقيقها .

وهذا الخلاف العنيف القائم بين هاتين القوتين : قوة الحرية فى أمريكا وغرب أوربا ، وقوة العدل فى روسيا ، هو الذى جعل حياة المنتصرين عسيرة منذ وضعت الحرب أوزارها فى الشرق والغرب ، وهو الذى حال بينهم وبين الاتفاق حين اجتمعوا فى أكتوبر الماضى ، وحين اجتمعوا فى أبريل ومايو ، ويوشك أن يحول بينهم وبين الاتفاق حين يجتمعون بعد أيام قليلة فى باريس .

وليس الستار الحديدى الذى يقال إن روسيا قد ألقته من دون جزء عظيم من أوربا الشرقية والجنوبية إلا سورًا منيعاً يحول بين الحرية والعدل ، وبين أن يلتقيا وجها لوجه ويصطدما فى ميدان واحد . فأوربا الغربية خاضعة للحرية وما تستتبع من تنافس وخصام ، وأوربا الشرقية خاضعة للعدل وما يستتبع من تسلط وقهر وكبح لجماح المنافع والأطماع . وإذا أجرت الأمة اليونانية انتخاباتها بأعين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين وكانت نتيجة هذه الانتخابات ميامنة لا مياسرة ، قال الروسيون : إن هذه الانتخابات لم تجر حرة ولم تكن بمأمن من تدخل الديمقراطية الغربية ، وما يسندها من رأس المال . فاذا دبرت بلغاريا

ورومانيا والمجر ويوجسلافيا وتشكوسلوفاكيا شؤونها بالانتخابات أو بإقامة الحكومات المؤقتة ، وكانت نتيجة هذا كله انحراف هذه الأمم إلى اليسار ، قال الإنجليز والأمريكيون والفرنسيون معهم : إن هذه الأمم ليست حرة فى تقرير مصيرها ، وإنما هى متأثرة بالسلطان الروسى العنيف فى كل ما تعمل وفى كل ما تقول . وليس لهذا كله معنى إلا أن الشعوب الصغيرة فى أوربا قد اضطرت هى أيضاً إلى التذبذب بين مذاهب الأقوياء من أنصار الحرية والعدل، فهى فى غرب أوربا منحازة إلى الحرية ؛ لأن الأقوياء من المنتصرين هناك ينحازون إليها ، وهى فى شرق أوربا وجنوبها منحازة إلى العدل ؛ لأن الأقوياء هناك ينحازون إليه. والواقع أن إرادة هذه الشعوب لم يتح لها ماينبغى أن يتاح لها من الفرص لتظهر جلية لا يشوبها لبس ولا غموض . وقد يكون الموقف الأسبانى من أوضح الأشياء دلالة على هذه الخصومة بين العدل والحرية. ويجب أن نلاحظ أن التسلط والقهر هما الأداتان اللتان يصطنعهما العدل كما تصطنعهما الحرية، يدافع بهما كل منهما عن نفسه، ويثبِّت بهما كل منهما سلطانه. فالجيش البريطانى هو الذى أيد الحرية فى اليونان على حساب العدل ، والجيش الروسى هو الذى أيد العدل فى شرق أوربا على حساب الحرية . وليس لأحد من المنتصرين جيش فى أسبانيا الفاشية ، ولو قد وجد هذا الجيش لانحازت أسبانيا الفاشية إلى مذهب الحرية إن كان الجيش بريطانيا أو أمريكيا ، وإلى مذهب العدل إن كان الجيش روسيا . ولكن أسبانيا ليست محتلة؛ ولذلك كان موقفها دليلا واضحا على اشتداد الخصومة بين هذين المذهبين . فأما أنصار العدل وهم الروسيون والفرنسيون حين كان الأمر فى فرنسا إلى اليسار، فيريدون إلغاء النظام الفاشى فى أسبانيا وإن أدى ذلك إلى التدخل العسكرى فى الشئون الأسبانية . وأيسرما يطلبونه أن تقطع العلاقات السياسية بين جميع الدول المنتصرة على اختلاف مذاهبها وبين أسبانيا الفاشية ، وأن تعترف الدول المنتصرة بالحكومة الأسبانية المنفية التى أقامت فى أمريكا اللاتينية حيناً وتريد أن تنتقل إلى فرنسا فى هذه الأيام . وهم يعتمدون فيما يطلبون على أن الديمقراطية المنتصرة لا ينبغى أن تسمح للفاشية بالبقاء ، وعلى أن نظام الأمم المتحدة وميثاق سان فرنسسكو يفرضان ذلك فرضاً ، وعلى أن أسبانيا الفاشية قد ظاهرت ألمانيا وإيطاليا لأنها مدينة لهما بالوجود . ولكن البريطانيين والأمريكيين يؤمنون

هنا بحرية الشعوب إيماناً يوشك أن يكون تعصباً . فالشعب الأسبانى حر فى اختيار الحكومة التى تسيطر على أمره ، وما ينبغى للسلطان الخارجى أن يتدخل فى الشؤون الأسبانية الخالصة ، ولا أن يفرض على أسبانيا حكومة وإن كانت ديمقراطية ، ولا أن يخلص أسبانيا من حكومة وإن كانت فاشية قد حاربت الديمقراطية وأعانت عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

ونتيجة هذا كله أن الشعب الأسبانى نفسه منقسم فى ظاهر الأمر على الأقل: فريق منه يريد أن يعود إلى النظام الجمهورى اليسارى ، وفريق آخر يريد أن يحتفظ بالنظام الفاشى الميامن . فأما قبل الحرب فقد أقبلت ألمانيا وإيطاليا فى غير تردد على تأييد النظام الفاشى فى أسبانيا بالسلاح ، وأما بعد الحرب وبعد انتصار الديمقراطية ، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تأبيان حتى قطع العلاقات السياسية مع الفاشية الأسبانية التى أعانت على الديمقراطية ودبرت لها ألوان الكيد .

فالأمر كله إذن إنما يرجع ، قبل كل شىء وبعد كل شىء ، إلى الصراع بين هذين المذهبين : مذهب الحرية الذى يعتمد على رأس المال ، ومذهب العدل الذى يعتمد على الشيوعية .

وكما أن روسيا ألقت ستاراً حديديًّا من دون الشرق الأوربى والجنوب الأوربى، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تلقيان ستاراً حديدياً آخر من دون الغرب الأوربى . وكل هذا قد يكون له خطره فى مستقبل العالم ، ولكن هناك ماهو أشد خطراً من هذا كله ، وهو أن الشعوب نفسها منقسمة فى حياتها الداخلية أشد الانقسام ، ينحاز فريق منها إلى الحرية فيتبع بريطانيا العظمى وأمريكا ، ويستعين بهما على خصومه إن احتاج إلى ذلك ، وينحاز فريق آخر إلى العدل فيتبع روسيا ، ويستعين بها على خصومه إن احتاج إلى ذلك . وينشأ عن هذا أن تصبح كلمة الاستقلال من الكلمات الجوفاء التى لا تدل الآن على معنى محقق فى حياة هذه الشعوب .

وقد كان من المضحك حقًّا أثناء الصراع الانتخابى فى فرنسا أن يتهم أنصار الحرية خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من موسكو ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلا لروسيا ، وأن يتهم أنصار العدل خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من واشنجطون ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلا لأمريكا . والواقع أن أولئك وهؤلاء كانوا يسرفون ، ويعلمون أنهم يسرفون . فقد أصبحت فكرة العدل أساساً

لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون دينا ، وأصبحت فكرة الحرية أساساً لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون ديناً أيضاً . فالذين ينحازون إلى هذا المذهب أو ذاك ويؤمنون بهذا الدين أو ذاك ، مضطرون بالطبع إلى أن يظاهروا شركاءهم فى الرأى وإخوانهم فى الدين . فانحياز أنصار العدل فى فرنسا إلى روسيا كانحياز أنصار الحرية فيها إلى أمريكا ، ظاهرة طبيعية يمكن أن تقاس إلى انحياز المسلمين فى وقت من الأوقات إلى عاصمة الخلافة ، وإلى انحياز النصارى فى وقت من الأوقات إلى عاصمة المسيحية فى روما .

على أن هذا الاختلاف بين المذهبين لم يلبث أن تعقّد بعد الحرب العالمية الأولى بظهور مذهب وسط يريد أن يحتفظ بالحرية وأن يحقق العدل فى الأرض ، ولكنه لم ينظر إلى الحرية من حيث هى ولا إلى العدل من حيث هو ، وإنما نظر إليهما جميعاً من ناحية خاصة هى ناحية الدين . فأنصار العدل من الشيوعيين والاشتراكيين يعتمدون قبل كل شىء على المادية التى تجحد الديانات جحوداً تامًّا ، وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخى محتوم . وأصحاب الحرية ، ولا سيما منذ الثورة الفرنسية ، لا يكادون يحفلون بالدين ، ولا يكادون يلقون إليه بالاً . فإذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ الدين أساساً لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة ، وترقى إلى المثل العليا ، وتؤمن بأن فى الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه من الرقى إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسى الأول من طريق الإيمان والثقة والأمل — أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان فى نشوئه الخير كل الخير ؛ لأنه يصلح ما أفسدت الثورة ، فيرد إلى الدين مكانته فى القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم فى الوقت نفسه نصيباً معتدلا من الحرية ، ويتيح لهم فى الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل فى الأرض .

وكذلك نشأت الاشتراكية المسيحية التى لا تقيم العدل على الجبر التاريخى ، ولا تجعل الإصلاح نتيجة للتطور المادى ، ولا تلغى حرية الفرد ولا حرية الجماعات ، وإنما تقيم أمور الناس على التعاطف والتعاون والحب ، وتجمع قلوبهم حول هذه المثل الإنسانية والإلهية العليا .

وليس من شك فى أن أهوال الحربين العالميتين كان لها أعظم الأثر فى إنشاء هذا المذهب وانتشاره وانتصاره فى بعض الأقطار. فهذه الأهوال التى صبّتها الحرب على الناس، وهذه الكوارث التى تغلغلت فى حياة الأفراد والجماعات، وهذه القسوة التى قطعت ما بين الناس من أرحام أمر الله أن توصل، كل هذا قد زهّد الناس فى الإيمان بسلطان العلم وتفوقه، وصرفهم عن هذه الفتنة التى ملأت قلوبهم وملكت أمرهم فى القرن الماضى، واضطرهم إلى التفكير فى العلم أن ليس كل شئ وفى أن العقل ليس كل شئ، وفى أن الإنسان لا يأتلف من العقل والجسم فحسب، ولكن له ملكات أخرى لا ينبغى أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغى أن تزدرى. ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور، ومن أهم هذه الحاجات الحاجة إلى الإيمان بقوة قدسية مدبرة لشؤون الإنسان تسمو به إلى الخير، وتنهاه عن الشر، وتنأى به عن الموبقات. وقد أعان على انتشار هذا المذهب وانتصاره بعد الحرب العالمية الثانية، أن أتيح حق الانتخاب للنساء فى أكثر الشعوب الأوربية بعد أن كان هذا الحق مقصوراً على الرجال؛ ولذلك انتصرت الاشتراكية المسيحية فى فرنسا أخيراً بانتصار الحركة الجمهورية الشعبية على حساب الاشتراكيين الماركسيين، وانتصرت الديمقراطية المسيحية فى إيطاليا على حساب الاشتراكية الماركسية أيضاً، وأصبحت هذه الاشتراكية المسيحية الجديدة قوة لها خطرها فى الحياة السياسية لأوربا الغربية بوجه عام. ولست أدرى أيتاح لهذه الاشتراكية المسيحية فوز متصل أم هى أعقاب الحرب لا تكاد تمضى عليها الأعوام حتى تعود الحياة الأوربية إلى طبيعتها، ويستأنف الصراع عنيفاً بين هذين المذهبين: مذهب الحرية ومذهب العدل. ذلك أن هذا المذهب الاشتراكى المسيحى جميل رائع فى نفسه، مثله فى ذلك مثل مذهب العدل ومذهب الحرية، ولكنه لا يكاد يخرج إلى الوجود اليومى ويعالج مشكلات الحياة الطارئة حتى يصيبه ما يصيب المذهبين من هذه الأعراض التى تبغّضه إلى فريق من الناس وتحببه إلى فريق.

فالاشتراكية المسيحية لا تلغى رأس المال، وإذن فسيطمئن إليها رأس المال، وسينفر منها طلاّب المساواة الخالصة والعدل المطلق. والاشتراكية المسيحية لا تنكر الإصلاح الاجتماعى وإنما تدفع إليه دفعاً وقد تتطرف فيه أحياناً، وإذن فسيستغلها المتطرفون لتحقيق بعض ما يريدون، وسيشفق منها المحافظون، لأنها

تكلفهم أكثر مما يريدون أن يتكلفوا . والاشتراكية المسيحية بحكم عنوانها واستمساكها بالدين مضطرة إلى مصانعة الكنيسة أو قل إلى طاعة الكنيسة وإرضائها ، وإذن فسينفر منها جمهور ضخم من الأوربيين ومن المفكرين الذين قطعوا ما بينهم وبين الكنيسة من الأسباب منذ وقت طويل . وخذ مثلا واحداً لهذا الموقف الوسط الذى يضطر الاشتراكية المسيحية إلى الحرج فى بلد كفرنسا ؛ فهذه الاشتراكية المسيحية تطالب بحرية التعليم التى يطالب بها المحافظون الغلاة . وحرية التعليم هذه ينكرها عدد ضخم من الفرنسيين الذين ناصروا الفصل بين الكنيسة والدولة ، والذين حملوا الجمهورية الفرنسية الثالثة على أن تجعل التعليم من شأن الدولة خاضعاً لسلطانها ملتزماً للحيدة الدينية الكاملة . فليس بدٌّ إذن من أن تجد الاشتراكية المسيحية كثيراً جدا من العناء حين تعالج هذه المسألة؛ لأن أنصار العدل الماركسى لم يضعفوا ولم يستيئسوا ، وإنما هم محتفظون بقوتهم التى تزداد انتشاراً وانتصاراً من يوم إلى يوم . فالاشتراكية المسيحية فى حقيقة الأمر توشك أن تكون طوراً من هذه الأطوار الانتقالية التى تطمئن إليها الشعوب حين تجهدها الحرب وتكلفها الأزمات من الجهد والمشقة ما لا تطيق . فاذا ما استجمت واستردت قوتها ونشاطها ضاقت بالمواقف المتوسطة واستأنفت الصراع بين القديم والجديد ، بين المحافظة والتطرف ، أو قل — إن شئت — بين الاستمساك بالحرية والطموح إلى العدل .

والشئ الذى ليس فيه شك هو أن طبيعة الإنسان تدفعه دائماً إلى الترقى ؛ فهو لا يبلغ من الرقى طوراً حتى يسمو إلى طور خير منه « وحاجة من عاش لا تنقضى » كما يقول شاعرنا العظيم . والحضارة الإنسانية المادية مسرعة إلى التطور وإلى تيسير الترف وإذاعته وجعله فى متناول الناس جميعاً . فليس للإنسانية بدٌّ من أن تلقى على نفسها دائماً هذا السؤال : لماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر ؟ لماذا يفرِّق بين الناس فى الاستمتاع بالحياة على حين يسوِّى بينهم فى الدخول إلى الحياة والخروج منها ؟ لماذا يعمل العامل ويزرع الزارع ويملأ كلاهما الأرض بأسباب الترف ووسائل النعيم لينتفع بنتيجة هذا العمل فريق من الناس لا يعملون ولا يزرعون ولا يبذلون جهداً ولا يحتملون فى الحياة عناء ؟ ولماذا يتاح الفراغ لقلة من الناس ويفرض العناء على كثرتهم ؟ هذه الأسئلة ألقيت على الناس منذ أقدم العصور ، ولكنهم لم يحققوها فى أنفسهم

كما يحققونها الآن ، وهم يعتقدون مصيبين أو مخطئين ، راضين أو كارهين أن العدل يجب أن يكون هو الغاية الأخيرة للحياة ، وأن المساواة الصحيحة فى تمكين الناس من أن ينتفعوا بهذا العـدل هى الوسيلة إلى تحقيق هذه الغاية الكبرى . فإذا ذكرت لهم الحرية ومآثرها ومحاسنها — وما أكثر ما للحرية من مآثر ومحاسن! — فسيقولون لك إن الحرية لن تطعم الجائع ولن تكسو العارى ولن تسقى الظمآن . وسيقولون لك إن الرجل البائس لا يستطيع أن ينتفع بحريته، لأن الحرية لا تغنى إلا مع الاستطاعة . وسيقولون لك إن الحرية خير ما فى ذلك شك ، ولـكن بشرط أن تمنح للناس بعد أن تتحقق بينهم المساواة ويستقر بينهم العدل ويصبح بمأمن من كل عبث ومن كل طغيان . وسيقولون لك إن الحرية إذا منحت للناس قبل أن يستقر بينهم العدل أثارت بينهم التنافس وأذاعت بينهم البغض وأشاعت فيهم الطمع والحسد والحقد وجعلت بعضهم لبعض عدوًّا . وسيستدلون بالتاريخ كله على هذا كله . وسيقولون يجب أن يتحقق العـدل أولاً وأن يتساوى الناس فى الانتفاع بالحياة كما تساووا فى الدخول إليها والخروج منها . فإذا تم لهم ذلك فامنحهم الحرية إن شئت . فلن تعرِّضهم للشر ، ولن تثير بينهم كيداً ولا مكراً ولا غدراً ولا عداء .

وقد تعترض عليهم بأن تحقيق العدل الذى يريدونه ، والمساواة التى يطمحون إليها ويطمعون فيها ، يدعو إلى كثير من الشر ، وأول هذا الشر إلغاء الحرية وإزالُ القوى عن قوته والمتفوق عن تفوقه والغنى عن غناه ، وحملُ الناس على ألوان من الحياة متشابهة بغيضة لتشابهها، وأخذُهم بالعنف حتى يحملوا على الجادّة ويهتدوا إلى الصراط المستقيم . وقد تضرب لهم الأمثال بما يجرى هنا وهناك فى البيئات التى حاولت تحقيق العدل والمساواة من العنف المنكر والتسلط الذى لايطاق ، ولـكنهم سيجيبونك دائما بأن الإنسانية مريضة ، وبأن شفاء المريض لا يكون بمداعبته وتدليله ، وإنما يكون بحمله على تعاطى الدواء مهما يكن مرًّا بغيضا ، وبحمله أحيانا على ما هو أشق مشقة وأجهد جهدا وأثقل ثقلا من الدواء المر البغيض .

فالإنسانية بين اثنتين: إما أن تريد الشفاء ، فتسلك إليه طريقه المستقيمة، وإما أن تؤثر المرض ، فتشقى بآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء . وكذلك ستظل الإنسانية مضطربة بين هذين المذهبين : مذهب العدل وما يقتضى من وسائل قد تكون

منكرة فى كثير من الأحيان ، ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست أقل من وسائل العدل نكرا . ومن يدرى ! لعل يوما من الأيام قريبا أو بعيدا يرى ذلك الفيلسوف الذى يبتكر للإنسانية مزاجا معتدلا من الحياة يتحقق فيه العدل من غير عنف ، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولا شقاء . ويرحم الله عمر ، فقد أراد أن يحمل المسلمين على ذلك ، ومضى بهم فى سبيله قُدُماً ، وحقق لهم منه شيئاً كثيراً . ولكن الشاعر الذى رثاه لم يخطىء حين قال :

عليك سلامٌ من إمامٍ ، وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزّقِ
فمن يَسْعَ أو يركب جناحَىْ نعامة ... ليدرك ما قدّمتَ بالأمس يُسْبَقِ
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائقَ فى أكمامها لم تفتّقِ

طه حسين

باريس ، يونيه ١٩٤٦

فى أفق السياسة العالمية

مشاكل البلقان

تناول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا فيما تناوله من الشؤون الخارجية فى بيانه الأخير الذى ألقاه فى مجلس العموم فى أوائل شهر يونيه ، مسألة تريستة ، وقال بشأنها إن أخشى ما يخشاه « أن تصبح تريستة بيدقاً تحركه أيدى اللاعبين على رقعة الشطرنج الدولية » . ولكن هل بقى إقليم أو ميناء فى شرق أوربا أو فى منطقة البلقان ليس للدول فيه أصبع ظاهرة أو خفية تحرك سياسته يميناً أو يساراً وفق الآراء والمبادئ التى تدين بها الدولة التى تحركه ؟

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ، ففرقت بينهم فى الجنس واللغة والثقافة والمذهب الدينى ، كما فرقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التى تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضاً ، وجعلت المواصلات فيما بين البلاد أمراً بالغاً منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البلاد التى جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة !

وإذا كان معظم سكان البلقان ينتمون إلى العنصر السلافى ، فإن فى هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل ، فنهم الأتراك والأرنؤوط أو الألبانيون والإغريق والمقدونيون والرومانيون والصرب والكروات والسلوفين والبلغار ، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ، ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم ، فأودى ذلك نهائياً بطمأنينتها وأمنها ، وجعل منها ، كما يقولون ، برميلا جافاً من البارود يوشك فى كل لحظة أن ينفجر ، فلا تقتصر ناره على الأرض المجاورة ، بل تتعدى الحدود وتتصل ألسنتها بالمحيط الدولى ، فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البارود فى صيف سنة ١٩١٤ فى سرايفو إحدى مدن الصرب ، فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت فى ربيع

سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني فى يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام ، وشرّد مليكها وأسرته ، ووضع تاج ألبانيا على رأس ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتبعات . وإذا سارت الحال فى البلقان على النهج الذى تفضى إليه سياسة الدول الكبرى فى هذه الآونة ، فأكبر الظن أن حربا بل حروباً أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد ، وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة .

ولقد يدهش الباحث إذ يعلم ان البارود الذى ينفجر فى البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ، ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التى يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هى التى تصدر البارود إلى هذه البلاد ، حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ، ونسبتهم إلى الشر والعدوان . والحق أنه لا عيب فى هذه الشعوب إلا فقرها المدقع ، وجهلها المروع ، وحبها الملتهب للحرية والاستقلال

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان ، بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول فى التخلص من نير الأتراك ، وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الدانمرقة ، وكانت زوجته أميرة روسية ، وأخته زوجة ولى عهد انجلترا الذى خلف والدته الملكة فكتوريا باسم إدورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألمانى آخر باسم الملك فردينند . وكذلك اختير لألبانيا فى أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد الألمانى . أما مملكة الصرب ، وهى يوغسلافيا الحديثة ، فهى الدولة البلقانية الوحيدة التى لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة ، ورفعت إلى عرشها أميراً اختارته من بين أسرها العريقة . وكان آخر ملوكها بطرس الثانى الذى نحى عن العرش فى سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركى أو الحكم النمسوى مدة تتراوح بين أربعة قرون أو خمسة ، فلما همت فى القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال ثم بالتيجان ، حتى إذا ما تنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيها وظفرت

بالاستقلال السياسى ، بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثه زوال الحكم التركى أو النمسوى من محيطها ، فراحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب إما داخل حدودها وإما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلا منها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ، ثم وطن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعاً — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد .

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الأسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى ؛ فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان ، وما لبثت رومانيا أن تدخلتا وتركيا فى الحرب ، فاستردت تركيا أدرنة ، واحتلت رومانيا دبروجة ، وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان ، ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فكان جزاؤها أن حرمت المنفذ الذى طالما منّت به نفسها على بحر إيجه ، كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ، ومن مقدونيا ليوغسلافيا .

وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال بعض الشئ فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوربا عامة ، وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى ، فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى أنقرة ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكمالية . وبذلك أتيحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشؤونها الداخلية ، وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلمة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة ، حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحربية كبرى ، فارتفع مقام رومانيا إلى مصاف الدول المهمة ، وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتى موانى وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان ، وسوّت الحكومتان ما كان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى انتهجها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ، وإنشائه تركيا الجديدة ؛ فقد قرّ رأى الزعيم التركى على

اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جدورها ، وذلك بتبادل الأقليات بينهما ، فتفتح اليونان أبوابها لمليون وربع مليون من الإغريق المتوطنين فى تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان. وقد فعل هـذا التبادل — على رغم ما لاقاه المتبادَلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمانية والعاطفية — فعل السحر فى تحسين العلاقات بين الشعبين ، حتى أصبحا كأنهما أسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين فى سياسة البلقان الجديدة . وذلك أنه ما كادت تختفى روسيا من الميدان السياسى فى البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها ، حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا ، فتنشر نفوذها السياسى فى ربوع البلقان وشرق البحر المتوسط . وفعلاً بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولـكن سرعان ما بانت نيات إيطاليا التوسعية عند ما احتلت جزيرة كرفو التابعة لليونان فى سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين ألبانيـا وإيطاليا ، وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية فى اللجنة التى كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيـام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا . وقد تحققت مخاوف البلقان من ناحية إيطاليا عند ما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا وألبانيـا سنة ١٩٢٦ ، وكان فحواها أن تصبح ألبانيا فى حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا ، فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانى لتثب منها عنـد الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، ولتستطيع أن تتحكم فى مضيق أترنتو عند مدخل البحر الأدرياتى ، فيبقى الأسطول اليوغسلافى الحربى والتجارى تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان ، وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها ، فإنها ستستمر ألعوبة فى أيدى الدول الـكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وفجأة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً ، وأنهم قد وصلوا من النضج السياسى إلى درجة خليقة بأن تجعلهم يقفون صفـاً واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم . وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعى تركيا واليونان الميثاق البلقانى سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيـا ولم تشذ إلا ألبانيا وبلغاريا ؛ إذ كانت الأولى فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وكانت الثانية

تطمع فى إعادة النظر فى معاهدات الصلح ، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة فى البلقان . وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة ؛ فلأول مرة فى تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين .

وقد كان الميثاق خير درع لدول البلقان فى أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥ ، فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشى . وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا فى سنة ١٩٣٦ عندما دعت مؤتمر الدول فى منترو ليقرر النظام الجديد للمضايق فى مصلحة تركيا . ولكن وا أسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية . فالتزمت دول البلقان الحيدة فى أول الأمر ، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب ، وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غرباً وشرقاً ، فسيّر قواته من ليبيا ضد بريطانيا فى مصر ، وتحركت كتائبه من ألبانيا ضد اليونان ، فوقف الإغريق أمام المعتدين وقفتهم التى استرعت إعجاب العالم . وتحرج مركز المحور فى البلقان ، فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأنزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكتسح دول البلقان واحدة بعد أخرى حتى لم ينج منها سوى تركيا . وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات . وماذا يغنى الميثاق ؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبقت منه الحرب الخاطفة التى حالفت الألمان فى سنى الحرب الأولى أى أثر ، وهى التى داست المواثيق والمعاهدات ، وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شر ممزق !

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب ، سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحا لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية . وقد تعقدت مشاكلها فى هذه المرة على أثر عودة روسيا أمهم السلافية الأرثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة فى دور البطولة العالمية . وإذا ما اجتمعت الأم بفراخها فعسير عليها أن تدع لأحدمنها حريته أو استقلاله ، بل إن غريزة الأمومة فيها لكفيلة أن تدفعها يوما إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم من الأيدى التى تمتد إليهم ، ولو كانت تمتد لإطعامهم !

وفى هذه المرة لاتريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فهى تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقا وصدقا وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة . وقد نزلت أخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها، فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التى تنتمى إليها الكثرة العظمى من سكان البلقان . وتريد روسيا أن يكون مقامها فى البلقان شبيها بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية، مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا على أن تكون وفق نظامها الشيوعى وعلى هواها .

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان ؛ ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان فى الحرب الأخيرة، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان فى التجارة كما كسبتها منهم ألمانيا قبل الحرب الأخيرة، حتى بلغ ماتصدره ألمانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠ ٪ من وارداتهما . ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادى إلا إذا نهضت بصناعاتها وأنتجت مثل ما كانت تصدره ألمانيا للبلقان من عُدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة . ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا إذا توافرت لروسيا الأيدى العاملة التى لايتم تدريبها إلا بعد سنوات طويلة . وفى هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لمقيام مبدأ حرية التجارة فى البلقان، وإما أن تأباه فتتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة .

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا فى مركزها الاقتصادى فى البلقان، فإنها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وريثة إيطاليا فى البحر المتوسط، حتى يصحح التوازن الدولى فى حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل . لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيجية، فلم تكتف بالجلوس إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية كما تقرر فى العام الماضى، بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضايق، ويقولون إنها تطالب الآن بقاعدة حربية فى منطقة المضايق، وبمقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس، كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل .

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضاً وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة

فى مطالبتها بضم تريستة ومنطقة ڤنيزيا جوليا على البحر الأدرياتى ، وقد احتلت منها ميناء فيومى وما جاورها من الأراضى . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزى والهوان فى الحرب الأخيرة سيقلل من أمل إيطاليا فى الاحتفاظ بهذا الإقليم ، لاسيما أن الكثرة الطليانية فى هذه البقاع ليست فى الحقيقة إلا كثرة اصطناعية حديثة العهد غير متأصلة فى صميم البيئة ، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء الطليان قد اعتنقوا أخيراً كغيرهم من العمال فى المدن والموانى فى أنحاء أخرى مبادئ الحزب الشيوعى ، وأصبحوا لا يرغبون فى العودة إلى الحكم الإيطالى الذى ناوأ الشيوعية فى الماضى . وقد أكد مستر بيڤن فى خطبته الأخيرة أنه لا مناص من تحويل تريستة إلى ميناء دولى حر للجميع ، تستفيد منه يوغسلاڤيا وسائر دول أوربا الوسطى .

وتهدف حكومة السوڤيت فى مناصرتها ليوغسلاڤيا إلى السيطرة على البحر الإدرياتى الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلاڤيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعى .

وكذلك تقف حكومة السوڤيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها . فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع ألمانيا ، فإن صلات الدم الوثيقة التى تربط بلغاريا بروسيا ، لم تنفصم عراها حتى فى أحلك ساعات الحرب عند ما كانت ألمانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا بتحقيق حلمها فى بحر إيجه وفى تراقيا ومقدونيا على حساب اليونان . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل البلشفية من جهة والرجعية من جهة أخرى ، فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية فى البحر المتوسط . ومع أن الأمل كبير فى أن تحتضن اليونان جزر الدوديكانيز وردوس فأكبر الظن أن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك فى أنه إذا انجلت القوات البريطانية عن اليونان بعد استفتاء الشعب فى موضوع الملكية ، فإن النفوذ الشيوعى سيطغى على البلاد ويصبح مصير البلاد مربوطاً بعجلة السوڤيت . لذلك تعتبر مسألة نظام الحكم فى اليونان من أهم أسباب النزاع الدولى الحالى .

أما فى رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بسارابيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوڤيت ، وكذلك فى ألبانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برياسة أنور حجة ، بعد أن ألغيت فيها الملكية فى أوائل هذا العام

وأخيراً تبقى روســيا وجهاً لوجه أمام تركيا ، وهى بحكم موقعها عند أهم النقط الاستراتيجية فى البحر المتوسط ، ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب البلقان وأشدهم مراساً وأكثرهم عدة وعدداً فى الحرب ، فضلا عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا — لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذى يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذى «تبلقن» أخيراً ، وشاكل صنوه فى أخطاره ومنافساته . فإذا لم تسوَّ العلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضايق وحدود تركيا الشمالية الشرقية ، فإن برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكا وأعم خراباً من البارود ، وحينئذ يتاح للدول أن تجد حلاً نهائيًا لمشاكل البلقان وغيرها .

ولعل للموضوع بقية فى فرصة أخرى .

محمد رفعت

القضية المصرية

وهيئة الأمم المتحدة

فى مصر وسائر بلاد العربية، وفى بريتانيا العظمى وسائر أجزاء الإمبراطورية، وكذلك فى تركيا واليونان، وفى الهند وإيران، اهتمام بمصير المفاوضات التى بدأت فى القاهرة بين ممثلى الحكومتين المصرية والبريتانية قصد الوصول إلى تسوية ما بينهما من خلاف على ما تريد مصر أن تحققه من « مطالب قومية » وما تريد انجلترا أن تحتفظ به من « مصالح » فى هذا الجانب من العالم.

ويُعْنَى الساسة وأولو الرأى فى تلك البلاد وفى غيرها أيضاً بما قد ينشأ من إخفاق المفاوضات: هل ترفع مصر أمرها إلى هيئة الأمم المتحدة؟ وهل تختص الجمعية العامة لهذه الهيئة أو مجلس الأمن الدولى بالنظر فى ذلك الأمر إذا رفع إلى واحدة من جهتيهما؟

وقد رأيت فى طريقة تقديم بحثى هذا الموضوع أن أبدأ بتحديد الخلاف بين وجهتى النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية، وأن أثنى بتكييف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة الأمم المتحدة، ثم أعالج مسألة الاختصاص ونوع النظر عن الطريق العادى أو على وجه الاستعجال، وأدلى بعد ذلك بالنصوص المستمدة من ميثاق سان فرنسيسكو، والتى يستند إليها من يعرض للحكم فى الخلاف.

أما القضية المصرية فهى من وجهة النظر المصرية قضية استكمال لاستقلال مصر، وحرص على مطلق سيادتها على أراضيها جميعاً. وقد انتهت مصر أفراداً وهيئات، شعباً وأحزاباً وحكومات، إلى التعبير عن وجهة نظرها بأبسط عبارة: « الجلاء ووحدة وادى النيل »، جلاء الجنود الأجنبية جلاء ناجزاً لارجعة فيه عن البر والبحر والجو، ووحدة الوادى بالنظام الذى يرتضيه أهله المصريون والسودانيون وحدهم.

وهى من وجهة النظر البريتانية قضية اعتبار مصر منطقة استراتيجية

بريتانية لحماية المواصلات الإمبراطورية وللمحافظة على السلم فى الشرق الأدنى أو الأوسط ، واعتبار السودان إقليما مفتوحاً مملوكا بحق الفتح المزدوج وخاضعاً للسيادة المزدوجة ، وإدارته مشاركة ثنائية لبريتانيا العظمى فيها حصة الأسد .

ومصر تصدر عن حق استقلالها وسيادتها المعترف بهما دوليًّا ، وبريتانيا تعتمد على واقع قوتها المسلحة واحتلالها العسكرى ، وتحاول الاستناد إلى أداة دبلوماسية هى معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تقول بالمفاوضة فى سبيل تعديلها ، ومصر تدفع هـذا الاستناد باعتبار تلك المعاهدة باطلة أو « غير ذات موضوع » ، وتلوح بأن الاتفاقية الدولية المعقودة فى أكتوبر من سنة ١٨٨٨ هى وحدها المقررة لنظام الملاحة فى قناة السويس والمحافظة عليها ، وبأن المحافظة على السلم لافى الشرق الأدنى وحده بل فى العالم كله قد أصبحت من اختصاص هيئة الأمم المتحدة ، لا من شأن دولة واحدة مهما عظمت .

وهكذا يتحدد الخلاف بين وجهتى النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية .

أما تكييف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة « الأمم المتحدة » فيرجع إلى أن مصر وبريتانيا العظمى عضوان فى هده الهيئة ، وهما مرتبطتان على حد سواء وبعَديد الالتزامات الواردة فى ميثاق سان فرنسيسكو . وبين هذه الالتزامات تلك التى تضمنتها أحكام المادة الثانية من الميثاق من إقامة العلاقات « على مبدأ المساواة فى السيادة بين جميع الأعضاء » ، (فقرة ١) ، و « امتناعهم فى علاقاتهم الدولية عن أن يهددوا بالقوة أو أن يستخدموها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة » (فقرة ٤) ، و « عدم التدخل فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » (فقرة ٧) ، وتلك التى تقضى بها الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من أن « يعهد الأعضاء إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقوا على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات » . وكذلك ما أشارت إليه الفقرة الأولى من المادة الخامسة والثلاثين من « تنبيه كل عضو من الأمم المتحدة مجلس الأمن أو الجمعية العامة إلى أى نزاع أو موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعاً . » ثم ما نصت عليه المادة الثالثة بعد المئة من

أنه « إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وبهذا كله تتكيف العلاقة بين الخلاف المصرى البريتانى وهيئة الأمم المتحدة، وهى علاقة حتمية تفرضها النصوص التى تقضى بالمساواة فى السيادة والتنبيه إلى المنازعات ، وإنابة مجلس الأمن ، وجبّ التزامات الميثاق لسائر الالتزامات التى تعارضها . ويبرز حتمية هذه العلاقة ما يبـدو فى مصر من دلائل الجد لمنع الاعتداء على سيادتها ، والبلاد العربية متضامنة مع مصر فى موقفها معلنة هذا التضامن فى قرار لمجلس جامعة الدول العربية صدر عن اجتماع بلودان .

ونصل الآن إلى مسألة الاختصاص . وأمرها واضح جلى ؛ فقد نصت المادة العاشرة من الميثاق على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة أو أمر يدخل فى نطاق هـذا الميثاق أو يتصل بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها فيه أو وظائفه » .

والقضية المصرية — على حد تكييف العلاقة بين الخلاف المصرى البريتانى وهيئة الأمم المتحدة — أمر يدخل فى نطاق الميثاق ؛ إذ فيهـا مساس بسيادة عضو من أعضاء هذه الهيئة ، وفيها استخدام للقوة ضد سلامة أراضى هذا العضو واستقلاله السياسى على وجه لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة ، كما أن فيها اتصـالا بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها فى الميثاق ووظائفه ، وهو فرع مجلس الأمن ، ووظيفته سهره وحده على حفظ السلم والأمن الدولى .

ونصت المادة الحادية عشرة فى فقرتها الثانية على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم والأمن الدولى يرفعها إليها أى عضو من أعضاء الأمم المتحدة » ، كما نصت فى فقرتها الثالثة على أن « للجمعية العامة أن تسترعى نظر مجلس الأمن إلى الأحوال التى يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولى للخطر » .

ولا شك أن للقضية المصرية صلة بحفظ السلم والأمن الدولى . وبريتانيـا تبنى وجهة نظرها إلى مصر على زعم أن لهـا هى حق حفظ السلم والأمن الدولى فى الشرقين الأدنى والأوسط . ولا شك كذلك أن القضية المصرية من الأحوال التى يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولى للخطر بما قد يترتب على جد المصريين

فى دفع الاعتداء على سيادتهم ، وتضامن شعوب البلاد العربية معهم فى جدهم .

وكذلك نصت المادة الرابعة عشرة على أن « للجمعية العامة أن توصى باتخاذ التدابير لتسوية أى موقف أيا كان منشؤه تسوية سلمية متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم ، ويدخل فى ذلك المواقف الناشئة عن انتهاك أحكام هذا الميثاق الموضحة لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها » . وقد سبق أن أوضحنا ما فى موقف بريتانيا من مصر من انتهاك لأحكام الميثاق ، إذ تعتدى على سيادة دولة هى عضو مثلها فى هيئة الأمم المتحدة ، وتتدخل بهذا الاعتداء فى شؤونها الداخلية ، وتزعم لنفسها حق حفظ السلم والأمن الدولى ، وحق اعتبار منطقة من دولة مستقلة منطقة استراتيجية .

وأحكام جميع تلك المواد التى ذكرناها ناطقة فى وضوح وجلاء باختصاص الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بالنظر فى الموقف الذى تقفه بريتانيا العظمى من مصر .

ومن ناحية أخرى فقد نصت المادة الرابعة والثلاثون من الميثاق على أن «لمجلس الأمن أن يفحص أى نزاع أو أى موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو يثير نزاعا لكى يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولى » .

ونصت الفقرة الأولى من المادة السابعة والثلاثين على أنه « إذا أخفقت الدول التى يقوم بينها نزاع من النوع المشار إليه فى المادة الثالثة والثلاثين فى حله بالوسائل المبينة فى تلك المادة وجب عليها أن تعرضه على مجلس الأمن » .

وهما نصان صريحان ينطقان باختصاص مجلس الأمن فوق اختصاص الجمعية العامة ، بل إن النص الثانى منهما يقضى بوجوب اختصاص مجلس الأمن ، إذ حتم رفع الأمر إليه فى حالة إخفاق الأساليب الودية تحتيما .

على أن نظر مجلس الأمن للقضية المصرية الذى تنطق النصوص صريحة باختصاصه به يجب أن يجىء على وجه الاستعجال ؛ إذ أن مصر قد استنفدت وسائل الإجراءات التمهيدية التى كان يصح لمجلس الأمن أن يدعوها إلى اتخاذها وفقاً لأحكام المادة الثالثة والثلاثين من الميثاق ، وهى توجب « على أطراف أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدولى للخطر أن يلتمسوا

حله بادئ ذى بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أو أن يلجأوا إلى التوكيلات والتنظيمات الإقليمية أو غيرها من الوسائل السلمية التى يقع عليها اختيارها . ويدعو مجلس الأمن أطراف النزاع إلى أن يسووا ما بينهم من النزاع بتلك الطرق إذا رأى ضرورة لذلك . »

وقد سايرت مصر بريتانيا العظمى فى التماس حل نزاعهما بطريق المفاوضة . فتبين اتساع الهوة بين الطرفين ، بل صرخ سوء النية من الجانب البريتانى وتجلت استحالة المعالجة ، وهو يزعم أن منطقة قناة السويس أرض بريتانية ، وهو يقرر الجلاء ويعلقه فى الوقت نفسه على شروط يتفنن فى أوضاع ملابساتها تفننا يجعل ذلك الجلاء المقرر مجرد حبر على ورق . وقد قضى هذا الموقف العجب من الناحية البريتانية على استساغة الالتجاء للوسائل الأخرى الواردة فى تلك المادة ، وسائل التحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، فقد فقدت الثقة بإمكان الإنتاج ، ولم يبق إلا أن يتجه مجلس الأمن حين يرفع إليه النزاع الاتجاه المنطقى الوحيد المنصوص عليه فى الفقرة الثانية من المادة السابعة والثلاثين وهو اتجاه « التوصية بما يراه ملائما من شروط حل النزاع » .

وإذن فيكون مجلس الأمن الدولى مختصا بنظر القضية المصرية وبنظرها على وجه الاستعجال .

أما صميم الموضوع محل العرض على المنظمة الدولية الجديدة ، وهو النزاع الذى سبق أن رسمنا حدوده — والمنازِع فيه انجلترا والمنازَع مصر — فيرجع إلى أن انجلترا تزعم أن لها فى هذا الركن من العالم حق حفظ السلم والأمن ، وتقول مصر بل إن حفظ السلم والأمن الدولى قد أصبح الآن من اختصاص هيئة الأمم المتحدة مجتمعة دون انفراد دولة مهما عظمت ، وتستند للتدليل على صحة ما تقول إلى نصوص قانونية صريحة واردة فى الميثاق .

فقد ورد فى ديباجة هذا الميثاق على لسان شعوب الأمم المتحدة قولها :

« وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى »
« وألا نستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة »

كما جاء فى صدر المادة الأولى من الميثاق : « مقاصد الأمم المتحدة هى :
١ — حفظ السلم والأمن الدولى »

وقد سبق أن ذكرنا نص الفقرة الأولى من المادة السابعة والعشرين التى تقول :

« رغبة فى أن يكون العمل الذى تقوم به الأمم المتحدة سريعاً فعالا ، يعهد أعضاء تلك الهيئة إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات . »

ونضيف الآن نص المادة السادسة والعشرين وهو :

« رغبة فى إقامة السلم والأمن الدولى وتوطيدهما بأقل تحويل لموارد العالم الإنسانية والاقتصادية إلى ناحية التسليح ، يكون مجلس الأمن مسئولا بمساعدة لجنة أركان الحرب المشار إليها فى المادة ٤٧ عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح . »

ولا تحتاج هذه النصوص لأى تعليق ، وهى كلها ظاهرة صريحة ناطقة بأن إقامة السلم والأمن الدولى وحفظهما إنما تختص به الأمم المتحدة مجتمعة ويختص بهما مجلس الأمن نيابة عن أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، بل إن منهاج تنظيم التسليح فى العالم يُسأل عن وضع خططه مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب التابعة له ، وهى لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن : المملكة المتحدة ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وفرنسا ، والصين ، بالاشتراك ، لا باستئثار واحدة أو أكثر منهن دون الآخرين .

ولم يكتف الميثاق بتقرير ذلك المبدأ العام الذى يعهد بحفظ السلم للأمم المتحدة ومجلس الأمن بخاصة ، بل راح ينظم الوسائل التى يلجأ إليها وتلجأ إليها معه الدول المنضمة إلى هيئة الأمم المتحدة فى سبيل حفظ السلم والأمن الدولى . فجاء فى المادة الثالثة والأربعين :

« يتعهد جميع أعضاء الأمم المتحدة فى سبيل المساهمة فى حفظ السلم والأمن الدولى ، أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ، بناء على طلبه وطبقا لاتفاق أو اتفاقات خاصة ، ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى ومن ذلك حق المرور .

« ويجب أن يحدد ذلك الاتفاق أو تلك الاتفاقات عدد هذه القوات وأنواعها ومدى استعدادها وأماكنها عموما ونوع التسهيلات والمساعدات التى تقدم . »

وجاء فى المادة الخامسة والأربعين :

« رغبة فى تمكين الأمم المتحدة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يكون لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب ، وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار اليها فى المادة الثالثة والأربعين . »

وجاء فى المادة السادسة والأربعين :

« الخطط اللازمة لاستخدام القوة المسلحة يضعها مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب . »

وجاء فى المادة السابعة والأربعين :

« تشكل لجنة من أركان الحرب تكون مهمتها أن تسدى المشورة والمعونة إلى مجلس الأمن ، وتعاونه فى جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات حربية لحفظ السلم والأمن الدولى ، ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع

« ولجنة أركان الحرب (المشكلة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن) مسئولة تحت إشراف مجلس الأمن عن التوجيه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس . »

وجاء فى الفقرة الأولى من المادة الثامنة والأربعين :

« الأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن لحفظ السلم والأمن الدولى يقوم بها جميع أعضاء الأمم المتحدة أو بعض هؤلاء الأعضاء ، وذلك حسبما يقرره المجلس . »

ونصت المادة التاسعة والأربعون على أن « يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التى قررها مجلس الأمن » .

وليس أبلغ من ذلك كله فى الدلالة على حصر مهمة حفظ السلم فى مجلس الأمن وتضامن أعضاء الأمم المتحدة جميعهم فى سبيل تنفيذ ما يقرره هذا المجلس فى ذلك الصدد .

بل إن المادة الحادية والخمسين التى فتحت الباب لمعاهدات دفاع خاص قد أخضعت هذه المعاهدات لسلطان مجلس الأمن . وقد نصت المادة على أنه :

« ليس فى الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعى للدول ، فرادى أو جماعات ، فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى . ويبلغ المجلس فورا التدابير التى اتخذها الأعضاء لمباشرة حق الدفاع عن النفس ، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فى سلطة المجلس ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم أو الأمن الدولى أو إعادته إلى نصابه . »

ومعنى هذا أن تلك المعاهدات يجب :

أولا — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس ، لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .

ثانيا — ألا تكون أحكامها نافذة إلا فى حالة الاعتداء الفعلى بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .

ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند نفاذها موقوتا إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى .

رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التى يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .

خامساً — أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق .

وحتى التنظيمات الإقليمية التى اعترف لها بحق تدبير الحل السلمى للمنازعات المحلية قد أخضعها الميثاق لرقابة مجلس الامن ؛ إذ نصت المادة الرابعة والخمسون على أنه :

« يجب أن يحاط مجلس الأمن فى كل وقت إحاطة تامة بما يجرى من الأعمال أو يزمع القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولى . »

وهكذا يتداعى الأساس الذى تقيم عليه انجلترا دعواها العريضة فيما يتعلق بحفظ السلم فى الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط .

ثم تزعم انجلترا أن لها حق تنظيم الدفاع عن شريان مواصلاتها الإمبراطورية وأنها فى سبيل ذلك تعتبر منطقة القناة أو مصر كلها منطقة استراتيجية .

ولا ينص الميثاق على المناطق الاستراتيجية إلا فى صدد الأقاليم الخاضعة لنظام الوصاية .

وقد نصت المادة الثانية والثمانون على أنه :

« يجوز أن يحدد فى أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذى ينطبق عليه نظام الوصاية بعضَه أو كلَّه . »

ونصت المادة الثامنة والسبعون من ناحيتها على أنه :

« لا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة « الأمم المتحدة » ؛ إذ يجب أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة فى السيادة . »

وحتى تلك المساحات الاستراتيجية التى لا يمكن قيامها إلا فى إقليم خاضع لنظام الوصاية يقوم عليها مجلس الأمن بحكم الفقرة الأولى من المادة الثالثة والثمانين التى تقول :

« يباشر مجلس الأمن جميع وظائف الأمم المتحدة المتعلقة بالمناطق الاستراتيجية . »

وإذن فلا سند لانجلترا فى هذا الزعم الثانى الخاص بالمنطقة الاستراتيجية بل إن كل النصوص صارخة بصفاقة القائلين به .

بقى أن انجلترا تذكر أنها ، إذ تحافظ على السلم فى هذا الركن من العالم ، وإذ تقيم فيه بمفردها مناطق استراتيجية ، إنما تعمل ذلك بصفة موقوتة ؛ لأن « هيئة اركان الحرب التابعة لمجلس الامن لم يتم تأليفها بعد ، ولم تنظم وسائل محافظتها على الأمن بعد » .

وقد نسيت انجلترا أن الميثاق قد احتاط لهذا الظرف فنص فى مادته السادسة بعد المئة على ما يأتى :

« إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين معمولا بها على الوجه الذى يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء فى احتمال مسئولياته وفقاً للمادة الثانية والأربعين ، تتشاور الدول التى اشتركت فى تصريح الدول الأربع الموقع عليه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٣ هى وفرنسا وفقاً لأحكام الفقرة الخامسة من ذلك التصريح ، كما تتشاور الدول الخمس مع أعضاء الأمم المتحدة الآخرين ، كلما اقتضت الحال ، للقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التى قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولى . »

ولكن انجلترا لا تعدم — على الرغم من ذلك كله — أن تحاجج مصر بقيام معاهدة ١٩٣٦ التى أغدقت عليها أحكامها العسكرية ما أغدقت مما تريد أن تستمسك به استمساكا . وتنسى انجلترا هذه المرة أيضاً أن المادة الثالثة بعد المئة من الميثاق قد قضت على هذه المعاهدة وهى لم تشمل إلا التزامات متعارضة التعارض كله مع الالتزامات الجديدة التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة . والمادة تقول :

« إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وإذن فإن الملابسات والنصوص قاضية باختصاص هيئة الأمم المتحدة ، جمعيتها العامة ومجلس الأمن فيها بالنظر فى النزاع المصرى الإنجليزى ، وبنظره على وجه الاستعجال فحسب ، بل إن تلك الأساليب والنصوص لتقضى كذلك بالاطمئنان إلى أن قرار الأمم المتحدة إذا رفع إليها النزاع سيكون حتما فى صالح مصر .

محمود عزمى

سوانح الغروب

على النيل

ويحَ نفسى من طائفِ التذكارِ ... ساعةَ الشجوِ عند موت النهارِ
ويح نفسى لدى الأصيل وقد أذ ... كرنيكِ انطفاءُ هذى النار
ويح نفسى وقد جلستُ على النيـ ... لِ وحيداً ، وكنتِ من قبلُ جارى
شَدَّ ما كان مِن عبادتنا النيـ ... لَ كأنّا فى غابرِ الأعصار
هُوَ هذا النهرُ العظيم الذى أسـ ... لاكِ حبًّا عن سائر الأنهار
قد حُرمتِ الجلوسَ فى شاطئيْه ... وسراجُ الظلام فى الأفْق سار
وعلى شَطّه البعيدِ مصابيـ ... ح تَراءت فى لُجّهِ المَوّار
تَتَقَرَّيْنَ فى حشاهُ تعاريـ ... جَ سطورٍ مهتزّةِ الأنوار
وتُصيخين للخرير يناغيـ ... ك بلحنٍ من عالمَ الأسرار
لا تَمَلّين لو أقمتِ الليالى ... أبداً ها هنا بذاك الجوار
ويحَ نفسى ، يا ويحَها ، ما على الأقـ ... دار لو عِشتِ — ما على الأقدار !
أرمق النهرَ ، لو يرى النهرَ ساهٍ ... غائبُ الحسّ شاردُ الأفكار
كيف أمسَتْ زوجى؟ وفى أى حالٍ ... أينَ صارتْ بعد امتناع المَزار ؟
ما أراها فى جنّة الخلد إلا ... عند نيلٍ فى جنّة الخلد جار

عبد الرحمن صدقى

بين الحرب والجغرافيا

دوافع الحرب وأهدافها فى أوربا

أوربا قارة صغيرة ؛ بل إن كثيراً من الجغرافيين لا ينظرون إليها إلا على أنها شبه جزيرة كبير يمتد من قارة آسيا ويتفرع عنها . وهى فوق ذلك تقع فى منطقة متطرفة فى أقصى شمال غرب العالم القديم ؛ ولم يبرز شأنها وتتضح قيمتها بين القارات الأخرى إلا منذ عهد النهضة الحديثة . فهى فيما عدا أطرافها الجنوبية فى بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا لم تلعب دوراً يذكر فى تاريخ العالم القديم أو الوسيط ؛ بل هى من حيث تاريخها الثقافى العام بقيت عالة على غيرها ، لاسيما بلاد الشرق التى ظهرت فيها الأديان السماوية وألوان الفكر والثقافة القديمة والوسيطة ، ثم انتشرت إلى أوربا . ومع ذلك كله فمنذ عهد النهضة الحديثة وظهور الصناعة التى تعتمد على الآلات والقوى المحركة برزت أوربا فجأة ، وقفزت إلى القمة ، فأصبحت القارة المسيطرة على الشئون العالمية ، بل القارة الأولى من حيث توجيه حياة العالم فى ميادين الحضارة المادية والعلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

وليس هذا مجال الإفاضة فى أسباب بروز أوربا المفاجىء ؛ ولكن يكفى أن تنظر نظرة عامة إلى تطور مدنية الإنسان على سطح الأرض ، فنجد أن المدنيات القديمة كانت فى جملتها قائمة على أساس الزراعة كما هى الحال فى مصر والعراق والصين ، أو على أساس التجارة كما هى الحال فى اليونان القديمة . ومع أن الصناعة كانت مزدهرة فى تلك الأيام ، فقد كانت كلها تقوم على المهارة الفنية والحذق الشخصى أكثر مما تقوم على استغلال قوى الطبيعة الآلية . وقد سخر الإنسان بعض تلك القوى الطبيعية فى العصور القديمة والوسيطة ، كالريح والمياه الجارية ومساقط الماء ؛ ولكنه كان تسخيراً محدوداً يقوم على استغلال القوى فى حالتها الطبيعية . أما فى عهد النهضة الصناعية الأوربية ، فقد تعلم الإنسان لأول مرة أن يحوّل الحرارة إلى طاقة ، وأن يستخدم تلك الطاقة كقوة محركة تدار

بها الآلات التى تعمل فى الإنتاج أو فى النقل والحركة . وقد وضع هذا الاختراع — أو السلسلة من الاختراعات — فى يد الإنسان سلاحاً سخّر به موارد الطبيعة والقوى الطبيعية على نحو لم يكن ميسوراً من قبل ، وفى نطاق تغير معه كل شىء فى الصناعة والإنتاج ، وفى الاتصال والتبادل ؛ بل تغيرت معه أسس الحياة الاقتصادية فى ميادين الصناعة والزراعة والتجارة جميعا ؛ وأصبح هذا العصر الجديد يسمى بحق « عصر الآلات » .

وكان من حظ أوربا أن كثرت بها موارد القوى ، وأهمها الفحم الحجرى ، وكذلك المعادن التى تستعمل فى الصناعة ، وعلى رأسها الحديد . وبذلك توافرت العناصر التى تقوم عليها المدنية الصناعية الحديثة ؛ وأصبحت أوربا بحق أسبق القارات وأولاها فى ميدان الصناعة ؛ وكان ذلك مصدر خير كثير بالنسبة لأهلها ، وإن كان قد أدى إلى انقلاب خطير فى حياتهم . ولكن الشىء المهم على كل حال أن النهضة الحديثة قد صحبها ونتج عنها نشاط خطير بين أمم القارة التى تسابقت فى ميادين الصناعة وما يتصل بها ويترتب عليها من توسع استعمارى وتكالب من أجل مناطق إنتاج المواد الخام التى تغذى المصانع بما لا تنتجه أوربا ، ومن أجل أسواق التجارة التى تصرف فيها المصنوعات . وهكذا اتسعت رقعة الاختلاف ، ولم تقتصر على أرض أوربا ، وإنما تعدتها إلى ما وراء البحار ؛ وانتهى ذلك إلى أن أصبح لعدد من أمم أوربا مصالح مادية فيما صار يعرف بالمستعمرات ومناطق النفوذ . وقد بدأت تلك المصالح فى كثير من الأحيان تجارية واقتصادية خالصة ، ثم صارت بالتدريج سياسية وعسكرية . وهكذا تشابكت المصالح ، وتعددت أسبابها بين المناطق المعتدلة الباردة فى أوربا والمناطق الحارة والدفيئة بل والمعتدلة فى غيرها من القارات ، واشتد اتصال تلك المصالح بحياة أوربا ومشكلاتها الدولية على مر الزمن ؛ حتى إذا ما بلغ التسابق من أجل التوسع الاستعمارى الأوربى ذروته فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، كان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر فى الحرب العالمية التى بدأت عام ١٩١٤ ، والتى نستطيع أن نقول إن العالم لا يزال فى أعقابها حتى اليوم .

والحق ان أوربا بنهضتها الصناعية ، ومواردها الغنية فى الإنتاج الآلى ، ومصالحها المادية المتشابكة فى أقصى الأرض ، وأطماعها الاستعمارية فيما وراء البحار ، ثم برغبتها الملحة فى إشباع هذه الأطماع ، وإضافة ثروة العالم إلى ثروتها

واستكمال مواردها من موارده . . . كل ذلك قد جعل أوربا المسئولة الأولى والأخيرة عن هذه الحرب التى استعر لهيبها فشمل العالم ، والتى اضطرمت نيرانها وامتدت ألسنتها فى نترتين ، إحداهما ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ والأخرى مابين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . وقد شبهناها فى مقال سابق* بالجولتين فى عراك واحد عنيف ؛ لم تكن أولاهما حاسمة ، فى حين قضت الثانية على أحد الخصمين قضاء يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى سنوات عدة قادمة .

وقد عالجنا فى المقال السابق خطط تلك الحرب وآثارها ونتائجها فى إقليم من العالم يهمنا بصفة خاصة ، هو الشرق الأوسط ، الذى يربط إلى حد كبير ما بين أوربا ومصالحها الاستعمارية فى الشرق وحول البحار الدفيئة فى الجنوب . ويعنينا الآن أن نعالج دوافع تلك الحرب واتجاهاتها فى أوربا ذاتها . . . تلك القارة الصغيرة التى ساهمت بمواردها الطبيعية ونشاط سكانها فى تقدم المدنية المادية الحديثة مساهمة فعالة ، جعلت لها ولأهلها المكانة الأولى بين القارات وبين الأمم ، ولكنها مع ذلك كانت — ويغلب على الظن أنها ستبقى إلى جيلين أو أجيال أخرى قادمة — مصدر بلاء وحروب عالمية تكتوى بنيرانها الإنسانية حتى فى أبعد البلاد عن أوربا ، بل وفى الجزر النائية التى لا يكاد أهلها يعرفون عن أوربا أكثر من أنها موطن ذلك الرجل الأبيض ، الذى هبط عليهم من حيث لا يشعرون ، والذى أقحم نفسه فى شئونهم وحياتهم من حيث لم يدعه أحد .

ولكنا قبل أن نستعرض مختلف أجزاء تلك القارة وأممها المحاربة وميادينها العسكرية ، ينبغى من الناحية الجغرافية والبشرية العامة أن نميز بين جنوب القارة وشمالها . ففى الجنوب يسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ، وهو مناخ معتدل منتظم يمكن التنبؤ بتقلباته فى غير كثير من العناء . ولا يفرض هذا النوع من المناخ على من يعيشون فيه أن يكونوا مكافحين بطبيعتهم ؛ إذ هم يستطيعون مثلاً أن يقضوا معظم أشهر الصيف فى العراء ، وهم يستطيعون بقليل من الجهد أن يتقوا برد الشتاء وأمطاره المتوسطة أو القليلة ، كما أن أشعة الشمس ودفء الهواء ورقته وجفافه تبعث كلها فيهم روح المرح وشيئاً من روح الاستخفاف بالحياة . فأما شمال القارة وشمالها الغربى فمناخه بارد مطير

---

* الكاتب المصرى عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

كثير التقلب ، تتنازعه مؤثرات المحيط الملطفة ، ومؤثرات القارة المتطرفة . وقد ترتب على ذلك ، وعلى كثرة الزوابع والأعاصير بصفة خاصة ، أن أصبح ذلك المناخ قاسياً غير معتدل ولا مضمون ؛ فهو كثير التقلبات من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى أخرى . وقد علَّم ذلك المناخ سكان الإقليم الحذر وبعد النظر ، كما علمهم الكفاح من أجل الحياة ؛ إذ لا يمكن أحداً أن يعيش فى العراء ، ولا أن يتقى أخطار الطقس وتقلبات الجوّ من غير مسكن صالح متين البناء ، ومن غير ملبس وغذاء كافيين ، فى ذلك المناخ الشمالى الذى لا يعرف حياة الكفاف ولا يسمح بها . لذلك استلزم قيام المدنية فى هذا القسم من أوربا أن تتعلم الشعوب هناك الكفاح والنضال ضد الطبيعة القاسية . وقد انعكس ذلك فى حياتهم وفى حروبهم بصفة خاصة. ولعل ذلك يتضح لنا فى صورة جلية إذا ما نحن قارنا ما حدث خلال هذه الحرب المنتهية فى حالة العناصر اللاتينية من جهة ، والعناصر الانجلوجرمانية والصقلبية الشمالية وغيرها من سكان شمال أوربا من جهة أخرى . فقد كان كفاح الأولى على الجملة فاتراً فى روحه محدوداً فى مداه ، وتمثل ذلك بصفة خاصة فى حالة الإيطاليين ، على حين صابر أهل الشمال وجاهدوا حتى النهاية المرة . ولو أن البريطانيين مثلاً كانوا من عنصر اللاتينيين وعجينتهم ما كابروا فى ساعة المحنة الكبرى ، عند مارقّ حبل الأمل حتىّ كادت شعرته تنقطع . كذلك لولا روح المغامرة وطبيعة الكفاح ما وقفت فنلندة فى وجه روسيا مرتين فى هذه الحرب ، وما ثابرت وصابرت حتى النهاية أو ما يقارب النهاية . بل لولا هذه الروح وتلك الطبيعة ذاتها ما كابر أهل بولندة وضحوا إلى آخر رمق ، ولما ثبت الروس أنفسهم فى كفاحهم الطويل ضد خصمهم المكافح وعدوهم الجبار العنيد .

وإذا نحن تتبعنا أثر العوامل الجغرافية فى مختلف أقطار أوربا وشعوبها ، لاسيما تلك التى كان لها دور خاص فى هذه الحرب ، فإننا نجد فى هذه الدراسة مايعين على تفهم كثير من أحداث الحرب واتجاهاتها الكبرى ، تفهما صحيحاً ، تبرز به علاقة الحرب بالميدان الذى تجرى فيه ، كما يبرز الدور الذى قام به كل شعب من الشعوب المحاربة الكبرى ، ومقدرته على النضال والمصابرة فى الكفاح. وقد يكون من المفيد أن نختار أمثلة من مختلف الأقطار والأمم ، حتى نخرج بصورة عامة تمثل القارة فى مجموعها تمثيلا صادقاً وشاملاً فى الوقت نفسه .

ويحسن أن نبدأ بالجزر البريطانية وسكانها ، لا لشىء إلا لأن هذه الجزر الصغيرة قامت بدور أساسى وخطير فى الحرب . وهى إنما كتب لها أن تقوم بما قامت به فى تاريخ أوربا الحديث، وفى صلات القارة بالعالم الخارجى؛ لتوافر عدد من العوامل الجغرافية مكنت لبريطانيا من أن تلعب ذلك الدور الممتاز . فهى جزيرة أو جزر غنية بثروتها المعدنية لاسيما الفحم الذى قامت على أساسه نهضتها الصناعية ، ويفصلها عن القارة بحر الشمال وبحر المانش ومياههما الضيقة التى لم « تقطع » صلة بريطانيا بالقارة ، وإنما «نظمت» تلك الصلة ، وظهر هذا التنظيم فى نواح متعددة ؛ منها أن بريطانيا عند ما عُمرت بالسكان من القارة لم يهاجر إليها كل من هب ودب ، وإنما كانت موجات الهجرات تأتى من الشرق أو من الجنوب الشرقى إلى شواطىء القارة فى مقابلة الجزر البريطانية ، فلا يفكر فى استمرار المهاجرة بالبحر إلا العناصر المخاطرة ، لاسيما أن الملاحة فى مضايق المانش لم تكن سهلة على مدار العام ، وإنما زاد من صعوباتها شدة التيارات البحرية ووجود الأعاصير الشتوية . ولذلك كان البحر للهجرات البشرية بمثابة المصفاة ؛ فلم يصل بريطانيا على الجملة إلا العناصر التى لم يغلبها البحر ولم يحل بينها وبين أن تستكشف ما وراءه ، فتركت القارة إلى الجزر التى يحيط بها البحر من كل جانب . وهكذا وصلت هذه الجزر موجات متتابعة من الكلتيين القدماء والنرمانديين والأنجلوسكسونيين والنورس وغيرهم من مخاطرى البحار الذين تجمعوا فى تلك الجزر وأخذ بعضهم يخالط بعضاً ، حتى تألف منهم هذا العنصر البريطانى المختلط والمنوّع ، فى إنجلترا وبلاد الغال وأسكتلندة وإيرلندة وما يقع بين الجزيرتين الكبيرتين وحولها من جزر صغيرة . وكما كانت طبيعة هذا العنصر وحبه للمخاطرة عاملاً فعالاً فى تاريخه الحديث ، عند ما حانت الفرصة للتوسع والاستعمار فيما وراء البحار ، فانطلقت ذرية أولئك المخاطرين القدماء إلى أقاصى الأرض فى أميركا وأستراليا وجنوب إفريقية وغيرها على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ انتشار الشعوب ـ كذلك كان اختلاط السلالات فى بريطانيا عاملاً من عوامل القوة فى المجتمع البريطانى ؛ إذ أنه أدى إلى تنوع الملكات ونواحى الاستعداد الفطرى ، فتشعب نشاط سكان بريطانيا فى الصناعة والتجارة والحرب وغيرها من ميادين العمل والإنتاج والكفاح .

كذلك كانت الجزر البريطانية مدرسة بحرية تعلّم فيها السكان حياة البحر

خلال أجيال طويله متعاقبة . فلما جاء العهد الحديث ، وبرزت أهمية البحار فى المواصلات العالمية، صارت بريطانيا سيدة هذه البحار وصاحبة الأسطول الأول فى التجارة والحرب على السواء . بدأت بهزيمة أساطيل الأسبان وغيرهم من العناصر البحرية الأوربية ، ثم تحكمت فى المواصلات البحرية بين أوربا وأمريكا بحكم موقعها الجغرافى بين الاثنتين من جهة ، ومقدرة مَلاَّحيها وتجَّارها من جهة أخرى . ثم صارت بعد ذلك القوة البحرية الأولى غير منازعة ، حتى أخذت عنها أمريكا زعامة البحار وسيادتها بالتدريج خلال الجيل الأخير ، ولأسباب تتصل بعوارد الولايات المتحدة وكندا فى المادة وعدد السكان ، أكثر مما تتصل بضعف بريطانيا أو انحلال قواتها البحرية .

وفوق ذلك فقد نظم البحر الذى يقوم بين بريطانيا واليابس الأوربى علاقات تلك الجزر بأوربا من ناحية الحرب ذاتها ، فجعل غزو تلك الجزر صعباً . ولذلك لا يذكر التاريخ إلا عدداً قليلاً من الغزوات إلى بريطانيا فى العصور القديمة والوسيطة ؛ منها غزوة يوليوس قيصر عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م ، وغزوة وليم الفاتح عام ١٠٦٦ م . كذلك شاركت بريطانيا فى العصر الحديث فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة ، ولكن الحرب كانت تقع دائما خارج أراضيها ؛ فهى تلقى أعداءها إما على البحار وإما فوق أراضى القارة فى الأراضى الوطيئة وفرنسا وأسپانيا وغيرها . فأرضها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ؛ لذلك لم يصبها ما يصيب تلك الميادين من دمار وتخريب . حتى فى هذه الحرب التى انتهت منذ عام لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومواصلاتها ومرافقها المختلفة فى الحياة المدنية . وهكذا استطاعت بريطانيا بفضل هذه الميزة أن تخرج من كل حرب سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ؛ على عكس غيرها من الأمم والأقطار التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، فكانت بريطانيا بذلك أسبق إلى النهوض فى السلم ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — دون أن تمس أرضها بشىء .

إلى هذه الأسباب جميعاً يمكن أن نرجع ما أصاب بريطانيا فى تاريخها الحديث من نجح وتوفيق فى حروبها الأوربية ؛ لا سيما أن عامل الزمن كان إلى

جانبها ؛ فهى قد سبقت غيرها من أمم أوربا الكبرى فى التوسع الاستعمارى ؛ وهى قد استطاعت أن تبنى إمبراطوريتها المترامية الأطراف قبل أن تظهر بعض الأمم الأوربية الكبرى إلى الوجود، وقبل أن تبرز حاجاتها وأطماعها الاستعمارية. وقد ترتب على هذه الأسبقية فى الميدان الاستعمارى أن تجمع لبريطانيا من الموارد المادية والمواقع العسكرية العالمية ما كان لها عوناً وسنداً فى السلم والحرب على السواء. ثم إنها بتوسعها هذا فى آفاق الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، قد قطعت الطريق على غيرها من أمم أوربا، التى طلع عليها العهد الحديث بمواصلاته السريعة وعلاقاته الدولية المعقدة ومقتضياته الاقتصادية الملحة، فألفاها - أو ألفى كثيراً منها - محصوراً داخل نطاق من الحدود السياسية التى لا تسمح بالتوسع إلا على حساب الأمم المجاورة، وإلا فى مدى ضيق تراق من دونه دماء الألوف بل دماء الملايين... فأرض أوربا التى تقاس بالشبر ليست نهباً رخيصاً كما هى الحال فى أرض المستعمرات !

ولعل أظهر مثال لهذه الدول الأوربية التى جاءت متأخرة فى نشأتها القومية وتوسعها هى ألمانيا، التى لم تستكمل وحدتها إلا أيام بسمرك. وقد دخلت بعد ذلك ميدان الاستعمار، فنالت بعض الأراضى فى شرق إفريقية وغربها وبعض جزر المحيط الهادى، ولكنها لم تكن لتناظر بذلك ما سبقتها إليه دول أوربا الغربية، حتى الدول الصغيرة مثل هولندا والبرتغال، التى وصلت الميدان مبكرة واحتفظت بما وضعت أيديها عليه من غنائم رخيصة. أما ألمانيا مع قوتها فى الموارد وتعدادها فى الرجال فقد جاءت متأخرة، واضطرت من أجل ذلك إلى أن تناضل فى توسيع مجالها الحيوى فى أوربا ذاتها ؛ وكان عليها، منذ أن حددت علاقاتها السياسية بالنمسا، واتخذت كيانها السياسى البروسى المستقل، أن تبذل جهد المستيئس لتدفع حدودها السياسية ومناطق نفوذها الاقتصادى ناحية الغرب أو ناحية الشرق. فأما فى الغرب فقد كان التوسع عسيراً ؛ فدول أوربا الغربية قد سبقت ألمانيا ذاتها إلى الاستقرار السياسى، وإلى شىء كثير من التقدم الاقتصادى الذى لا يفيد معه أن تحاول ألمانيا السيطرة على مرافقها الحيوية. وأما فى الشرق فقد كان الميدان مفتوحاً أمام ألمانيا فى اتجاهات ثلاثة: الأول ناحية بروسيا الشرقية وسواحل البلطى حيث كان الفرسان التيوتون قد توسعوا من قبل ووطدوا نفوذهم الاقتصادى، فامتلكوا المساحات الواسعة

من الأراضى وسخروا السكان الأصليين مأجورين فى تلك المزارع التى تذكرنا الحالة فيها بعهد الإقطاع. والاتجاه الثانى فى ناحية بولندة والروسيا؛ وقد استقر الألمان المتزايدون فى العدد فى كثير من بقاع بولندة الغربية، كما أن جماعات منهم رحلت إلى قلب الروسيا القديمة وجنوبها، واستقرت هناك تعمل فى الصناعة وغيرها من نواحى الإنتاج. ثم الاتجاه الثالث ناحية بوهيميا وبعض أراضى النمسا والمجر القديمة فى اتجاه البلقان. ومن الممكن اعتبار توسع الألمان فى هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً استعماراً بالمعنى الفعلى للكلمة، وإن لم يطلق عليه ذلك اللفظ تمييزاً له من حركة الاستعمار المعروفة فى خارج القارة الأوربية.

وهكذا حاولت ألمانيا أن تستفيد من موقعها الجغرافى فى قلب القارة الأوربية، ومن احتكاكها الاقتصادى والسياسى بالدول المجاورة، لا سيما فى الشرق والجنوب. ولكنها عند ما عمدت إلى التوسع المسلح وجدت نفسها مضطرة إلى أن تحارب فى أكثر من جبهة واحدة؛ ففى الغرب كانت أمم قديمة ذات مقدرة تقليدية على الدفاع، ولا يمكن قهرها بصفة دائمة؛ وفى الشرق والجنوب كانت بلاد فسيحة وجبهات لا تحدها معالم واضحة، وإنما هى ذات شعب كثيرة تستنفد الجهود، ولا يسهل معها التركيز فى الهجوم، ولا حتى فى الدفاع.

فأما الروسيا، وهى ثالثة الدول الكبرى فى النضال الأوربى الأخير، فكانت تحتل شرق أوربا، وتمتد وراء ذلك فى آسيا. والروس كثرتهم من الصقالبة، الذين امتازوا فى كل تاريخهم بأنهم شعب برى لا يحب البحار ولا يسعى إليها إلا مكرهاً، قد تحاشى عند ما انتشر وعمر شرق القارة أن يقرب البحار، ولم يحاول التسلط على المنافذ البحرية إلا متأخراً. فالصقالبة الجنوبيون فى يوجوسلافيا مثلا قد تجنبوا ساحل دلماشيا القديم وموانيه التى احتلها الطليان، مثل تريستا وغيرها. والصقالبة الشماليون قد ابتعدوا عن سواحل البحر البلطى التى تقدم إليها التيوتون والفنيون وغيرهم من سكان الولايات البلطية. والروس الجنوبيون وإن كانوا قد أطلوا على البحر الأسود، فهم لم يشتغلوا فيه كثيراً بالملاحة، ولم توفق جهودهم التاريخية فى أن يضعوا أيديهم على منافذه إلى البحر المتوسط. لذلك كله فإن هؤلاء الصقالبة لم يشاركوا بشىء يذكر فى توسع أوربا البحرى نحو المستعمرات، ولم ينشأ بينهم وبين أمم أوربا الغربية ذات الصبغة البحرية من الاحتكاك مثل ما نشأ بين هؤلاء الأخيرين

وبين الألمان . . ذلك الاحتكاك الذى ترتب على محاولة ألمانيا تقوية أسطولها وتمكين مصالحها فيما وراء البحار ، مما انتهى إلى الحرب بينها وبين بريطانيا آخر الأمر .

على أن مجال التوسع البرى كان مفتوحاً أمام الروسيا نحو الشرق . وقد بدأت بمد سكة حديد سيبيريا المعروفة ، ثم انتشر القوزاق وغيرهم واستعمروا سهول سيبيريا وآسيا الداخلية ، حتى وصل الروس إلى منشوريا والولايات البحرية المطلة على المحيط الهادى حيث احتكوا باليابان فى مطلع القرن . وكذلك حاولت الروسيا أن تتوسع بالبر نحو الجنوب الشرقى إلى أرض إيران ، وفى اتجاه أفغانستان والهند ، حيث اصطدمت بالنفوذ البريطانى اصطداماً لم يلطف من حدته إلا اتفاق عام ١٩٠٧ على تقسيم مناطق النفوذ فى إيران .

وأما فرنسا ، وهى رابعة الأمم الكبرى فى أوربا ، فتقع عند الطرف الآخر من اليابس الأوربى من ناحية الغرب ؛ حيث تنتهى الطرق الآتية من البحر المتوسط ذى المدنية العريقة والحياة المستقرة القديمة ، وتلك الآتية من قلب القارة الذى لم تنفذ إليه المدنية إلا حديثاً ، والذى لم يكد يستقر بالحياة حتى فاجأته النهضة ، وما جاء فى أعقابها من اضطرابات وحروب وقلقلة فى الحدود السياسية والعسكرية بين الأمم . وتنتهى تلك الطرق جميعاً إلى الشواطىء المواجهة لبريطانيا التى تتحكم فى المداخل البحرية إلى اليابس الأوربى ، وفى صلات أوربا بما وراء البحار . وقد ساهمت فرنسا فى وقت متقدم فى حركة التوسع الأوربى إلى المستعمرات ، وحاولت فى ذلك أن تنافس بريطانيا حيناً ، وأن تجاريها حيناً آخر ، ولكنها لم تفز من توسعها إلا بنصيب أقل كثيراً من نصيب سيدة البحار . ذلك أن فرنسا كانت ، بحكم موقعها الجغرافى بين القارة والبحر ، تتجاذبها سياسة الاستعمار من جهة ، وسياسة المشاحنات القارية والارتباطات الدولية الأوربية من جهة أخرى . وهى فوق ذلك كانت بحكم موقعها الجغرافى أيضاً ميدان حرب سعت إليه جيوش الأعداء والحلفاء على السواء ، من الشرق أو من الغرب أو من وراء البحار . وتمثل ذلك على الخصوص عند ما بدأ الطموح يدفع بالعنصر الجرمانى إلى التوسع نحو الغرب ونحو البحار ، فاصطدم أولاً بفرنسا ذاتها اصطداماً ناجحاً فى عام ١٨٧٠ ، ثم بفرنسا وبريطانيا معاً اصطداماً غير ناجح فى الحرب العالمية الأخيرة بجولتيها فى أعوام ١٩١٤ — ١٩١٨ ثم ١٩٣٩

— ١٩٤٥ . ولعل الطريف فى هـذا الصدام الأخير بشقيه أن فرنسا ناءت منه بالحمل الأكبر من حيث التخريب ؛ فكانت أرضها ميـدان قتال عنيف خلال سنوات طويلة ، عند ما اكتسحتها جيوش الألمان فى حروبها الخاطفة وغير الخاطفة ضد الحلفاء ، وعند ما اتخذتها بريطانيا وحلفاء الغرب ميداناً يقاتلون فيه أعداءهم على القارة ، وينفذون منه إلى الأراضى الوطيئة وغرب ألمانيا من جهة ، وإلى حدود إيطاليا وشمالها من جهة أخرى .

تلك أهم أمم أوربا ، والعوامل الجغرافية والبشرية التى كيفت توسعها الحديث ، ووجهته توجيهاً كان له أبعـد الأثر فيما قام فى تلك القارة من مشكلات خلال النصف الثانى من القرن المنصرم ، وهذا القرن الذى نعيش فيه . ولـكن هناك أمماً أخرى أثرت فيها عوامل مماثلة أو مختلفة ؛ منها الأراضى الوطيئة التى كانت على الدوام حلقة الاتصال بين ألمانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فـكانت طريق التوسع العسكرى من جانب ألمانيا ، وجرت على أراضيها ، لا سيما سهل الفلاندر ، معارك تاريخية متكررة ؛ ولذا استمسكت بريطانيا باستقلالها ، ونادى بعض البريطانيين بأن حدود بلادهم العسكرية إنما تقع على ضفاف الرين .

وغير الأراضى الوطيئة هناك بلاد البلقان ، التى تتعقد فيها الطبيعة وتتعقد تبعاً لذلك حياة السكان وأحوالهم ، بحيث أصبح شـبه الجزيرة يعرف بمتحف الأجناس والثقافات فى أوربا . فهناك تختلط السلالات ولا يمتزج بعضها ببعض ، وتتكاثر الثقافات ولا يتسق بعضها مع بعض . وهناك تتشابك الحدود السياسية فلا تتمشى مع حدود الطبيعة ، ولا حدود الجنس ، ولا حدود الثقافة ، ولا حدود المصالح الاقتصادية . وهناك تتنازع تيارات النفوذ الدولى ، فتسعى كل من ألمانيا والروسـيا وإيطاليا وحتى دول الغرب لأن تكون لها يد وتوجيه فى شئون البلقان . ولذلك كله كان هذا الركن من أوربا موطن اضطراب دائم ومصدر مشاحنات ومنازعات ، كثيراً ما انتهت إلى إشعال الحرب بين الأمم الـكبيرة .

أما إيطاليـا فـكانت تمثل دولة حديثة ، بل آخر الدول الحديثة ظهوراً فى الميدان الأوربى . وكانت بحكم موقعها الجغرافى ذات أهمية خاصة فى كل كفاح ينشأ على القارة ، ويمتد إلى حوض البحر المتوسط . وقد جاء دورها فى الاستعمار الخارجى متأخراً ، فلم تصب إلا ما تبقى وزهد فيه الآخرون . ولـكنها فى العهد الفاشستى انتهزت بعض الفرص فوضعت يدها على الحبشـة ، وأحيت آمالها فى

التوسع نحو البلقان ، بل سرى الخيال بسادتها وقادتها إلى أن يفكروا فى استعادة مجدها الرومانى القديم . ومع ذلك كله فإن إيطاليا على الجملة لم تكن موفقة فيما ساهمت فيه من حروب حديثة على أرض القارة . وربما كان مرجع ذلك ، أو أحد مراجعه ، أنها حاولت أكثر مما تستطيع ، فحشرت نفسها بين جبابرة الحرب حشراً ، وكانت فى ذلك كالهر يحكى الأسد . وقد ينفعنا فى هذا الصدد أن نلحظ نقطة ضعف خطيرة فى تكوين هذه الدولة القومى ؛ فهناك فارق كبير بين شمال إيطاليا حيث الثروة الزراعية والصناعية ، وحيث مستوى المعيشة والثقافة لا يكاد يفترق عنه فى بقية أجزاء أوربا الغربية ، وبين جنوبها حيث الجفاف والفقر والمرض ، وحيث ينحط مستوى المعيشة إلى حد لا تعادله إلا حال أفقر أجزاء القارة . وقد أدى التفاوت بين الشمال والجنوب فى هذه الدولة الناشئة إلى عدم الاتساق والتكافؤ بين شطرى الوطن الواحد ، بل بين شطرى الشعب الواحد . وكان ذلك عامل ضعف خطير كامن فى كيان إيطاليا والأمة الإيطالية ؛ لعله أن يكون — إلى جانب فقر البلاد العام من حيث مقومات الحياة الصناعية الناهضة — مصدر ما انتهى إليه الأمر ساعة المحنة من تصدع وتفكك وانحلال .

من هذه الأمم جميعاً وغيرها من الأمم الصغيرة والمتوسطة تألفت قارة أوربا ، فجاءت قارة معقدة التركيب متنافرة التكوين من النواحى الطبيعية والبشرية على حد سواء ؛ فلا هى مؤلفة من أمم متمايزة ، لكل منها توجيهها الجغرافى ، وطابعها الثقافى والحضارى الذى تختلف به عن بقية الأمم ؛ كما هى الحال فى آسيا حيث الصين والهند وجنوب غرب القارة (العالم العربى) ، وهى كلها مناطق لكل منها حياتها وحضارتها وتاريخها واتجاهاتها العامة ؛ أو كما هى الحال فى أمريكا الشمالية حيث الولايات المتحدة وكندا من جهة والمكسيك من جهة أخرى . ولا هى مؤلفة من عدد من الأمم المتجاورة التى يسود بينها نوع من الرباط الثقافى والوحدة الفكرية ، وإن خالفت بينها الحدود والفوارق السياسية ، كما هى الحال فى أمريكا اللاتينية . وإنما هى قارة تزاحمت فيها القوميات ، وتنافرت الأهداف السياسية ، وتداخلت الحدود تداخلاً يندر معه أن يتمشى حد سياسى لإحدى الدول مع حدها الطبيعى العسكرى ، أو مع حدها الجنسى أو الاقتصادى . وزاد من التشاحن وحدته أن التقدم الحديث قد صاحبه أمران متنافران أشد التنافر ترتبت عليهما نتائج متعارضة أشد التعارض : أحدهما نمو روح القومية

الضيقة التى تقوم على أساس الجنس حينا ، وعلى أساس الرباط التاريخى أو السياسى حيناً آخر ، والتى تدفع الأمم الناشئة إلى الأنانية والأثرة ، وإلى أن تنطوى على نفسها ، ولا ترعى إلا مصالحها الخاصة بصرف النظر عن مقتضيات الجوار أو حتى عن بعض المقتضيات الإنسانية التى تهذّب مراعاتها من نفوس الأمم كما تهذب من نفوس الأفراد . وثانيهما ذلك التقدم المادى وما صحبه من نمو فى وسائل المواصلات ، وازدياد مُدهش فى سرعتها أدى إلى تشابك الأقطار وتداخل المصالح ؛ بحيث أصبح من غير الممكن لأمة أن تعيش داخل حدودها أو أن تنطوى على نفسها ، لا سيما تلك الأمم التى تقوم فى داخلية قارة كأوربا . والظاهر أن هذا التناقض والتنازع بين المصالح القومية والمصالح الدولية كان أكبر مما تستطيع النفس البشرية فى أوربا أن تتغلب عليه ؛ خصوصاً أن أوربا ، بل الأوربيين الشماليين كما نعرفهم ، كانوا ولا يزالون محدثين فيما يتصل بكثير من القيم الإنسانية الصحيحة ، وما تقتضيه من تهذيب للنفس ورياضة للروح ؛ فقد قفزت بهم المدنية المادية الحديثة إلى القمة فى بضعة قرون قليلة ، ووضعت فى أيديهم سلاحاً من المادة والعلم والمعرفة بأسرار الطبيعة لم يكونوا مؤهلين لأن يتحكموا فيه ، ولا أن يوجهوه الوجهة الإنسانية الخيِّرة . وكان مثلهم فى ذلك كمثل الصبى ، وضع فى يده سلاح خطير لا يدرك قيمته ولا يحسن استعماله ولا توجيهه وجهة الخير والحق . ولذلك فهم قد سخّروا العلم فى التدمير والتخريب كما سخروه فى البناء والتعمير سواء بسواء . . . ولعل السر الأول فى ذلك أن التقدم المادى فى الحضارة الأوربية الحديثة لم يكن له ما يناظره من ناحية الروح . فأوربا ذات المدنية المادية المزدهرة لم تطلع علينا فى عصرها الذهبى بوحى دينى جديد أو حتى بفلسفة إنسانية من ذلك النوع الذى يلهم الأرواح ويهدى النفوس ، بل يحد من طغيان المادة ، ويعاون على التحكم فيها بوازع من دين ، أو رادع من عقل أو من ضمير .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت النتيجة أن دخلت هذه القارة فى حروب متصلة منذ طلع فجر نهضتها الصناعية الحديثة . وكانت هذه الحروب من نوعين ظاهرين ، وإن لم يتيسر دائما فصل أحدهما عن الآخر : أولهما يتصل بتلك الحدود السياسية التى تفصل بين أمم القارة ، والتى قلل من قيمتها ما كان من تقدم فى المواصلات ، وزيادة فى الاحتكاك والاتصال ، وتشابك فى المصالح بين

الشعوب . ولم تستقر حدود أية دولة من دول أوربا الحديثة أكثر من جيل أو بعض جيل . وقد تتابعت الحروب سريعة فى معظم أنحاء القارة ، وترتب عليها ظهور دول واختفاء أخرى أو اندماج بعضها فى بعض . وأغلب الظن أن هذا النوع من الحروب التى تقوم من أجل تعديل الحدود بين دول أوربا لن ينتهى أمره قبل أجيال ، وأن أوربا لن تخلص منه حتى يجىء اليوم الذى يدرك فيه أهلها أن الحروب السياسية فى مثل هذه القارة التى تضيق بالسكان لا يجب أن تقوم عقبة فى سبيل تحقيق الاتحادات الاقتصادية التى تقضى بها طبيعة الأشياء ، وتحتمها مقتضيات الحياة المادية المعقدة فى هذا الركن المضطرب من العالم . وأما النوع الآخر من الحروب التى انتابت أوربا فى عهدها الحديث فذلك الذى يتصل بالتوسع الاستعمارى فيما وراء البحار ، والسيطرة على تجارة العالم والتحكم فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، لاسيما علاقات أوربا بغيرها من القارات . وقد تمثل هذا النوع بصورة واضحة فيما كان من نزاع بين الجرمان والبريطانيين خلال الأربعين سنة الأخيرة أو أزيد من ذلك . فقد ضاق مجال الحياة والنشاط بالألمان فى وسط القارة ، فوطدوا النية على انتزاع السيطرة العالمية من بريطانيا، أو مشاركتها فيها على الأقل ، وأخذوا فى بناء قوتهم البحرية استعداداً لذلك . ولكن بريطانيا لم تكن من الغفلة بحيث تترك الأمور تسير إلى غير مصيرها المرسوم ؛ فقابلت خطة ألمانيا بمثلها ، حتى إذا ما جاءت الحرب كانت الظروف مواتية لبريطانيا من ناحية القوة البحرية على الأقل ، وانتهى الصراع المروع الذى بدأ فى عام ١٩١٤ بهدنة موقوتة فى عام ١٩١٨ ثم بنصر أكيد فى عام ١٩٤٥ . وبدت بريطانيا وكأنها قد احتفظت وحلفاءها الناطقين بالإنجليزية فى أمريكا بسيادة البحار والسيطرة على علاقات أوربا بالمستعمرات فيما وراء البحار . ومع ذلك فمن يدرينا ! فقد تكون هذه الحرب التى انتهت منذ عام خاتمة دور من أدوار التاريخ الأوربى بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية ، وفاتحة دور جديد بين الصقالبة والناطقين بالإنجليزية فى بريطانيا وأمريكا ! لقد استغرق الدور الأول أربعين عاماً أو تزيد بين استعداد للحرب ونضال مسلح دام زهاء عشرة أعوام فى الجولتين ، بل لقد انقلب هذا النضال بجولتيه إلى حرب عالمية مروعة شارك فيها أكثر من ٩٠ ٪ من سكان العالم ، وقضى فيها او بسببها ما يناهز خمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

أفيخبىء القدر للعالم أن تبتليه أوربا بحرب عالمية جديدة يستغرق الاستعداد لها جيلاً آخر، ويطول النزاع المسلح فيها إلى أكثر من جولة واحدة؟ لعل أشد ما تهلع له النفوس أن النزاع الجديد — إن وقع — فسيكون بين قوتين مختلفتين فى الاستعداد تمام الاختلاف؛ فإحداهما تستند إلى الأساطيل والقواعد البحرية، وهى ضرورية للسيطرة العالمية والتحكم فى المواصلات، ولكنها لا تكفى لاكتساح اليابس واحتلال ظهر القارات، على حين تستند الأخرى إلى الجيوش البرية التى هى أداة ضرورية لاكتساح الميادين واحتلال المواقع، ولكنها لا تستطيع بدون الأساطيل أن تسيطر على المواصلات العالمية. ومعنى هذا أن الحرب التى ينتظر أن تطالعنا بها أوربا فى المرة القادمة ستكون بين قوتين غير متناظرتين ولا متكافئتين؛ ولن تستطيع إحداهما — بحكم تكوينهما — أن تتمكن من الأخرى دون استعداد شامل وتضحية بالغة. وإذا لم يلجأ المتحاربون فى نضالهم المقبل إلى أسلحة ذرية لا يمكن أن يتنبأ أحد بنتائج استخدامها بالنسبة لهم وللإنسانية جمعاء، فإن الحرب لابد أن تطول... وهى لا ينتظر أن تنتهى بأحد الفريقين إلى نتيجة فاصلة فى جولة واحدة على أية حال!

سليمان حزين

النقـد والفن

نحن نعتمد على الألفاظ فى تصـوير خواطرنا، وإبراز المعانى التى تجول فى أذهاننا، والأحاسيس التى تختلج فى نفوسنا.

ويوماً ما كان أسلافنا يؤدون هذه الأحاسيس وتلك المعانى، بالإشارات والأصوات المبهمة، أو بالإشارات والألفاظ جميعاً.

وقد يصـل حَفَدَتنا إلى طريقة أخرى للتفاهم غير الألفـاظ المنطوقة أو المـكتوبة! فقد يتم التفاهم بينهم مثلا عن طريق الاتصال الشعورى والفكرى المباشر — وشىء من هذا يقع الآن فى التنويم المغناطيسى والإيحاء!

أردت أن أقول — بهذه المقدمة — إن الألفاظ التى نتخذها اليوم للتفاهم إنما هى وسـيلة لا غاية، وإنها رموز ظاهرة لمعان وأحاسيس مضمرة؛ وإنهـا تستمد قيمتها الحقيقية من قيمة ما ترمز إليـه، بقدر ما تستطيع الـكشف عما ترمز إليه.

والألفاظ — فى هـذا — كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب. ونحن نتعامل بها حسب ماترمز إليه من الرصيد. ولابد لـكى نثق بها ونتداولها أن تكشف لنا عن هذا الرصيد الذى تساويه!

والألفاظ التى نتعامل بها الآن لم نضعها نحن، ولم نشترك فى وضعها، وقد تم هذا فى عصور سحيقة، تعد بالقياس إلينا، فى طفولة الإنسانية. فـكان من أثر هذا أننا نراها اليوم ألفاظاً غامضة، مجملة الدلالة؛ وكثير منها ليس له فى أذهاننا معنى دقيق محدد.

وقد لايظهر هذا فى «أسماء الذوات»؛ ولـكنه يظهر واضحاً فى «أسماء المعانى» حيث تصلح اللفظة الواحدة للدلالة على عشرات الصور والحالات المتعلقة بالمعنى الواحد، تختلف فى اللون والدرجة، ويبقى اللفظ الدال عليها واحدا فى جميع الأحوال.

خذ مثلا كلمة « الحب » . فانظر : كم من الصور تنطوى تحتها ، وكم من الأحاسيس تعبر عنها . وهى لفظة واحدة لا تفرق بين حالة وحالة ، إلا فى سياق معين تقاس به مقدرة القائل على الأداء ، وتكشف فيه اللفظة عن رصيدها المذخور من الحس والشعور .

ما مدلول لفظة « الحب » ؟

أولا — بالقياس إلى ما يُحَبّ : تراه حب الحياة ، أم حب الطبيعة ، أم حب الجمال الحى ، أم حب الوطن ، أم حب الأسرة ، أم حب الأصدقاء ، أم حب النفس ، أم حب المجد ، أم حب المال ، أم حب الجنس ، أم حب الفن ، أم حب الدين . . . الخ ما يصح أن يكون محبوباً فى الحياة ؟

وثانياً — بالقياس إلى نوع الحب : تراه الحب البرىء أم الحب المشوب ؟ وحب الألفة الوئيدة ، أم حب المفاجأة الهاجمة ؟ وحب الأثرة والغلبة أم حب التضحية والإيثار ؟ وحب الاستعلاء والسيطرة أم حب التفانى والامتزاج ؟ وحب الشهوة العارمة أم حب القداسة المتصوفة . . . أم هو الحب الذى تتداخل فيه شتى هذه الظلال والألوان ؟

وثالثاً — بالقياس إلى درجة الحب وحالته : تراه الحب الصاعد إلى الآفاق أم الهابط إلى الأعماق ؟ وهو المقبل يكسب كل يوم ويربى أم هو المدبر يخسر بالزمن ويذوى ؟ وهو الثائر العنيف أم الهادئ الراضى ؟ وهو المكروه المملول أم المتطلب المرجو ؟ أم هو الحب الذى فيه من هذا وفيه من ذاك ؟

كل هذا وعشرات من أمثاله تجمله لفظة « الحب » الواحدة ، ويفصله الإحساس الواسع ، المجرب لهذه الصنوف والأشكال .

ومثل الحب ، البغض ، والغيرة ، والحنان ، والقسوة ، والمروءة ، والنذالة ، واللذة ، والألم . . . إلى آخر « أسماء المعانى » التى تجمل مدلولاتها هذا الإجمال ، وتتسع بعد ذلك لعشرات من الصور والأحوال .

وبديهى أن واضعى اللغة الأوائل لم تكن خواطرهم تزدحم بكل هذه الصور ؛ لأن أحاسيسهم وأذهانهم لم تكن مرت بتجارب كالتى مرت بنا . فكانت اللفظة الواحدة تشع فى أذهانهم صورة واحدة ، أو عدة صور ، مقيدة على كل حال ، بمدى تجاربهم فى عالم الحس والخيال .

والذين جاءوا من بعدهم لم تحفزهم حاجة ملحة إلى وضع ألفاظ جديدة ،

مفصلة على قدكل حالة من الحالات ؛ لأنهم وجدوا فى إبهام الألفاظ الموضوعة من قبل وإجمالها ومرونتها مايساعدهم على تحميلها صوراً وأشكالا وحالات جديدة لم تخطر على قلوب واضعيها الأولين .

بل لعلهم — وبخاصة رجال الفنون — قد ارتاحوا إلى هذا الغموض المبهم ، ووجدوا فيه من الجمال ما يتسق مع خواطرهم وأحاسيسهم — وفيها قسط من الغموض والإبهام لا مفر منه بحكم أن مشاعرهم وأخيلتهم هى الأصل فى العمل الفنى وهى غامضة إلى حد ما — لا بل زادوا على هذا أن جعلوا كثيراً من « أسماء الذوات » « أسماء معان » على نحو من المجاز ، مثل كلمة « كتابة » وأصلها « القيد » . وكلمة « شرف » وأصلها « المرتفع » . كما جعلوا بعض أسماء المعانى ، لمعانٍ أخرى اصطلاحية ، مثل كلمة « صلاة » وأصلها « الدعاء » وكلمة « زكاة » وأصلها « الطهارة » . . .، وذلك — فيما يبدو — كان تفادياً من وضع ألفاظ جديدة !

ولعل القدرة على وضع الألفاظ كانت خاصة فى طفولة الإنسانية ، وفى الشعوب البدائية ، ثم ماتت أو فترت بعد عهد معين من الرقى والتطور ؛ فأصبحنا الآن نعانى صعوبة جدية فى وضع ألفاظ جديدة لما يعرض لنا من شؤون الحياة !

وأنا أزعم أن اللفظ الذى لم ينبعث من فم القائل إلا بعد وجود صورة معينة يرمز إليها فى ذهنه . . . هو كذلك لا ينشئ فى ذهن السامع صورة لا عهد له بها من قبل ، ولكنه يقتصر على استدعاء الصورة أو الصور الكامنة فى نفسه ، والتى يرمز لها هذا اللفظ عنده .

وقد يختلط علينا الأمر فى بعض الأحيان ، فنحسب أن لفظاً معيناً قد أنشأ فى أنفسنا إنشاء ، صورة لا عهد لنا بها البتة . وتفسير هذا أن هذه الصورة لابد أن يكون لنا بها صلة سابقة ، نتيجة لتجربة شخصية أو إنسانية ، ثم خفيت علينا وبعدت عن وعينا ، حتى استدعاها ذلك اللفظ حين سمعناه أو قرأناه .

فكلمة « الجبل » مثلا ، لا تدل على شىء البتة فى ذهن من لم ير جبلا أو مرئيًّا ما يقرِّب إلى ذهنه صورة الجبل . وقد تصور له شكلا من الأشكال ، هو أبعد ما يكون عن شكل الجبل المعروف ، كما يقع كثيراً للمكفوفين وللأطفال .

وهذه الكلمة نفسها تشع فى ذهن من رأى جبلا واحداً ، صورة واحدة هى صورة الجبل الذى رآه ، على حين هى تشع خمس صور لمن رأى خمسة أجبال مختلفة الأشكال ، وتشع عشر صور لمن رأى عشرة أجبال مختلفات . وهكذا .

ومثل هذا كلمات : قط ، وكلب ، وحصان ، وشجرة ، وزهرة ، ونبات . . . إلى آخر أسماء الذوات .

أما المعنى الذهنى المجرد ، المنتزع من جميع الأشكال ، والذى لا يتقيد بشكل من هذه الأشكال ، فلا يكاد يقيم فى الذهن لحظة ، ثم يأخذ الخيال فى استعراض الشكل أو الأشكال ، التى يستدعيها هذا اللفظ فى الحال .

وإذا صح هذا فى « أسماء الذوات » وهى قريبة الإدراك ، سهلة التصور ، والاختلاف فيها محدود ، لأنها موكولة — فى الغالب — إلى الحواس ، فكم يكون مقدار الاختلاف فى إشعاع ألفاظ المعانى : كالحب والبغض ، والمروءة والنذالة ، والذكاء والغباء ، واللذة والألم ؛ ثم كم يكون الاختلاف فيما تشعه — بعد ذلك — النصوص التى تتولى تصوير عاطفة من العواطف ، أو خيالا من الأخيلة ، أو حالة من الحالات النفسية على وجه الإجمال .

وقد يكون هذا الاختلاف نعمة جميلة فى عالم الفنون ، بما يجدد من أنماط القول وصور الأداء ، وبما يعرضه من عوالم النفوس ، وغرائب الشخصيات . ولكنه — مع هذا أو بسبب هذا — يخلق لنا عناء بعد عناء ، بتعارض الآراء فى الأثر الأدبى الواحد ، بل الأداء الفنى الواحد ، بالقيـــاس إلى ما يشعه من الصور فى الأذهان ، وما يستحضره من الحالات فى النفوس .

وهنا يأتى دور الناقد الذى كثيراً ما يكون شاقـًا بسبب هذه الملابسات !

وهنا نصل إلى النتيجة الأولى من هذا البحث ، وهى مناقشة مدى حق القارئ فى نقد مايلقى إليه من الأعمال الفنية ، والحكم عليها حكما موضوعيا على قدر الإمكان .

ليس الناس سواء فى تجاربهم الحسية والنفسية فى الحياة . وبعضهم — ولا شك — أغنى من بعض فى رصيد هذه التجارب .

وأسباب الغنى والفقر فى هذا الرصيد كثيرة متنوعة ؛ فقد ترجع إلى سعه الطبيعة النفسية أو ضيقها ، وقوتها أو ضعفها ، وعمقها أو سطحيتها . . . وقد

ترجع إلى اللون الذى تصطبغ به هذه الطبيعة ، فتهش لهذا اللون من الإحساس أو ذاك وتتفتح لمظاهر من الحياة دون الأخرى ، كأن تتفتح لمظاهر الضخامة والعنف والجموح فى الكون ، وتنقبض عن مواطن الدعة والخفاء والهمس — وإن كان كل لون من هذه الألوان يختلف فى النفوس مع اتفاقها فى الأساس.

وتبعاً لهذا الاختلاف فى الرصيد النفسى المخزون ، تكثر الصور التى يشعها اللفظ أو التعبير عند القارئ أو تقل ، ويقوى أو يضعف استعداده لتلقى صور النفوس وأنماط الشخصيات ، ويتسع أو يضيق إدراكه لأطياف الجمال التى تموج بها الفنون كما تموج بها الحياة .

ونخلص من هذا إلى النتيجة الأولى التى أعنيها من مقدمات هذا البحث ، وهى : أن حق الناقد فى الحكم على صحة الحالات النفسية والصور الفنية ، رهن بالنسبة بين رصيده ورصيد الفنان من الآفاق النفسية ، والتجارب الفنية على السواء .

ذلك أن الفنان قد تزخر نفسه بصور وحالات ليست شائعة ؛ لأنها من خصوصياته أو امتيازاته ، وقد يختار من صور الأداء ما يتسق مع صور الإحساس ، فيجىء ناقد لم تتهيأ طبيعته لإدراكها ، أو لم يقرأ لها نظيراً فى الأنماط السابقة ، فيرى خطأ فى التصور والإحساس ، أو انحرافا فى التصوير والأداء ، فى حين هى من مطالب الحياة الأصيلة فى ذلك الفنان ، للتنويع فى الأنماط والألوان !

ونسمع أحيانا أن هذا الأثر الفنى أو ذاك صعب الفهم عند الكثيرين ، فيجب أن نقف هنا لنسأل عن نوع الصعوبة .

فهناك صعوبة منشؤها طريقة التعبير والأداء ، وصعوبة منشؤها طريقة التصور والإحساس .

والصعوبة الأولى سهلة ميسورة الحل ؛ وعلاجها هو المعجم والدراسة اللغوية ، والاطلاع على طرق التعبير المختلفة . أما الصعوبة الثانية فهى العسيرة حقـًا ؛ لأنها تتعلق بما هو أعمق من الألفاظ والعبارات .

ذلك أن خصوصية الصور النفسية والحالات الوجدانية قد تحتاج إلى طبائع خاصة ذات رصيد إنسانى وفنى ضخم ، يؤهلها لاستيعاب ما ترمز إليه النصوص ، التى قد تكون سهلة التركيب واضحة الأداء .

وهنا نصل بالحديث إلى النتيجة الثانية لمقدمات هـذا البحث، وهى أن صعوبة الفهم أو سهولته ليست راجعـة فى الحقيقة إلى غرابة اللفظ ووعورة التركيب ؛ فهذه صعوبة سهلة ، حلها ميسور ، ومرجعها — كما قلت — إلى المعجم وإلى التمرس بالأساليب . إنما الصعوبة التى تحتاج إلى الطبيعة وإلى التجربة معاً ، هى صعوبة التصور والإدراك ، بسبب نقص الرصيد النفسى من التجارب الحسية والذهنية والروحية ، وفقر الطبيعة من الذخيرة الموهوبة ، التى تهيئها للفن الرفيع .

وإنك لتجد فى بعض الأحيان من يجادلك فى نص أدبى ، يقول لك : مامعنى هذا ؟ فإذا حاولت تفسيره له لم تجده قاصراً عن فهم ألفاظه وتراكيبه ، ولـكنه عاجز عن تمثُّلِ الحالة النفسية التى يرمز إليها هذا النص . فإذاحاولت أن تدله على موضع النقص فى استعداده الفنى لم يجد إلا أن يقول لك : إذا كنت أنا دارس اللغة وآدابها لا أفهم هذا القائل ، فلمن يقول !

إن المدى لبعيد جدًّا ، بين معرفة مدلول الألفاظ اللغوى فى النص الأدبى ، واستحضار الصورة النفسية التى يشعها . وهذا كهذا ضرورى للإدراك الصحيح .

وأضرب هنا مثالاً قد يكون ضروريا للإيضاح :

يقول القرآن الـكريم : « والصبح إذا تنفس »

فماذا تعنى هذه الألفاظ عند الـكثيرين من دارسى اللغة العربية ؟

إنها تعنى « استعارة تصريحية أصلية » فى الصبح ، الذى شبهناه بانسان ، وحذفنا المشبه به ، ورمزنا إليه بشىء من لوازمه ، وهو « تنفس » ! أو هى تركيب جميل ذو إيقاع موسيقى ، حين نقرنه إلى الآية قبله : « والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . »

فأين هذا مما يشعه هذا التعبير فى النفس الشاعرة ، من الحياة المفاضة على الطبيعة ، والأنس بهذه الحياة التى تتنفس فى كل حى : من الزهرة المتفتحة للندى ، إلى الطير المتيقظ من الـكرى ، إلى الإنسان المتطلع إلى الضياء ؟

وأين هو من الحركة الوئيدة المستشرفة للضوء والحياة ، تصورها لفظة « تنفس » بجرسها الخاص ، ويصورها إيقاع التعبير كله ، وكأن كل كائن فى هذا الوجود يفتح رئتيه لنسيم الصبح البليل ، وينفض الـكرى عن عينيه فى استبشار وديع ؟

إن الفرق بين النظرة الأولى والنظرة الثانية ، لهو الفرق بين اللفظ الجامد والمعنى الطليق . وهو الفرق بين الدمية الميتة والحورية الراقصة فى سبحات الخيال . . . وهو نفسه الفرق بين تصور « البلاغيين » للجمال الفنى وتصور الفنان !

ويقول توماس هاردى فى خسوف القمر [1] :

ظلك — أيتها الأرض — من القطب إلى المحيط — يدب الآن على شعاع القمر الضئيل فى سواد لاشية فيه ، وسكينة لا يخالجها اضطراب . وإنى لأنظر إليه فأعجب : كيف يستوى هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذى أعرفه لك موّارا بالقلق والحيرة ، وكيف تتفق هذه الصفحة الراضية كأنها الطلعة الإلهية ، وأقطار عليك — أيتها الأرض — تموج الساعة بالأحزان والكروب ؟

« وأسأل : أهذا الشبح الصغير كل مايطرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء ؟ حكمة الله أراد بها عالم الإنسان ، متجمعة كلها فى حيز هذا القوس المرسوم . كذلك يكون مقياس الكواكب لما تبديه الأرض ، ويكشفه عليها الزمان : من أمة تنحر أمة ، ورءوس تغلى بالهواجس ، وأبطال غالبين ، ونساء أجمل من طلعة السماء . »

وليس فى هذا الكلام — فى نصه العربى هنا — صعوبة فى اللفظ ولا فى المعنى . ولكن الصعوبة الحقيقية فى إدراك صدق هذا الكلام وجماله ولمحة السخرية العميقة البادية عليه فى هدوء ورزانة . . . السخرية من ضجة الحياة والأحياء فى هذا الكوكب الأرضى ، حتى ليحسبون الكون كله مشغولا بهمومهم الكبيرة لديهم ، الهينة لديه إلى حد ألا يحس بها ولا بهم إلا بمقدار ما يرتسم هذا الظل الضئيل للأرض على وجه القمر ساعة الخسوف . . . السخرية ببعد مابين « هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذى أعرفه لك موّاراً بالقلق والحيرة » كما يقول الشاعر الساخر العظيم .

إن الصعوبة الحقيقية هنا هى هذا التصور النادر لصغر الكوكب الأرضى وما فيه ومن فيه ، وتصويره على هذا النحو فى قالب فنى يلقى هذه الظلال النفسية : ظلال السخرية العميقة ، والابتسامة الباهتة على شفتى فنان !

(١) ترجمة الأستاذ العقاد .

ويقول تاجور شاعر الهند العظيم :

« لقد أمسكت بيديها ووضعتهما على صدرى .
وحاولت أن أملأ ذراعىّ من وداعتها ، وأن أسلبها بسمتها العذبة
بقبلاتى . آه ! وأن أشفى هيمان عينى من نظراتها العميقة .
آه ! ولكن أين هى ؟
من ذا الذى يستطيع أن ينزع زرقة السماء ؟
وحاولت أن أمسك بالجمال ، فأفلت منى ، ليترك بين يدىّ الجسم وحده ،
وأعود حيران متعبا .
كيف ينبغى للجسد أن يلمس الزهرة التى لا يقدر على لمسها غير
الروح ؟ »[1]

•

وليس فى الألفاظ ولا معانيها هنا صعوبة ؛ إنما الصعوبة فى إدراك هذه الصوفية العميقة السمحة الشفيفة ، صوفية الروح الوديعة التى تسخر فى رحمة حنون من محاولة المِلك العنيف والاحتجاز الغليظ ، للجمال الوديع والروح المشاع . صوفية الفناء السمح فى الروح العام بلا احتجاز ولا تملك ولا امتياز !

ولا يفوتنى أن أنوه هنا بطريقة الأداء ، وجمال تصويرها لهذا الشعور الفريد . فتاجور قد اختار هنا أن يصف لنا « التجربة » التى قام بها ، وأن يطلعنا على نتائجها ، واحدة واحدة ، وأن يقف معنا هو وتجربته ونتائجها ؛ لنشاركه فى كل خطوة فيها ، ولتمتلىء مشاعرنا بالحقيقة الشعورية التى اهتدى إليها ؛ حتى إذا وصل إلى الغاية ، فقال :

« كيف ينبغى للجسد أن يلمس الزهرة التى لا يقدر على لمسها غير الروح ؟ »

كنا قد وصلنا معه إلى هذه الشفافية الروحية الصوفية . ولو أنه ألقى بها إلينا معانى مجردة لحرمنا لذة مشاركته فى هذه التجربة الفريدة .

ولطريقة الأداء قيمتها إذن فى تصوير الأحاسيس الرفيعة ، وإشاعة الشعور بها فى نفوس الآخرين بمقدار ماتطيق هذه النفوس تصور تجارب الآخرين .

---

(١) ترجمة الأستاذ لطفى شلش .

ونتيجة ثالثة أحب أن أخرج بها من مقدمات هذا البحث : إن الطبائع الفنية الممتازة ، والنفوس الفنية الموفورة الرصيد ، أقل عدداً فى هذه الحياة من الطبائع الشائعة المكرورة والنفوس المحدودة التجاريب .

وينشأ من هذا أن الفن العادى المريح ، الذى لا يكلف النفوس عناء فى التصور ، ولا جهداً فى الإدراك ، أشد سيرورة من الفن الممتاز — ما لم تتدخل فى الأمر عوامل أخرى غير العوامل الفنية البحتة ، كالعوامل السياسية والاجتماعية الخاصة ؛ لأن كثرة القراء فى كل جيل يعجبها الفنان المريح الذى لا يعلو على طبائعها كثيراً ، بل يشايعها فى تصورها وإحساسها بالحوادث والأشياء ، وتجد فى فنه صدى تجاربها النفسية المحدودة ، وطبائعها الشعورية الشائعة .

ولكن الخلود لا يكتب إلا لذوى الطبائع الضخمة الذين قد يلمون فى الطريق بما هو شائع مشترك فى النفس الإنسانية ، ثم يحلقون فى آفاقهم الخاصة ، حيث يرقبهم الناس ، كما يرقبون الأفلاك البعيدة ، يتلقون منها الحرارة والضياء ، وهى بعيدة عنهم فى أجواز الفضاء !

وحكم جيل واحد قد لا يكفى ؛ فلا بد من تتابع الأجيال فى كثير من الأحوال ، لتبين البهرج الزائف الرخيص ، من المعدن الأصيل الثمين .

وحين نستوفى الحديث عن أنماط النفوس ، ونماذج الأحاسيس نرتد إلى التعبير نفسه . ففى ميدانه كذلك تتفاضل المواهب ، ويكون للنقد مجال .

وقد أشرت فى تعليق على مقطوعة تاجور إلى قيمة « طريقة الأداء » فى الفنون الأدبية التى قد تكون « الطريقة » فيها حاسمة فى تقدير قيمة العمل الفنى ومستواه .

ولكن هذا بحث آخر لا يتسع له هذا الفصل الآن .

سيد قطب

چيمس چويس

ولد چيمس أوجستين ألويسيوس چويس فى دبلين سـنة ١٨٨٢ لأسرة إيرلندية كاثوليكية أصيلة ، وتلقى علومه الأولى بها فى كليتين من كليات الچزويت هما كلية كلونجوس وود ثم كلية بلڤدير ، وأتم علومه فى الجامعة الملكية القديمة. ومع أن أعوام الطلب الأولى عنـد الچزويت قد تركت فى نفسه وفى تفكيره آثاراً عميقة لازمته بقية حياته ، فإننا لانعرف عنها ما يستحق السرد سوى أنه نشر وهو بعدُ فى التاسعة كتيباً عنوانه : « حتى أنت ياهيلى ! » دافع فيه عن الزعيم الإيرلندى الكبير پارنل ، واتهم فيه هيلى بالخيـانة الوطنية والتآمر لإسقاط الزعيم . أما فى الجامعة فقد عرف چويس بسعة الاطلاع وشدة الصلف والتهتك الأخلاقى فى وقت واحد . والنوادر عن شدة صلفه لا تعد ، منها أنه التقى ذات مرة بالشاعر الإيرلندى العظيم و. ب. ييتس فاجترأ عليه قائلا : «لقد التقينا بعد أن فات الأوان ، فقد تقدمت بك السن ، ومحال أن تتأثر بأدبى». ومنها أن الكاتب آرثر سـايمونز حدثه ذات مرة عن بلزاك فضحك چويس ضحكة الساخر وأجاب : « عجباً لـكم ! ألا زلتم تتحدثون عن بلزاك ! » ومنها أنه أراد التردد على العلامة إدوارد داودن أستاذ الأدب المشهور ، فلما قال له قائل إن داودن قد لا يرتاح إلى صحبته أجاب هازئاً : « ومن يكون داودن هذا ! إنه مجرد أستاذ صغير ، أما أنا فشاعر ! لقد نظمت أحسن قصيدة غنائية منذ شكسپير. »

وبعد أن تخرج چويس فى كلية الآداب سنة ١٩٠٢ انتقل إلى باريس ليدرس الطب بهـا . ولا يعرف عن أيامه فى باريس إلا فقره المدقع . ثم جاءه أن أمه تحتضر فعاد إلى دبلين ليستأنف حياة الفقر والفجور ، واشتغل فيها بالتدريس قليلا ، ولـكنه ما لبث أن نزح إلى القارة الأوربية عام ١٩٠٤ ومعه زوجة ، نزح إلى پولا ثم تريستا وفيهما اشتغل بتعليم اللغة الإنجليزية فى مدارس برليتز . وفى تريستا أقام نيفاً وعشر سنوات كتب فيها مجموعة من الأقاصيص هى « أبناء

دبلين» ، وقصة ترجم فيها لنفسه هى « صورة الفنان فى شبابه » ، ومسرحية هى « المنفيون » . وفى تريستا بدأ قصته الخالدة « يوليس » ، تلك القصة التى أتمها بين زيوريخ وباريس فى سنى الحرب العالمية الأولى وما بعدها . فلما أتمها ونشرها عام ١٩٢٢ هيجت عليه الخواطر وألّبت عليه السلطات . وأقام فى باريس فى عزلة عن الناس يقرأ ويكتب حتى حضرته الوفاة عام ١٩٤٤ .

وهكذا حكم جويس على نفسه بالنفى مختاراً طول حياته ، ولم يعد إلى دبلين ، مسقط رأسه ، إلا مرة واحدة عام ١٩١٢ لينشر مجموعة أقاصيصه « أبناء دبلين » فقد تحرّج الناشرون من نشرها؛ لما بها من إشارات مسيئة إلى الملكة فكتوريا والملك إدوارد السابع ، ولما بها من وصف صريح لحوانيت دبلين وحاناتها ومطاعمها وذكر لها بأسمائها . ولقد طلبوا إليه أن يطهرها من كل ذلك فما رضى. فنشرها جويس أثناء زيارته تلك على نفقته الخاصة . ولكن الناشر الجبان أعدم النسخ الألف بعد طبعها ، ولم يبق إلا على نسخة واحدة أعطاها المؤلف ، فخرج جويس من إيرلندا بين الغضب والفرح لنجاته من « ضباب الحضارة الأنجلوسكسونية » معلناً فى أصدقائه أنه راجع إلى القارة الأوربية ، « راجع إلى المدنية » .

ولكن « أبناء دبلين » رأت النور عام ١٩١٤ حين توسط له الشاعر العظيم عزرا پاوند لدى الناشرين . وكذلك توسط له پاوند عند مجلة « الأيجويست » فنشرت له « صورة الفنان فى شبابه » تباعاً فى العام نفسه . أما « يوليس » فقد دخل جويس زيوريخ بجزء منها أثناء الحرب العالمية الأولى ، فحسبها الرقيب لغرابة أسلوبها نوعاً من الشفرة جديداً يحمل الرسائل الحربية ، وأوشك أن يصادرها ويستوقف صاحبها لولا أن توسط الوسطاء . وقد كان إتمامها بدء متاعب جويس الحقيقية ؛ فقد نشرتها له مجلة أمريكية تدعى « ليتل رڤيو » تباعاً ، ولكن مصلحة البريد فى الولايات المتحدة أمرت بإحراق جملة أعداد منها لما فيها من خروج على الآداب العامة . وقاضت المجلة « جماعة محاربة الرذيلة » فحكم على أصحاب المجلة بغرامة قدرها مائة دولار . وظهرت فى باريس الطبعة الأولى من «يوليس» عام ١٩٢٢، وتلتها طبعة فى لندن صودرت. وتولت جمارك ساوتهامپتون ونيويورك تفتيش المسافرين ، وجمع الداخل والخارج منها لإحراقها . أما الصحافة فلم تكن أقل نشاطاً من السلطات ؛ فكتبت عن « فضيحة يوليس » وحذرت

الناس من ذلك « الكتاب اللعين » . ولقد حسب الإنجليز فى مبدأ الأمر أن « يوليس » إن هى إلا كتاب جديد فى الأدب المكشوف لا وزن له ولا خطر حتى دلهم عليه ناقد فرنسى يدعى ڤاليرى لاربو فى مقال كتبه عام ١٩٢٢ .

هذا هو جيمس جويس الذى اختلفت فى وصفه الآراء : فمن قائل إنه إمام القصة فى القرن العشرين، ومجددها الذى استحدث قالباً ومادة وغاية للكاتبين، إلى قائل بأنه دعىٌّ متهوس، بل منحلٌّ متعفن، بل قرحة فى جسم المجتمع . هذا هو جيمس جويس الذى قال فيه ت. س. إليوت إنه أعظم من ملك ناصية اللغة الإنجليزية منذ ملتون . وقال فيه برنارد شو: « أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التى استخدمها مستر جويس ، فقلمى المتزمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنى لا أجد فى وقاحاته الطبية الصبيانية أو فى تفاهاته التى يعتز بها مايستحق الاهتمام». وقد ألقى شو بنسخته من « يوليس » فى نار المدفأة قائلا : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلن وغلمانها لا يزالون على ما كانوا عليه فى أيامى من قذارة فى التفكير لا سبيل إلى إزالتها ، هذا كل ما هنالك» . هذا هو جيمس جويس الذى أفسح له أرنولد بنيت مكاناً بين الخالدين ، واستجار منه د . ه . لورانس قائلا : « يا إلهى ! إن جيمس جويس لخليط متعفن لا انسجام فيه ، فما به إلا مقتطفات من الكتاب المقدس وغيره من الكتب طبخت معاً كما تطبخ بقايا الكرنب وحثالة المأكولات فى حساء قوامه العهارة المقصودة التى لا فن فيها ، فيا لأدبه من أدب غث مألوف قد أضنى تأليفه صاحبه فاستخفى فى زى أدب جديد ، بل استخفى فى زى الأدب الجديد . إن الملل يقتلنى حين أقرأ جيمس جويس ؛ فهو ملىء بالادعاء ، وهو ملىء بالافتعال والتبييت ، وهو خال تماماً من كل تلقائية أو حيوية حقيقية » . ولكن الجدل فى حقيقة جويس ومكانته رغم ذلك كله قد انتهى الآن إلى ما يشبه الإجماع على أنه صاحب منهج فى القصص جديد ، وصاحب أسلوب فى الإنشاء جديد . ولقد يكون منهجه فاسداً ، ولقد يكون أسلوبه أضعف من أن يثبت أمام عصف الزمان ، ولكن ما من شك فى أن منهجه وأسلوبه قد تركا أثراً ملموساً فى بعض من كتبوا بعده ، الشعراء منهم والناثرين . وما من شك فى أن أدبه ظاهرة من ظواهر النصف الأول من القرن العشرين . وقد يكون جويس نقطة تحول فى فن الكتابة كما يصفه ممجدوه ، وقد لا يكون، ولكنه مرحلة فى تطور الأدب على أقل تقدير .

ولقد تطور جويس ذاته كما يتطور كل فنان ؛ فهو من ناحيـة لم يهتد فجأة إلى منهجه وأسلوبه اللذين اشتهر بهما فى « يوليس » ، بل تعهدهما منـذ شبابه الأول حتى أينعا وأثمرا . وهو من ناحية أخرى لم يبدأ حياته الأدبيـة بذلك المنهج وذلك الأسـلوب بل بدأ كما يبدأ غيره من أصحاب المدارس بين القديم والجديد . فقد بدأ بمجموعته « أبنـاء دبلين » وهى مجموعة توشك أن تكون أقاصيص ، وتوشك أن تكون لوحات قلمية وصف فيها مسقط رأسه وصفاً مفصلا لايؤتاه إلا أصحاب المذهب الطبيعى فى القصة . ومنها يتبين أن جويس كان يعيش فى دبلين بروحه مع أنه قضى كل حياته فى الخارج ، فشارع من شوارعها الخلفية المهملة أقرب إلى فؤاده من الشـانزليزيه العظيم . أما قصته « صورة الفنان فى شـبابه » فهى قصة كتبها فى عشر سنوات ما بين ١٩٠٤ و١٩١٤ وترجم فيها لنفسه أيام كان حدثاً يتلقى العلم منتحلا لنفسه شخصية وهمية هى شخصية ستيفن ديدالوس .

ولقد اختار جويس المتغطرس لنفسـه اسم ديدالوس لأن ديدالوس كان فى أسـاطير اليونان أقدم الفنانين ومعلمهم جميعاً ، وهو الذى بنى اللبرنت ، قصر التيه . وجويس يناديه فى ختام « صورة الفنان » قائلا : « هأنذا أخرج للمرة الأولى بعـد المليون لأواجه حقائق الحياة ، ولأصوغ لقومى فى مصهر روحى ضميراً لا زال خاماً . فيا أبت القديم ، ويا سـيد الصانعين ، ألهمنى الآن وسدد خطاى إلى أبد الآبدين » .

فالقصة إذاً سجل لجميع الأطوار الأولى فى نموه النفسى والعقلى ، وهى وصف مجيد للصراع الذى نشب فى كينونته بين الشخصية الفنية والشخصية الدينية ، وهى رسم لبيئته الأولى أيام كان يعيش بين أبيه الغليظ الطبع الذى لا يحذق أمراً ما وأمه الوديعة الرقيقة الفؤاد التى عوضته عن جفوة أبيه شيئاً كثيراً ، وهى عرض للمؤامرة الكبرى التى كان يدبرها عميد كلية بلقدير لاختطاف روحه وضمه إلى خدمة الـكهنوت ، وهى تحليل لنضوجه الداخلى فى طريق الدين من ناحية ، وفى طريق الفن من ناحية أخرى . ولقد كان جائزاً أن يقتل الدين الفن فى نفس جويس لولا أن عميد كلية بلقدير كان مسيحيًّا أكثر من المسيح وكاثوليكيًّا أكثر من البابا . فجويس الصغير يكتب موضوعاً من مواضيع الإنشاء فيه تحرر وانطلاق ، فيتهمه عميد كلية بلقدير بالـكفر ويلزمه بأن

« يعترف » بكفره . وجويس الصغير يخطئ خطيئة الجسد ، فيهدده عميد كلية بلقدير بالويل والثبور وعظائم الأمور ويلزمه بأن «يعترف» بخطيئته ، ويصف له فى خطبة جميلة رنانة أهوال الجحيم الذى ينتظره وصفاً تقشعر له الأبدان ، فتقضى هذه الخطبة على ما بقى فى نفس الفنان من حب للدين ويعصى ويستكبر كما عصى إبليس واستكبر ، ويصيح صيحته حين أبى أن يخدم عرش الله : «نون سر قيام ! نون سر قيام ! » « لن أخدم ! لن أخدم ! » . وهكذا قتل الفن الدين فى نفس جويس ، وهكذا تنطلق نفسه ويتحرر عقله فى الجامعة ، وهكذا يتمرد على ديانة أمته وثقافة أمته ، ويسعى إلى الفرار منهما بعد الجامعة ما استطاع إلى إلى ذلك سبيلا ، ويلتمس النجاة فى آفاق أرحب وثقافة لا تحد بلغة أو وطن أو جيل ، فيتعلم ثمان عشرة لغة ، ويتمثل ثقافات وحضارات بائدة وحية. فخير ما يقال فى وصف « صورة الفنان فى شبابه » أنها مفتاح شخصية جويس ، كما أن « السونيتات » المشهورة مفتاح شخصية شكسبير .

ولكن هذه الثورة على الدين قد تركت فى نفس جويس آثاراً لازمته بقية عمره ؛ فهو رغم هذه الثورة كان يغضب أحياناً إذا امتهن الدين فى حضرته ، وكان يبالغ هو نفسه فى امتهان الدين أحياناً أخرى . فنفسه بعد هذا الصراع المشهود لم تخرج صافية كلها دين وقيود أو كلها فن وانطلاق ، بل خرجت مثلا فى الفوضى وتجلت فيها آثار المعركة من خرائب وأشلاء ودخان وعتاد مهشم وعتاد متروك . فحين زار ستيفن ديدالوس دبلين أول مرة بعد هجرته ، طلبت إليه أمه المحتضرة أن يجثو بجوارها ويصلى إلى الله من أجلها فأبى ، ولكنه أحس بعدئذ بأنه قد أخطأ ، وظل شبح أمه يطارده إلى يوم مماته . والعُقَدُ فى نفس جويس كثيرة تنتظر من يحللها ويردها إلى ما عصف بطفولته ويفاعته وشبابه الأول من نقائض لم تتم تصفيتها ، وصراعات لم تنجل نهائيًّا .

ومن النقاد من يعدّ « صورة الفنان فى شبابه » مقدمة لقصة « يوليس » ، ومنهم من يرى أنها عمل ذو شخصية مستقلة . وكيفما كان الأمر ، فإن ستيفن ديدالوس بطل « صورة الفنان » لا ينتهى بانتهاء سيرته بل يظهر مرة أخرى فى « يوليس » ، وهو فى « يوليس » ليس محور القصة بل أحد أشخاصها البارزين . وقصة «يوليس» ليست قصة بالمعنى المألوف الذى تعوده الناس ، روعى فيها

التسلسل الزمنى والتتابع المنطقى ، بل قصة لم يراع فيها شئ من ذلك كله ، قصة اختفى فيها كل تقدير معروف للزمن، واختلطت فيها حوادث الحاضر بحوادث الماضى اختلاطاً تاماً ؛ لأن كاتبها لم يفهم الزمن فَهْمَنا له بأنه ينقسم إلى أيام تنقسم إلى ساعات تنقسم إلى دقائق تنقسم إلى ثوان ، بل رفع كل هذه الحدود وجعل الوعى بالزمن مقياس الزمن؛ وقدَّر الوقت بما يحدث فيه من حوادث وما يجرى فيه من أفكار ؛ فرب دقيقة لها مقام ساعة ، ورب ساعة لها مقام دقيقة . وهو لم يجد أن أحداث الحياة وخواطر الإنسان تتبع دائماً فى تعاقبها أو فى تولدها نهجاً منطقيا تخرج به النتائج من العلل خروجاً حتميًّا ، بل وجد أنها كثيراً ما تتبع نهجاً غير منطقى قد لا تتصل فيه النتائج بالعلل .

« يوليس » القصة الضخمة التى تربى كلماتها على ربع مليون كلمة (٤٣٠ و٢٦٠ كلمة) ، « يوليس » التى كتبت فى سبع سنوات (١٩١٤ — ١٩٢١) تصف حياة ثلاثة أشخاص من أبناء دبلين فى يوم واحد بين يقظتهم فى الصباح ونومهم فى أعجاز الليل ، أو على التحديد فى ثمان عشرة ساعة وخمس وأربعين دقيقة . وهؤلاء الأشخاص هم يهودى مكتهل يشتغل بعمل الإعلانات يدعى ليوپولد بلوم وهو يوليس بطل القصة . ثم زوجته ماريون بلوم وهى مغنية محترفة شهوانية امتزج فيها دم اليهود الأسبان ودم الإيرلنديين . ثم مدرس إيرلندى شاب يدعى ستيڤن ديدالوس واسع العلم دائم التفكير . وذلك اليوم الذى تصفه قصة « يوليس » (١٦ يونيو ١٩٠٤) لم يكن يوماً حافلا فى تاريخ أحدهم أو فى تاريخ دبلين أو فى تاريخ إيرلندا ، بل كان يوماً عاديًّا كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه فى شئ مذكور . فهو يبدأ فى الساعة الثامنة صباحاً ، ونحو الضحى يدفن رجل من أهالى دبلين ، وفى الساعة الرابعة تحدث خيانة زوجية فى بيت مستر بلوم ، وقبل انتصاف الليل يولد طفل وتمطر السماء ويقعقع الرعد فيها . وفيما عدا ذلك يطعم أشخاص القصة ويشربون البيرة ويفكرون ويتأملون ويتذاكرون ويغنون ويتجادلون فى السياسة الإيرلندية وسواها من الموضوعات المألوفة ، ويراهنون على جواد خاسر . فهو يوم عادى كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه فى شئ مذكور .

ولكن يوليس هو أوديسيوس بطل ملحمة « الأوديسا » التى تركها لنا الشاعر اليونانى هوميروس . فما صلة هذه القصة التافهة بملحمة « الأوديسا » ؟ وما وجه الشبه بين مستر بلوم والبطل يوليس ؟

إن « الأوديسا » تبدأ بمغامرات تلماك فى بحثه عن أبيــه يوليس . وهكذا تبدأ قصــة « يوليس » ؛ فستيفن ديدالوس حين يعود من باريس ليودع أمه المحتضرة فى دبلين يجد أن أباه الغليظ الفؤاد قد آلت حاله إلى ما هو أسوأ من غلظة الفؤاد ، فقد صار إلى رجل سكير لا نفع فيه ، فيتأكد فى نفس ستيفن ديدالوس إحساسه القديم بأن أباه هــذا لا يصلح أن يكون أباً . وما إن يمضى على موت الأم عام واحد حتى تتفكك أسرة ديدالوس، فالأب يغشى حانات المدينة فى وقت لايجد أبناؤه وبناته فيه مايقتاتون به . وتشتد الجفوة وتكون القطيعة ، ويبدأ بحث استيفن ديدالوس عن أب له جــديد . وهو فى كل ذلك يحس بأنه غريب بين قومه ، فهو تلماك الباحث عن يوليس . ولــكن «الأوديسـا» لاتحدثنا عن الولد الذى يبحث عن أبيه فحسب ، بل تحدثنا كذلك عن الوالد الذى يبحث عن ولده ، تحدثنا عن يوليس الباحث عن تلماك . كذلك نجد فى قصة جويس أن يهوديـًا مجرىّ الأصل بدبلين يدعى بلوم له زوجة تخونه بلا انقطاع ، تخونه بمناسبة وبغير مناســبة ، وهو يعلم بذلك حقا ولا يتدخل فى شؤونها ؛ لأنه لا يعاشرها معاشرة الأزواج . وهو لا يعاشرها معاشرة الأزواج، لأنها انجبت منه طفلا هزيلا مالبث أن مات بعد ولادته ، فثبت فى رُوع بلوم أنه ناقص الرجولة عاجز عن إنجاب الأبناء الأصحاء . فبلوم لا يحس بالغربة بين أبناء دبلين فحسب بل يحس بالغربة فى داره كذلك ، وهو يوليس الذى يبحث عن تلماك .

فــكلاهما إذاً تعذبه مشا كل أسرته . ويبدأ يوم ستيفن ديدالوس فى الساعة الثامنة صباحا ويمتلىء خاطره بصورة أمه ؛ لأن الذكرى السنوية لوفاتها قد دنت ، ويعضه الندم حين يذكر ماكان من إبائه الصلاة من أجلها . ثم ينصرف إلى المدرسة حيث يلقى درساً فى التاريخ الرومانى ، وفى المدرسة يرى تلميذا غبيـًا يعجز عن حل مسائل الحساب، فيتذكر أيام صباه وماكان من حماية أمه له . وبعد المدرسة يبدو له أن يكفــِّر عن جريمته الماثلة أبداً فى خاطره فيعتزم زيارة خال له هو يزدريه ، لعل تلطفه مع خاله يمسح خشونته نحو أمه ويخفف عنه وزره . ولــكنه يعدل عن تلك الزيارة الثقيلة بعد صراع نفسى شديد . ثم يحاول أن ينظم قصيدة ، ولــكن الوحى لا يسعفه فينصرف إلى المــكتبة . وفى المــكتبة يتحدث طويلا عن الصلة بين شكسبير و ابيه ، وما هذا الحديث إلا إسقاط لشعوره النفسى .

كذلك يبدأ يوم بلوم فى الساعة الثامنة صباحا . فهو يخرج ليشترى كلية ليطهيها ويحملها إلى مسز بلوم لتفطر بها وهى فى فراشها . ثم يعثر على خطاب موجه إلى زوجته من رجل يدعى بويلان يحدد فيه موعداً لزيارتها فى الساعة الرابعة . وبلوم يعلم أن بويلان هذا عشيق من عشاق زوجته ، فتتبلبل لذلك خواطره طول اليوم . ويخرج ليدفن صديقاً ، وفى الشارع وفى المطعم وفى الفندق يسعى جهده أن يتجنب بويلان كلما لقيه ، وأن يصرف المتحدثين عن الكلام عنه . وفى بار الفندق يدخل عليه بويلان ويشرب كأساً من الخمر وينصرف ليفى بموعد الساعة الرابعة مع مسز بلوم ، وفى البار يسمع بلوم الناس يَلَغُون فى عرضه ، وفى الحانة يدور حديث الشاربين حول بويلان مرة أخرى ، فيسعى بلوم إلى صرفهم عنه فلا يوفق ، فينشب بينه وبينهم شجار يفضى آخر الأمر إلى عراك . وفى المساء يقصد بلوم إلى مستشفى من مستشفيات الولادة ليعود زوجة صديق له ، وفى المستشفى يلتقى بستيفن ديدالوس بين جماعة من الأطباء يشربون ويتفكهون بالوضع وبالأمومة . ولقد كان ستيفن ديدالوس يجد فى سمرهم ذلك ما يؤذى نفسه ويذكره بخطيئته نحو أمه ، ولكن المكابرة تغلبه كالعادة فيمعن بالهزء من الولادة وتجريح الأمومة أكثر مما يفعلون . ثم يخرج الجمع إلى حانة ، ولكن ستيفن ديدالوس وصديقه بك موليجان يختلفان فى أمر مفتاح البرج الذى يسكنان . وينتهى الأمر بستيفن ديدالوس أن يجد نفسه بلا مأوى ، فيمضى مع صديق له إلى بيت من بيوت الدعارة ويتبعهما إلى الماخور بلوم . ويستبد السكر بيوليس وتليماك فيتمثل الأول صورة زوجته وعشيقها ، ويتمثل الثانى صورة أمه الميتة وقد عادت إليه فى أكفانها تستعطفه أن يصلى من أجل روحها ، ولكنه يأبى من جديد ، وتتملكه عاصفة هوجاء من العواطف المتضاربة ، فيهوى بعصاه على النجفة ويهشمها ثم يندفع إلى الخارج . وفى الطريق يتشاجر مع اثنين من جنود الاحتلال الإنجليز ، ويكون من ذلك أن يهوى على الأرض مغلوباً على أمره . ويلحق بلوم بستيفن ديدالوس ، وفيما هو منكب عليه يعينه على النهوض يرى فى صفحة وجهه صورة ولده المتوفى كما كان يرجو له أن يكون ، فتيًّا ، واسع الثقافة ، مصقول النفس ، مرهف الإحساس . وهكذا يتعرف الوالد على ولده ، وهكذا يلتقى يوليس وتليماك . ويستصحب بلوم ستيفن ديدالوس إلى داره ويلح عليه أن يقضى ليلته فى ضيافته ، بل أن يقيم معه نهائيا ، ولكنه يرفض . ويسترد

بلوم ثقته بنفسه وإحساسه برجولته بفضل لقائه مع ستيفن ديدالوس، وبفضل ما كان من إنقاذه إياه، فإذا هو يتبدل من حال إلى حال، وإذا هو يأمر زوجته بأن تعد له طعام الإفطار فى الصباح بعد أن كان يعده هو لها، وإذا هو يقبّلها قبلة الزوج بعد نفرة دامت أعواماً وأعواماً. وهكذا يعود ليوپولد بلوم إلى ماريون بلوم بعد مغامرات مشهودة فى شوارع دبلن وأزقتها، كما عاد يوليس إلى زوجته پنلوپ بعد غيبة طويلة جاب فيها الأقطار وذرع البحار.

ولقد استطاع بعض النقاد من أمثال ستيوارت جلبرت ولڤين، وإدموند ولسون، ولويس جولدنج، بدرجات متفاوتة، أن يجدوا لكل حلقة فى قصة «يوليس» نظيراً يقابلها فى «أوديسّا» هوميروس. فاشتراك بلوم فى دفن صاحبه يقابل نزول يوليس إلى حاديس، مملكة الموت، وشجار بلوم مع شانئيه يقابل صراع يوليس مع العمالقة، وذهاب بلوم إلى البغىّ بيلا كوهين ونجاته منها يقابل مغامرة يوليس مع الساحرة سيرسيه التى تحول البشر إلى عجماوات وإفلاته من قبضتها، وهكذا وهكذا. ولقد كان بعض النقاد يرون أن قصة «يوليس» مجرد قطاع من الحياة الواقعة، ولكن هؤلاء لم يتنبهوا إلى ما فيها من تصميم محكم ترسّم فيه جويس خطى هوميروس مستخدماً الرمز فى تصويره لكل حلقة من حلقات «الأوديسّا»، وحاول أن يبنى الحاضر على أساس الماضى، وأن يوازن بين طبيعة الحياة وأبطالها فى واقع اليوم، وطبيعة الحياة وأبطالها فى خيال الماضى.

ولقد احتار النقاد فى علة اختيار جويس لشخصية البطل الجوّال يوليس محورا لملحمته النثرية إن صح هذا التعبير، فالملاحم لا تكتب نثراً، ومنهم من ذهب إلى أن هناك شبهاً بين شخصية جويس وظروفه، وشخصية يوليس وظروفه. فجويس فى غربة متصلة روحية وجسمية معاً، وكذلك كان يوليس الهومرى، والتجوال قوام الحياة عندهما جميعاً. كذلك احتار النقاد فى علة اختيار جويس لشخصية رجل يهودى ليقوم بدور يوليس فى هذه «الأوديسا» الجديدة، فنهم من وجد شبها بين هذا اليهودى التائه، وبين ذلك اليونانى التائه. ومنهم من وجد شبها بين الغربة الروحية التى يعيش فيها جويس بين الإيرلنديين، والغربة الروحية التى يعيش بلوم فيها بينهم. ومنهم من يشير إلى اهتمام كتاب القصة المعاصرين بشخصيات اليهود؛ فمارسيل پروست الذى تعلم جويس منه شيئاً كثيراً كتب عن شخصية سوان، وتوماس مان كتب عن شخصية جوزيف؛ فلعل اختيار جويس

ليهودى صدى لتفاقم المشكلة اليهودية فى أوربا . ومهما يكن من شئ ، فلاشك فى أن يوليس الهومرى هو أقرب أبطال الخيال إلى شخصية مستر بلوم ؛ فهو ليس كأخيل أو هكتور أو أنياس بطلا بالمعنى المألوف فى الأساطير ضارباً بالسيف فاتكا بالأعداء غازيا لقلوب العذارى ، بل هو بطل من طراز حديث ، بطل بطولته فى أصالة رأيه وفى مكره ؛ فمكره وأصالة رأيه ينقذانه من كل الأخطار التى يستهدف لها . وهكذا الشأن مع بلوم فهو ماكر وأصيل الرأى . وما من شك فى أن قصة جويس التى نسج فيها الواقع على نول الخيال تفجعنا فى الواقع كما تفجعنا فى الخيال ؛ فهى تجرد الحياة من سحرها الذى أسبغه عليها الشعراء ، وهى تشككنا فى الخيال ومنطقه . هى تترجم تجوال البطل فى بلاد واق الواق وفى بلاد تركب الأفيال إلى تجوال اليهودى المشتغل بعمل الإعلانات فى شوارع دبلين . فما أبعد الواقع عن الخيال ! وبنلوپ امرأة صبور تطول غيبة زوجها يوليس أعواما طوالا ولكنها تثبت على وفائها له ، وينتهى إليها أنه قد مات فى بلاد الغربة فلا تصدّق ما يقال ، ويأتيها الخُطّاب عداداً فتصرفهم إن بالحسنى وإن بالمكروه ، وتتخذ من مغزلها تعلة لاستمهالهم ، فتغزل المطارف ثم تنقض خيوطها من جديد زاعمة أنها سوف تبتّ فى الأمر حين تفرغ من غزلها ولكنها لا تفرغ من غزلها أبداً . هذا فى خيال الشعراء . أما فى واقع القصصيين فمسز بلوم تخون زوجها خيانة متصلة ، وتصطفى العشاق فى إسراف يدهش أهل المدينة . ولقد نجد لماريون بلوم فى هجران زوجها إياها بعض العذر كما كان اليهودى نفسه يفعل ؛ ولكنها تعود إلى التفكير فى خيانته من جديد بعد أن رجع إليها وانتهت غيبته ، فما أبعد الواقع عن الخيال !

لكن كل ما تقدم لا يقربنا من فهم جويس الحقيق ، جويس ذى المنهج الجديد والأسلوب الجديد . فلابد لفهم جويس من الكلام عن المنهج وعن الأسلوب اللذين استحدثهما فى الأدب الانجليزى ، فكيف أمكن لجويس أن ينفق ربع مليون كلمة فى سرد هذه القصة البسيطة المثلثة الأطراف ، قصة ليوپولد بلوم وماريون بلوم وستيفن ديدالوس ؟ ومن أين له بكل هذه المادة إذا كان قد حدد لنفسه أربعاً وعشرين ساعة عادية فى حياة هؤلاء الأفراد العاديين ؟

الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تلتمس فى منهج جويس وفى أسلوبه . أما المنهج الذى اتبعه فهو منهج « المنولوج الداخلى » كما يسميه النقاد ، أو منهج

« تيار الوعى » كما يسميه علماء السيكولوجيا المشتغلون بالتحليل النفسى . وأما الأسلوب فيقوم على ما يسمونه « تحرير الألفاظ » .

وجويس ليس مبتكر منهج المنولوج الداخلى أو تيار الوعى بل مكمله . ومبتكره الأول كاتب فرنسى مغمور يدعى إدوار ديچاردان ، وهو أحد صغار الرمزيين ، وصاحب قصة « لقد قطعت أشجار الغار » التى ظهرت سنة ١٨٨٧ ، وهى قصة شاب باريسى دعا إحدى الممثلات إلى العشاء لا أكثر من ذلك ، وهى تسجل الخواطر التى جالت بذهن ذلك الشاب وبذهن تلك الممثلة فى ذلك اللقاء. فهى إذاً قصة خالية من الحوادث كل الخلوّ، قوامها الأفكار والذكريات ليس غير . وفى شرح منهجه كتب ديچاردان يقول : «المنولوج الداخلى يتصل بالشعر من حيث إنه ذلك الكلام الذى لا يسمع ولا يقال ، وبه تعبر الشخصية عن أفكارها المكنونة (أى ما كان منها أقرب إلى اللاوعى) دون تقيد بالتنظيم المنطقى ، أو بعبارة أخرى فى حالتها الأولى . وسبيل الشخصية إلى هذا التعبير هو الكلام المباشر الذى يكتفى فيه بالحد الأدنى من قواعد اللغة على نحو يدل على أن الخواطر قد سُجلت كما ترد إلى الذهن تماماً . » فالإنسان حين يتكلم مع غيره من الناس يلتزم أصول اللغة حتى يفهم الناس ما يقول . ولكن الإنسان لا يتكلم مع الناس طول الوقت ، بل إن الكلام لا يشغل من حياتنا اليومية إلا جانباً يسيراً ، وما بقى لنا من الوقت نقضيه فى التفكير بجميع درجاته وألوانه ، من التأمل إلى الملاحظة العابرة ، ومن استحضار ذكريات الماضى إلى بناء صور المستقبل . فخواطر الإنسان لا تقل أهمية أو دلالة عن كلامه أو أعماله ، وتسجيلها واجب على الفنان محتم . والفنان الذى يتوخى الأمانة فى نقل الواقع يحتفظ لكل شىء بنسبته فى الحياة ، ولو قد فعل ذلك لوجد أن الخواطر وحدها تشغل تسعة أعشار قصته . أما الكلام والأفعال والحوادث فلا تستهلك إلا العشر الباقى . وهذه طبيعة الحياة ، فكل من يتصدى لوصف الحياة كما هى ينبغى أن يلتزم هذه القاعدة . وهذه الخواطر التى يحدث بها الإنسان نفسه ، هذا المنولوج الداخلى الصامت ، لا يَرِدُ إلى الذهن فى صورة مرتبة مبوبة تتبع فيها العلة النتيجة ، ويجرى فيها الكلام طبقاً لأصول الكلام ، ويسبق فيها الماضى البعيد الماضى القريب ، بل يرد متقطعاً مضطرباً أشبه شىء بشريط السينما إذا امتحن على مهل ، فهو خال من التتابع المنطقى ، متوقف على التتابع العاطفى أو الضرورات الآلية كالتداعى

اللفظى مثلا . وفى عالم الذكريات يتداخل الماضى والحاضر والمستقبل ، ويفقد الزمن معناه كذلك . وما يقال فى الكلام يقال كذلك فى الانفعالات والإحساسات والصور الذهنية ؛ فمن الأمانة أن تسجل كل هذه الأشياء على وضعها الأصلى فتعفى من الصياغة النحوية والصياغة المنطقية معاً . ولقد وصف الناقد الفرنسى الكبير ريمى دى جورمون قصة ديچاردان هذه بأنها « قصة نقلت إلى الأدب منهج السينما قبل أن تظهر السينما » . وهذا المنهج الذى اهتدى إليه ديچاردان سار عليه مارسيل پروست فى قصته « البحث عن الماضى » وأتقنه ، ولكن جويس هو الذى وصل به إلى حد الكمال . وأوضح مثل على هذا هو نهاية « يوليس » بعد عودة بلوم إلى زوجته روحيا وجسميا . فبعد هذه العودة نرى مسز بلوم مستلقية فى فراشها وقد زال عنها النوم ، نراها تسترجع حوادث الماضى وتستحضر ذكرياتها الداعرة ، وهى تفعل كل ذلك فى منولوج صامت واحد تتداعى فيه الأفكار بلا ترابط ولا نحو ولا منطق ولا تقيد بالترتيب الزمنى ، ويسجلها جويس فى اثنين وأربعين صفحة لا يستخدم فيها علامة واحدة من علامات الترقيم ، فهى نموذج من تداعى المعانى اللامترابط الذى كان الشغل الشاغل لعلماء السيكولوچيا من أتباع مدرسة فرويد فى التحليل النفسى . ولقد أخذ جويس عنهم شيئاً كثيراً أيام انتقل إلى زيوريخ مركز تلك المدرسة إبان الحرب العالمية الأولى . وماريون بلوم تستعرض الآن أيامها فى جبل طارق :

«وأنا أحب الأزهار وأتمنى أن يضيق البيت بالورود. يا إله السموات ما رايت كالطبيعة شيئاً : الجبال الوحشية ثم البحر وأمواجه المتدافعة ثم الريف الجميل بحقوله ذات القمح والشعير وسائر ضروب النبت والقطعان الكبيرة ، ينعش الفؤاد مرأى الأنهار والغدران والأزهار من كل شكل ولون ورائحة ، تتفتح فى كل مكان حتى فى شقوق الأرض البنفسج والأزهار الصفراء الباهتة . وهذه هى الطبيعة ، فمن ينكرون وجود الله فعلمهم الغزير لا يساوى خردلة . وكثيراً ما سألت الملحدين إن كان هذا اسمهم أن يخلقوا شيئاً إذا استطاعوا ، فاذا دنت وفاتهم يطلبون القسيس بإلحاح . ولم يفعلون ذلك؟ لأنهم يخافون نار الجحيم لفساد ضمائرهم . نعم أعرفه حق المعرفة أعرف الشخص الذى كان فى الكون قبل الخليقة الشخص الذى خلق كل ذلك الشخص الذى هذا لا يعلمونه وما لا أعلمه أنا فالأمر هين

فليحولوا غداً دون إشراق الشمس إذا استطاعوا . إن الشمس تشرق من أجلك يافاتنتى ، هذا ما قاله لى يوم كنا نرقد بين الأزهار فى هاوث ، وكان فى رأسه فى سترته الرمادية المصنوعة من الخيش وقبعته المصنوعة من القش ، فى ذلك اليوم أوحيت إليه أن يعرض علىّ الزواج ، نعم أعطيته أولا قطعة من الكعك كانت فى فمى وكانت السنة سنة كبيسة كهذه السنة ، منذ ستة عشر سنة يا إلهى ! بعد تلك القبلة الطويلة كدت أفقد وعيى ، نعم قال إنى زهرة الجبل ، نعم نحن كلنا أزهار الجبل نحن النساء ، فجسم المرأة زهرة ، وهذه هى المرة الوحيدة التى صدق فيها طول حياته ، والشمس تشرق من أجلك اليوم يا فاتنتى ، نعم هذا سر ميلى إليه ، فقد أدركت أنه يفهم قدر النساء أو يحس بحقيقتهم ، وأدركت أنى سأستطيع أن أنفذ مشيئتى فيه دائماً ، أعطيته كل ما أراد من متعة ، واستدرجته حتى سألنى أن أقول نعم، ولم أجب أول الأمر بل تطلعت إلى البحر والسماء أفكر فى شتى الأشياء ، لم يكن يدرى بملقى ولا بمستر ستانهوب ولا بهستر ولا بأبى وكابتن جروفز العجوز والبحارة الذين كانوا يلعبون القفزة وأنا أقول طأطئوا ويسمونها غسل الأطباق ، والديدبان الواقف أمام دار الحاكم وحول خوذته البيضاء ، مسكين شوته الشمس أو كادت ، والبنات الاسپانيات يضحكن لابسات الشيلان والذوائب الطويلة ، والمزاد فى الصباح يشهده اليونانيون واليهود والعرب وكل جنس وملة من أقصى أوربا إلى أقصاها ، وشارع الدوق وسوق الدجاج ولغط الدجاج أمام حانوت لاربى شارون ، والحمير المسكينة يكاد يغلبها النعاس والفتيان الذين لا تعرف لهم صناعة نائمين فى الظل على درج السلم ، والعجلات الكبيرة فى عربات الثيران والقلعة القديمة التى بلغ عمرها آلاف السنين ، نعم وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة كلهم معممون كأنهم الملوك يسألونك أن تشرفهم بالدخول فى حوانيتهم الصغيرة ، وروندا والنوافذ القديمة تطل خلسة وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الأسياخ الحديدية ، والحانات التى لا تفتح تماماً ولا تقفل تماماً أثناء الليل ، وصاجات الراقصات وليلة أن فاتتنا الباخرة فى الجسيراس والحارس يتجول بمصباحه منشرحاً ، والسيل المدرار . . . يالى ويالى البحر البحر آناً قرمزى كأنه النيران والشفق العظيم ، وأشجار التين فى حدائق ألاميدا ، نعم والشوارع الضيقة الغريبة كلها والبيوت الوردية والزرقاء والصفراء وحدائق الورد والياسمين والجيرانيوم والصبار وجبل طارق واقفاً

كالبنت هناك ، كنت زهرة الجبل ، نعم هناك كنت أضع فى شعرى وردة كما تفعل بنات الأندلس ، وهل ألبس ثوباً آخر ؟ نعم كم قبلنى تحت الحائط المغربى قلت لا فرق بينه وبين سواه فلأتزوجه ، ثم سألته بعينى أن يسألنى مرة أخرى نعم ثم سألنى مرة أخرى نعم سألنى أن أقول نعم يا زهرة الجبل وعانقته أول مرة وجذبته نحوى ليحس ثدىّ وينشق عبيرهما وكان قلبه يركض ركض مجنون وقلت نعم قلت نعم سأتزوجك نعم . »

وكما حرر جويس المعـانى من قيد النحو والمنطق والتماسك الزمنى كذلك حرر الألفاظ من قيد المعـانى ومن قيد العرف ومن كل قيد معروف . فهو يبيح لنفسه أن يدغم كلمة فى أخرى وأن ينقل حروف كلمة إلى كلمة أخرى ، وأن يشتق ما شاء من الألفاظ التى يروقه جرسها سواء أكانت ذات معنى أم كانت ليست بذات معنى ، فللجرس عنده المقام الأول ، والمعنى عنده ليس ذهنيًّا فقط بل هو لفظى كذلك ، والبلاغة الموسيقية التى يتصف اللفظ بها تغنى عن كل بلاغة فى المعنى. وعلى الجملة فهو يجعل الألفاظ تقف على رؤوسها كما يقولون . ومن هنا كثرت فى أسلوبه الألفـاظ الجميلة المنحوتة من أصل معروف أو من أصوات غير معروفة وأغلبها يشبه هذيان المجانين . وجويس ليس أول من أقدم على هذا الكلف بالأصوات المجردة فى الأدب ، فقد سبقته إلى ذلك مدرسة الرمزيين فى فرنسـا ، وقد كان إمامها ستيفان مالارميه يقول : « إن الشاعر يستسلم لسلطان اللفظ » ، وكذلك كان ريمبو يقول : « لقد رضت نفسى على الهذيان الخفيف . ثم ذهبت أعبر عن هـذا الهذيان السحرى بهذيان لفظى . . . وانتهى بى الأمر إلى تقديس خيالى المخبول . » اما جويس فقـد التقى مرة بستيفان زڤايج فى زيوريخ فأنـكر أمامه كل صلة له بانجلترا وأصر على أنه إيرلندى صميم ، فهو يكتب بالإنجليزية حقاً ، ولـكنه فى الواقع لا يفكر بها ولا يريد أن يفكر بها ، قائلا : « أتمنى أن تكون لى لغة أعلى من جميع اللغات ، لغة يضيف إليهـا كل شعب من عنـده شيئاً ، فما من مرة فكرت فيها بالإنجليزية إلا وجدت نفسى حبيساً فى تقاليد الإنجليز » . وهذا وصف ما جرى فى غرفة النوم حين عاد بلوم يوليس إلى ماريون بنلوب أخيراً بعد تجواله ، وذهب يقص عليها ما صادفه فى غيبته من أمور . والسرد يبدأ بلغة الملاحين ، وينتهى بفقرة من «أوديسـا» هوميروس :

« فى أى اتجاه كانت السامعة ترقد ، والسارد فى أى اتجاه كان يرقد ؟

« السامعة : الجنوب الشرقى مائلة نحو الشرق . السارد : فى الشمال الغربى مائلا نحو الغرب : على خط عرض ٥٣ شمالا ، وعلى خط طول ٦ غرباً بزاوية قدرها ٤٥ درجة بالنسبة إلى خط الاستواء الأرضى .

« أكانا ثابتين أم كانا يتحركان ؟

« كانا ثابتين كل بالنسبة إلى الآخر ، وكانا يتحركان معاً نحو الغرب وإلى الأمام وإلى الخلف على التعاقب تبعاً لحركة الأرض الدائمة فى مسالك تتغير أبداً فى فضاء لا يتغير أبداً .

« وكيف كان وضعهما ؟

« السامعة : ترتاح فى خط أفقى تقريباً على جانبها الأيسر ، يدها اليسرى تحت رأسها، وساقها اليمنى تمتد فى خط مستقيم وترتكز على ساقها اليسرى ، وهى محنية على طريقة جيا ـ تلوس ، أمنا الأرض ، مسترخية بعد أن أخصبت .

« السارد : يرقد على جانبه الأيسر ، ساقاه محنيتان وسبابة يده اليمنى وإبهامها ترتاحان على وسط أنفه على طريقة ترى فى صورة فوتوغرافية صورها پرسى أيجون للرجل الطفل وهو متعب ، للطفل الكامل النمو داخل الرحم .

« الرحم ؟ وماذا أتعبه ؟

« إنه متعب بعد طول السفر .

« مع رفاقه . ومن رفاقه ؟

« السندباد البحرى . السندباد البحار والصندباد الصياد والخندباد الخياط والنندباد النجار والحندباد الحداد والفندباد الفلاح والبندباد البناء والهندباد الهجاء والرندباد الرقاص والكندباد الكشاف والدندباد الدساس والطندباد الطحان والزندباد الزمار والسجندباد السجان والغنغباد الفثغاث .

« متى كان ذلك ؟

« حين مضى إلى الفراش المظلم فوجد مربعاً حول بيضة الفرخ ، فرخ الرخ ، رخ السندباد البحرى فى ليلة الفراش ، فراش كل فرخ ، فرخ كل رخ ، رخ مظلمباد النوار .

« وأين كان ذلك ؟

« وكانت هذه آخر كلمة فى قصته ، فقد عالجه النوم الجميل الذى تسترخى به أطراف الرجال ، وأبرأ النوم روحه من همومها » . .

وهذا الأسلوب يفسر قول العالم السيكولوجى الكبير يونج : إن «يوليس» قصة لا بداية لها ولا نهاية ، وإن فى الإمكان قراءتها من أولها إلى آخرها وقراءتها من آخرها إلى أولها . ولكن جويس وأنصاره لا يرون هذا الرأى ، وإنما يرون «يوليس» عملا فنيًّا محكما يقوم على تصميم دقيق . وفى هذا يقول جويس لماكس أيسمان : «إن ما أتطلبه من قارئى هو أن يخصص كل حياته لقراءة أعمالى .»

وسواء اتفقنا على أن جيمس جويس إمام من أئمة القصة أم لم نتفق ، فلا جدال فى أنه ظاهرة اجتماعية لا يمكن تجاهلها ؛ فأدبه ينتمى فى صلبه إلى النصف الأول من القرن العشرين دون سواه ، وهو يدل على الطور الحضارى الذى تمر فيه أوربا الآن أصدق دلالة .

ولكن جويس من ناحية أخرى إيرلندى وكاثوليكى ، فالصراع الذى نجده فى أدبه صراع بين القديم والجديد فى بلد محلىّ الثقافة متأخر الاقتصاديات . وثورته على الكاثوليكية ثورة على ثقافة إقطاعية ، وثورته على إيرلندا ثورة الفنان العالمى الذى تمددت نفسه فتجاوزت تخوم الأقاليم . فبعض المشاكل التى اضطربت لها نفس جويس كل هذا الاضطراب لا تمت إلى التطور العالمى فى جيلنا هذا ، وإنما هى مشاكل ثانوية محلية فرغت الإنسانية الكبرى من حلها أيام حركة الرنيسانس . وثورة جويس من هذه الناحية ثورة فاوستية ، كما يقولون. والثورة الفاوستية فى جوهرها هى ثورة القوة الفردية الكامنة التى ترق إلى النمو الفكرى والاجتماعى ، على القوة الخارجية المكبلة التى ترق إلى الاستقرار الفكرى والاجتماعى ، وهذه ثورة البورجوازية الأوربيـة على الإقطاعية الأوربية ، وهى ثورة تمت منذ قرون ، وظهورها فى أدب الإيرلنديين المعاصرين لا دلالة له إلا أن إيرلندا متخلفة فى ركب المدنية . ولقد يثور الفرد المتحضر الآن فى صباه على الأفكار والقوانين الاجتماعية القائمة ، ولكن تلك الثورة لا تترك فى نفسه كل هذه الرواسب والعُقَد النفسية التى لازمت جويس مدى الحياة ، بل تنجلى عن تحرر تام يتبعه الاهتداء إلى مجموعة من القيم الإيجابية الجديدة . وكثرة هذه الرواسب والعُقد فى نفس جويس إن دلت على شىء فهو أن الصراع بين الداخل والخارج فيه كان صراعاً مخيفاً متلفاً . وهذا الصراع

المخيف المتلاف إن دلّ على شيء، فهو أن البيئة الإيرلندية بيئة متحجرة تنوء على الفرد بكلكلها فتحطم شخصيته تحطيماً .

ولكن جويس فى صميمه يعبر عن الطور الحضارى الذى تمر فيه الإنسانية فى جيلنا هذا . فأدبه أدب فردى ذاتى انطوائى مسرف فى الفردية والذاتية والانطوائية . وهو لا يصور ما يحدث فى المجتمع من حوادث ، بل يصور ما يتولد فى نفس الفرد من أفكار . والخواطر الشخصية مهما بلغت تفاهتها أقدس عند جويس من الأفعال مهما بلغت خطورتها . فموضوع « يوليس » هو ذهن الإنسان بعد عزله عن المجتمع ، لا سلوك الانسان فى صلاته بالمجتمع . والمشاكل التى تشغل أبطال « يوليس » مشاكل شخصية لها أهميتها حقا ولكن ليس لها ما يقابلها فى الحياة العامة . وهى على خطورتها بالنسبة إلى أصحابها لا تتصل بمشاكل الرجل العادى فى حياته العادية أو فى تفكيره العادى . فهى مشاكل خاصة لنماذج بشرية خاصة ، مشاكل لايشترك فيها إلا الأقلون . وانعدام حساسية جويس الاجتماعية أمر يلفت النظر ؛ فليس فى أدبه أى صدى للحرب العالمية الأولى ، وهو الذى عاش فى أتونها فلم تكتو روحه بشررها ، وهو الذى عاش بين قصف المدافع أصم لا يسمع الزئير ، بل ذهب يكتب، وكأنه يعيش على كوكب آخر ،عن مدير الإعلانات ومتاعبه الزوجية ، وعن زوجته المستهترة وعهارتها وعن ولدهما المتبنى، وهو حالة مَرَضية أولى بها الأطباء النفسيون. وليس معنى هذا أن فردية جويس تغض من قيمته الفنية ؛ فهو فنان ضخم قل نظراؤه بين القدماء والمحدثين . وأقل ما يقال فى تقديره أنه الفنان بمعنى الكلمة ، الفنان الذى أخلص لفنه، فابتعد به عن الايديولوجيات وزعازعها، والفلسفات الاجتماعية ودواماتها ، فلم يمزج أدبه بوجهة نظر ، ولم يدس السم فى أعماله للجيل الجديد كما فعل عبقرى رجعى مثل ت . س . إليوت أو مشعوذ قدير مثل أولدس هكسلى ، أو محموم هائج مثل د . ه . لورانس . وإنما أخلص جويس لفنه وحده ، وهذا يجعله أهون الفرديين خطراً وأقلهم جناية على روح الإنسان . فاذا لم تكن للفنان رسالة بنائية فى الحياة ، نخير له وللناس أن يعفى المجتمع من الهدم . وصفحات « يوليس » مجرد سسموجراف يسجل الاضطرابات المرضية التى تعانيها البورجوازية الأوربية فى فترة اضمحلالها ، ويصور حطام مؤسساتها بعد أول زلزال .

وأدب چويس مظهر آخر من مظاهر الثورة على العقل التى شاعت فى ثقافة أوربا منذ نهاية القرن الماضى . وهو كذلك ؛ لأن فيه انسحاباً من الوعى إلى اللاوعى ، وهو انسحاب لا تلجأ إليه إلا النفس المهزومة . والإحساس بالهزيمة ظاهرة من الظواهر المألوفة بين فلول المفكرين والفنانين الفرديين . وما منشؤه إلا الشعور بأن عصر الفرد قد انتهى إلى غير رجعة ، وبأن القيم الاجتماعية الجديدة لا سبيل إلى قهرها . ومن لم يرض بحاضره عاش فى ماضيه ، ومن لم يرض بما يجرى حوله انطوى على نفسه . ومن لم يرض بواقعه دخل فى قوقعة اللاوعى واعتصم بها خوفاً وإشفاقاً . مفكرو البورچوازية وفنانوها اليوم واثقون من أن الأرض تسوخ تحت أقدامهم . ولقد فقدوا صفة الكفاح التى كانت لأسلافهم من المفكرين الفرديين والفنانين الفرديين ، فانفصلوا عن تيار الحياة وانزوى كل فى برجه العاجى ينعى حطام حضارته التى تنهار ، أو يكتفى بتصويره . وچيمس چويس بهذا المقياس نهاية حضارة تبيد ، لا بداية حضارة تنمو . ولعل خير ما قيل فيه هو حكم الكاتب الروسى ميرسكى عليه بأنه قد شيد لنا هرماً شامخاً جميلا حقاً ، ولكن العالم الجديد ليس بحاجة إلى أهرام ، بل إلى خزانات كخزان الدنيبر.

لويس عوض

كتاب اليتيمة

لابن المقفع

لا أقصد فى هذا الفصل أن أتحدث عن ذلك الكتاب الذى نشره الأمير شكيب أرسلان، فى أواخر القرن التاسع عشر، باسم الدرة اليتيمة، تبعا للمخطوطة التى نشرة عنها، ثم نشره الاستاذ كرد على، بهذا الاسم أيضا، فى مجموعة رسائل البلغاء؛ فليس هناك شك فى أن الاسم الصحيح لهذا الكتاب هو الأدب الكبير أو الآداب، كما كان ابن قتيبة يسميه فيما ينقل منه فى كتابه «عيون الأخبار»

وإنما أعنى كتاب اليتيمة الذى كان يطلق عليه هذا الاسم فى العصر الذى وضع فيه، والذى تعرّض لما تعرض له معظم كتب ابن المقفع من طغيان العصور وآفات الزمن، فضاع فيما ضاع من ذلك التراث الأدبى، ثم انفرد من دونها بكثير من الغموض والابهام؛ إذ اختلفت فيه كلمة العلماء، واضطربوا فى صفته، وبيان موضوعه ووجهته. وفى هذا ما يضاعف شقة الباحث الذى يلتمس تبيّن صورة له، ورسم شىء من خطوطه وملامحه، ووضعه فى مكانه بين آثار ابن المقفع الأخرى، وتعرُّف الصلات التى تربطه بالتيارات السياسية والأدبية والعقلية فىعصره، ولا سيما إذا علمنا أنه كان من أجلّ كتب ابن المقفع خطرا وأكبرها منزلة، وقد أتيح له من الشهرة وذيوع الصيت ما جعله حديث الأدباء، ومضرب المثل فى البراعة وجودة الأداء، كالذى نراه فى ذكر أبى تمام له فى إحدى مدائحه للحسن بن وهب، إذ يقول :

ولقد رأيتك والكلام لآلئٌ — تؤمٌ، فبكر فى النظام وثيّب
فكأن قسّا فى عكاظٍ يخطبُ — وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكُثَيِّر عزّة يوم بينٍ ينسب — وابن المقفع فى اليتيمة يسهب

وكما نراه فى صفة أبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور له ، إذ يقول : « ومن الرسائل المفردات اللواتى لا نظير لها ولا أشباه ، وهى أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ؛ لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، الرسالة التى لابن المقفع ، وهى اليتيمة ؛ فإن الناس جميعا مجمعون على أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شىء قبلها » . وكذلك يجعله ابن النديم أحد كتب خمسة ، يقول إنها الكتب المجمع على جودتها .

وقد استطارت هذه الشهرة إلى القرن الحادى عشر للهجرة ، فنرى حاجى خليفة يصفه فى « كشف الظنون » بأنه كتاب لم يصنف فى فنه مثله . وسواء أكان حاجى خليفة يتحدث بهذا عن «اليتيمة» التى نعنيها والتى يذكرها طيفور ، أم يتحدث عن كتاب آخر من الكتب التى نحلت هذا الاسم ، ونسبت إلى ابن المقفع ، كما نرجح ، فأكبر الظن أنه بعبارته هذه يردد صدى تلك الشهرة التى استفاضت بين الناس .

وقد كان جديراً بهذا الذى أتيح لكتاب «اليتيمة» من ذيوع الصيت وارتفاع المنزلة وما يتبعهما من الحرص عليه ، أن يقيه عوادى الأيام . ولكننا نحسب أن هذا نفسه كان من أول الأسباب التى جنت على هذا الكتاب وعرضته للضياع ؛ إذ كان هو الذى زين للوراقين أن يستغلوا هذا الاسم الذائع الرفيع : « اليتيمة » فيطلقوه على غير مسماه من كتب ابن المقفع . بل لعلهم لم يكتفوا بذلك ، فذهبوا يطلقونه على ما شاءوا من الكتب التى يرجون لها الرواج . وأكبر الظن عندنا أن الكتابين اللذين يذكرهما حاجى خليفة فى سياق كلامه عنه : « عظة الألباب » و « التميمة » ويذكر أنهما مختصران له ، ويصف أحدهما بأنه « مشتمل على الحقائق والمعانى وأخبار السادة الصالحين » إنما جاءا من هذه السبيل ، وأنهما لا يمتان ليتيمة ابن المقفع بسبب .

وبهذا الذى صنعه الوراقون ، وهو أمر معروف فيهم ، إلى جانب ما سنشير إليه بعد قليل ، اختلط الأمر فى كتاب اليتيمة ، وتنكرت معالمه ، فلم يكن شىء أيسر بعد ذلك من أن تذهب «اليتيمة» الحقيقية فى غمرة الأيام والأحداث .

ويكفى أن نعلم أنه فى القرن الرابع وحده كانت «اليتيمة» تطلق على كتب ثلاثة مختلفة ؛ فابن النديم يصفها فى الفصل الذى كتبه عن ابن المقفع بأنها « فى الرسائل » . ويفهم من هذا الوصف ، ومن جعله الكلام عن ابن المقفع فى الباب الذى جعل

عنوانه : «تسمية الكتّاب المترسلين ممن لرسائله كتاب مجموع» أن اليتيمة هو الاسم الذى أطلق على مجموع رسائل ابن المقفع . ويذهب القاضى أبو بكر الباقلانى (من علماء ذلك القرن) إلى أن «اليتيمة» أو «الدرة اليتيمة» تطلق على كتابين : أحدهما فى الحكَم والآخر فى الإلهيات ؛ وذلك حيث يقول فى كتابه : «إعجاز القرآن» فى الفصل الذى عقده للكلام « فى الدلالة على أن القرآن معجز » :

« وقد ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى «الدرة اليتيمة» وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شىء بديع من لفظ أو معنى . والآخر فى شىء من الديانات وقد تهوّس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذى بيناه فى الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة . »

وإلى هنا نرى أن كتاب « اليتيمة » يوصف مرة بانه فى الرسائل ، على لسان ابن النديم ، وأخرى بأنه فى الحكم ، وثالثة بأنه فى الإلهيات ، على لسان أبى بكر الباقلانى .

وفى ذلك النص الذى أوردناه للقاضى أبى بكر ما لعله يشير إلى بعض الأسباب والملابسات التى كانت تدفع إلى الخلط ، إلى جانب ما ذكرنا ، وهى ترجع إلى نشاط « الزنادقة والملاحدة » فى توهين أمر الإسلام بالطعن على القرآن وإنكار إعجازه . وهو نشاط بلغ غاية بعيدة فى القرن الثالث والرابع ، فكان من سبيلهم إلى هذا أن يتلمسوا الآثار الأدبية التى يصح عندهم أن يقال إنها فى معارضة القرآن . فلعلهم وجدوا فى الكتابين اللذين ذكرهما الباقلانى ما يسد هذا الموضع ويغنى ذلك الغناء . وإن كان كتاب « اليتيمة » أولى باسمه وبذيوع صيته منهما فى ذلك ، فلم يكن لهم بد ، تماما على ما يقصدون إليه ، من أن ينزعوا عنهما اسميهما ويخلعوا عليهما ذلك الاسم ؛ إذ كان أليق بغرضهم وأكثر اتساقا مع الدعوى التى يدعونها . فهذا — فيما نحسب — سبب من أسباب الخلط فى شأن ذلك الكتاب ، على النحو الذى نراه فى القرن الرابع .

فإذا كان القرن الخامس وجدنا وصفاً رابعاً له عند أبى القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى ، فى كتابه « طبقات الأمم »؛ فقد عرض لهذا الكتاب فى جملة عرضه لكتب ابن المقفع ، فقال : « ... وله تآليف حسان ، منها رسالة فى الآداب

والسياسة ، ومنها رسالته المعروفة باليتيمة فى طاعة السلطان ». وقد جاءت هذه العبارة بنصها أيضاً فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (من علماء القرن السابع) . وإذن فكتاب اليتيمة عند صاعد الأندلسى ثم عند ابن أبى أصيبعة الدمشقى ليس بمجموع رسائل ، ولا هو كتاب فى الحكم أو فى الإلهيات ، وإنما هو كتاب آخر يعالج موضوعا معينا أدنى إلى أن يكون من موضوعات السياسة ، هو « طاعة السلطان » .

وهكذا نرى إلى أى حد تضطرب الأوصاف المتعلقة بهذا الكتاب ، حتى يكاد يضيع الحق بينهما .

وبعد فما عسى أن تكون الوسيلة فى مثل هذه الحالة إلى تحقيق هذه القضية والفصل فيها ، أو على الأقل ترجيح أحد هذه الأوصاف على سائرها ، إلا أن تكون محاولة الكشف عن بعض النصوص من هذا الكتاب ومقارنتها ؟

ونحن نملك حتى الآن — قدر ما أتيح لى معرفته — قِطَعاً ثلاثاً منسوبة إلى كتاب «اليتيمة» ، ترجع اثنتان منها إلى القرن الثالث فى المشرق ، وترجع الثالثة إلى القرن الخامس فى الاندلس . ونستطيع أن نطمئن إلى أن القطعتين الأوليين — على الأقل — صحيحتا النسبة إلى «يتيمة» ابن المقفع قبل أن تعبث بها أيدى المزورين من الوراقين وغيرهم ؛ فأولاهما جاءت فى كتاب المنظوم والمنثور لطيفور ، والثانية فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة . وكلا الرجلين عالم أديب صحيح البصر فيما يَروى ، إلى جانب قربه — شيئاً ما — من عهد المؤلف . وسنرى أن القطعتين تتواردان على موضوع واحد ، مما يقوى رأينا فى الاطمئنان اليهما ، وصحة الاستشهاد بهما . كما سنرى بعد أيضا أن القطعة الثالثة — وقد جاءت فى كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى — بعيدة عن التهمة ومظنة الشبهة . ولعلنا نستطيع بهذه القطع ، إلى جانب الفصل فى قضية اليتيمة ، أن نتمثل شيئا ما ، صورة من هذا الكتاب .

أما القطعة التى أوردها طيفور فقد نص فى التقدمة لها على أنها من صدر كتاب «اليتيمة» ؛ فلنا بذلك أن نعتبرها نوعا من المقدمة له ، يشرح فيها غرضه ، ويبين فيها طرفا من الدوافع والملابسات التى حفزته إلى كتابته . وكذلك نجد الأمر فى هذه القطعة ، فلا نخطىء فيها هذين الجانبين ، كما لا نخطىء فيها أسلوب

ابن المقفع بأخص خصائصه . ويستطيع القارئ أن يرجع إليها فى مجموعة « رسائل البلغاء » .

وأول ما يلاحظ فى هذه «المقدمة» أنها قد بنيت بناء محكم الترتيب ؛ فأولها فى أخلاق الناس أو « الرعية » فى ذلك العهد ، ووسطها فى الكلام عن علاقة ما بين الراعى والرعية ، وآخرها فى الكلام عن راعى الناس فى ذلك الوقت ، أو الإمام . فهو قد جمع فيها أطراف النظام السياسى ، وتكلم عن كل طرف على النحو الذى يسوق الكتاب له .

فأما كلامه عن « الرعية » فهو وصف بليغ — وينبغى أن يكون صحيحا دقيقا أيضا — لأخلاق الناس وسلوكهم فى هذه الفترة المضطربة ، فى أول عهد الدولة العباسية . بل لعله من خير ما يوصف به الناس — بوجه عام — فى مثل هذه الفترة من فترات الانقلاب السياسى ، حين تتزايل الأخلاق ، ويشيع فى الناس الشك والقلق وسوء الظن ، وتزول من بينهم الطمأنينة ، ويكثر فيهم الإنكار والتوثب والجموح ، ويعيث فيهم الفساد فى جميع نواحيهم : « فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف ، ومستشيرهم غير موطّن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ومصطبر للحق مما يسمع ، ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وأن يكون مهتاكا للستر ، مشيعا للفاحشة ، مؤثرا للهوى . والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة ، والصادق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة . يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدول ، ويعيبون بالهمز . يكاد أحزمهم رأيا يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط ، ويكاد أمتنهم عودا أن تسحره الكلمة ، وتسكره اللحظة . » إلى آخر هذا الوصف الذى يعتبر وثيقة من أحسن الوثائق التى تصور لنا حالة الشعب النفسية فى تلك الفترة .

وأما كلامه عن علاقة ما بين الراعى والرعية وصور هذه العلاقة ، فقد بناه على نوع من التقسيم المنطقى ، مداره هذان الطرفان مضروبين فى حالتى الصلاح والفساد ، على نحو يذكرنا بما هو شائع فى كثير من كتب المتأخرين ؛ فتكون الحالات أربعا مرتبة هذا الترتيب : نخيرها ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فيؤدى الراعى إلى الرعية حقهم فى الرد عنهم وتدبير شؤونهم ، وتؤدى الرعية

إلى الراعى حقه فى المودة والمناصحة والطاعة . ثم تلى هذه الحالة أن يصلح الإمام وتفسد الرعية . ثم عكس هـذا : أن تصلح الرعية ويفسد الراعى . ثم شرها جميعاً وهو ما اجتمع فيه فساد الراعى والرعية .

والذى يعنى ابن المقفع من هـذه الحالات الأربع هو الحالة الثانية . فأما النـاس أو الرعية فهم هؤلاء الذين تحدث عنهم ووصف الفساد الشائع فيهم فى أول هذا الفصل . وأما الإمام فقد خصه بالقسم الأخير منه ، وقد جعل يردد الـكلام فيه بين ناحيتين : سيرته التى يسير بها فى رعيته ، ومعدنه الذى يرجع إليه ويمتّ به . فيقول فى الأولى مثلا : « . . . قد رأينا حظه من الله عز وجل فى التثبت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيده خيراً ، ويزيد به رعيته مذ ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبينات » . ثم ينتقل من هـذا إلى أسلوب من الرجاء ، ليكون له بذلك أسلوب آخر فى الإقناع ، فيقول : « ونحتسب من الله عز وجل ألا يزال إمامنا يسـارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ويفتح له أسماعهم وأبصارهم ، فيجمع ألفتهم ، ويقوِّم أوَدَهم ، ويلزمهم مراشد أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين بأن يصلحوا له وعلى يديه ، فيكونوا رعيـة خير راع ، ويكون راعى خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة » . وأما الناحية الثانية ، وهى معدن الإمام « فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسـبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبى الرحمة ، وإمام الهـدى ، ووارث الـكتاب والنبوة والمهيمن عليهما ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره ، ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الـكفر ، وخوّله الشفاعة ، وجعله فى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم . »

فهذا تحليل الفصل الذى اعتبرناه « مقدمة اليتيمة » حاولنـا فيه أن نبرز خطوطـه الرئيسية وقسـماته البارزة . ومنه يتبين لنـا مبلغ ما فى ذلك الرأى السائد عن « اليتيمة » — وهو الرأى المستوحى من الباقلانى — من مجانبة للصواب ، وأن ذلك الوصف الذى وصفه صاعد الأندلسى به ، وهو « طاعة السلطان » ، وهو الوصف الذى لم يكد أحد يلتفت إليه، هو الحق الذى لا ريب

فيه . كما تتبين لنا منه أيضاً بعض الدوافع التي حفزت ابن المقفع لكتابته ، وهي تلك الفتن والثورات التي غمرت العالم الإسلامي في تلك الفترة ، والتي كانت تتربص بالدولة وتتوثب عليها ، ولا سيما في مدينة البصرة حيث كان يقيم ، فكتب كتابه هذا — وهو يشعر بالخطر الذي يتهدد هذه الدولة الصديقة — مدافعا منافحا محتجا عنها خاصة وعن السلطان عامة ، يدعو الناس إلى الهدوء ، ويرغبهم في الطاعة ، ويبصِّرهم مغبة المعصية ، ويسلك في هذا الإقناع السبل المختلفة ، بين اللين والشدة ، وبين مخاطبة العقل واستثارة العاطفة الدينية ، إلى غير ذلك مما نرى نحوا منه في قطعة طيفور هذه ، ونحوا آخر في القطعة الثانية ، وهي قطعة ابن قتيبة [1] .

وهذه القطعة مبنية على افتراض يدعو إليه الإقناع ، وهو أن في السلطان شراً إلى جانب ما فيه من خير . ولعل هذا الافتراض كان من بعض نواحيه أثراً من آثار الدعوة التي كانت طائفة من الخوارج يبثونها ، منكرين وجوب الإمامة ذاهبين في تأكيد رأيهم وتأييد دعوتهم المذاهب المختلفة ، من بيان الشرور التي صحبت الإمامة وما زالت تصحبها ؛ فكان لا بد لابن المقفع من أن يتأتى للرد على هذا في ترفق وكياسة ، مستعينا ببلاغته وثنويته جميعا ، فكتب هذا الفصل الذي نقله ابن قتيبة في أول كتاب السلطان ، وأخذ يضرب فيه الأمثال لقليل مضار السلطان في جنب منافعه ، بامتزاج الخير والشر في جميع ما أفاء الله على أهل هذه الدنيا . فالسلطان عنده نعمة من نعم الله التي أتاحها لعباده ، وقدَّرها لخيرهم كالغيث والرياح والصيف والشتاء والليل والنهار . وما قد يصحب السلطان من أذى وضر فإنما هو بقدر ما لابد منه في سنن الكون ونواميس الخليقة ، على نحو ما في «الغيث الذي هو سقيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ، وقد يتأذى به السفْر ، ويتداعى له البنيان ، وتكون فيه الصواعق . وتدر سيوله فيهلك الناس والدواب ، وتموج له البحار ، فتشتد البلية منه على أهله .

---

(١) لا ريب عندنا في أن هذه القطعة صحيحة النسبة إلى يتيمة ابن المقفع ، وإن كان ابن قتيبة قد أغفل في إسنادها النص عليه ؛ إذ اكتفى في ذلك بقوله : « وقرأت في اليتيمة » إذ كان صاحبها في ذلك الوقت متعيناً كما يظهر . ذلك أن الثعالبي يورد في كتابه « ثمار القلوب » فقرات من هذه القطعة ، مع النص على أنها من يتيمة ابن المقفع . وهذا دليل مادى يضاف إلى ما يشهد به أسلوبها وموضوعها .

فلا يمنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله فى الأرض التى أحيا، والنبات الذى أخرج، والرزق الذى بسط، والرحمة التى نشر، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها، ويبلغوا ذكر خواص البلايا التى دخلت على خواص الخلق » إلى غير ذلك من الأمثال التى يشرحها فى براعة وجمل. وإذا كانت هذه سنة الله فى خلقه، فليس فى هذا الأذى الذى قد يحسه الناس فى السلطان ما يدعو إلى الشك فى أنه نعمة من نعم الدنيا، أو يدعو إلى الخروج عليه أو التحلل من طاعته.

وأما القطعة الثالثة فقد أوردها ابن عبد البر فى سياق الأقوال المختلفة فى كراهية الرأى ووجوب الرجوع فى أحكام الدين إلى السنة والأخذ بالآثار الصحيحة، وكان ذلك مذهب عامة أهل البصرة، ووجها من أوجه الخلاف بينهم وبين الكوفيين. وقد يبدو أول الرأى أن هذه القطعة بعيدة عن موضوع اليتيمة الذى رأينا، وملابساتها التى لاحظنا، وذلك إذ يقول فيها:

« ولعمرى إن لقولهم ليس الدين خصومة أصلا يثبته. وصدقوا، ما الدين بخصومة. ولو كان خصومة لكان موكولا إلى الناس يثبتونه بآرائهم وظنهم. وكل موكول إلى الناس رهينة ضياع. وما ينقم على أهل البدع إلا أنهم اتخذوا الدين رأيا؛ وليس الرأى ثقة ولا حتما، ولم يجاوز الرأى منزلة الشك والظن إلا قريبا، ولم يبلغ أن يكون يقينا ولا ثبتا. ولستم سامعين أحدا يقول لأمر قد استيقنه وعلمه: أرى أنه كذا وكذا. فلا أجد أحدا أشد استخفافا بدينه ممن اتخذ رأيه ورأى الرجال دينا مفروضا. »

ولكن هذا لا يكفى فى حملنا على الشك فى نسبة هذه القطعة إلى اليتيمة التى يذكرها صاعد، معاصر ابن عبد البر ومواطنه؛ إذ ينبغى أن نلاحظ أولاً أنها مقتضبة من سياقها فى الكتاب، وأنها لا يبعد أن تكون استطرادا. ومع ذلك فإنا نزعم أن الصلة بينها وبين « طاعة السلطان » ماثلة، فإن دعاة الثورة وشق عصا الطاعة إنما يعتمدون فى دعوتهم على آراء فى الدين يرونها. فهذه القطعة — فيما أحسب — مقتلذة من فصل كتبه فى تهجين ذلك المذهب الذى يذهبون إليه. ومهارته تظهر فى اصطناع قول البصريين فيما يرمى إليه من الدعوة إلى الطاعة، والبصريون هم فى ذلك الوقت أشد الناس مجافاة للدولة ومحادة لها وإنكارا عليها. ولكن ابن المقفع يخالف البصريين فى شىء خطير، وهو

أنه انما يسلب الناس حق الرأى لا إنكاراً للرأى فى ذاته ، ولكن ليهب ذلك الحق للدولة . فعنده أن للإمام وحده حق الحكم بالرأى فيما لم يكن فيه أثر .

وبعد ، فهذه صور من كتاب «اليتيمة» نرجو أن يكون فيها بعض البيان عنه ، وإزاحة لما تغشاه من غموض وابهام . على أنا نستطيع بجانب ذلك أن نتمثل نواحى أخرى منه ، إذا نحن نظرنا فى رسالة الصحابة له . فقد عرض فى خلالها لهذا الموضوع الذى بنى عليه كتابه هذا ، وهو طاعة السلطان ، فأورد الآراء التى كان الناس من الفقهاء ومن إليهم يقولون بها فى هذا الصدد ، كقول بعضهم : إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا بطاعة الله فهو أهل أن يطاع . وكقول الآخرين : بل نطيع الأئمة فى كل أمورنا ، ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيبا ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم . ثم وقف بين هذين المذهبين يناقش كلا منهما ، ويبين ما يترتب عليه من توهين السلطان وتهجين الطاعة ، حتى ينتهى الى الرأى الذى يراه فى هذه المسألة ، وهو الفصل بين طائفتين مختلفتين من أمور الدين : أولاهما الفرائض والحدود كالصلاة والصيام والحج وحد السرقة ، وهذه أمور لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، فلا طاعة للإمام لو أنه نهى عنها أو أراد تعطيلها . والأخرى شؤون الدولة وتدبيرها ، كالغزو والقفول ، والجمع والقسم ، والاستعمال والترك ، فهذا مما جعل الله أزمته بيد الإمام ، فمن عصاه فيها أو خذل له فقد أوتغ نفسه .

وأكبر الظن أن هذا الذى عرضه فى رسالة الصحابة كان من الموضوعات التى تناولها بالبيان والتحليل فى كتاب «اليتيمة» . فإذا صح هذا الفرض كان هذا الجزء من رسالته مما يزيدنا بهذا الكتاب معرفة ، ولا سيما إذا صح ما نفترضه أيضا ، وهو أن الظروف التى لابست رسالة الصحابة وأوحت كتابتها ، هى الظروف التى لابست كتاب «اليتيمة» ، ودفعت ابن المقفع إلى وضعه .

طه الحاجرى

العـــابد المثالى

« الفجر »

من وراء الظـلام أقبل يسرى — عابد فى ثيابه البيضـاء
وعلى وجهـه يرفُّ صفـاء — مستمَدٌّ من قلبه الوضَّـاء
أينما سار فالظـلام ضيـاء — عبقرىٌّ الأطياف واللألاء
جاء يسرى، والبدر فى الأفْق يسرى — كسُرى المستهام فى الظلمـاء
تارة يأمن العيون فيبدو — فإذا خاف جدَّ فى الاختفاء
ورياح المســاء تبعث نجوا — ها لروح الطبيعة العـــذراء
فتثير الحنين فى كل قلب — من قلوب العشاق والشـعراء
وأنا جالس على الربوة الخضـ — ـراء ، والروح سابح فى الفضاء
ساهر أنظم الحياة بروحى — فى قصيد يزهو بحسن الآداء
وأبث الوجود أشواق نفسى — لعهود قد أمعَنتْ فى التنائى
وأغنىٍّ ، وياله من غناء ! — ثم أبكى ، وياله من بكاء !
ظلَّ يسرى حتى أتى الغاب فانسا — ب إليه كالجـــدول المترائى
ومضى فى رحابه مستشِفـًّا — كل ما فيــه من بديع الرُّواء
وقفـــة عند أيكة تتجـــلى — عن غرام محبب وغنـــاء
عند غصـن يداعب النور عطفيـ — ـه ، فيغضى وينثنى فى حياء
وتريق الندى عليه النسيما — تُ فيهـــتز هزة الحسناء
عند زهر يلوح كالشفق الحـــا — لم بين الســحائب الشهباء

عند نهر كأنه الأمل البسّا (م) م يبدو فى ظلمه البأساء
نام فى روعة العروس تعرّت فبدا نور جسمها الوضّاء
وعلى الجدول الذى راح يصغى فى ذهول إلى حديث المساء
وقف العابد التقىّ يصلى للإله العظيم رب السماء
ويناجيه فى خشوع عميق كنبى فى ساعة الإيحاء
قال : يا خالق الوجود جميلا لقلوب إلى الجمال ظماء
إن هذا الجمال يغمر نفسى بضياء الهدى ، ونور الصفاء
إن هذا الجمال يسمو بروحى فى رجواء طليقة الأرجاء
فأرانى بها هزارا طليقا لا ينى طائرا صباحَ مساء
هزّ أشواقه نداء خفىّ فهفا هائما وراء النداء
عائدا للخفاء موطنه النا ئى ، وقد جاء من ضمير الخفاء
كسفين أضلّه البحر دهرا وهداه السُّرى إلى الميناء
وأرانى بها شعاعا طليقا يتسامى بالشوق نحو العلاء
هائما سابحا إلى الشاطئ الثا نى على موجة من الأضواء
إن هذا الجمال لحن عميق ساحر الجرس ، فاتن الأصداء
أنت أبدعته فكان نشيداً هز روحى وخافقى ودمائى
هو بين السهول همس ونجوى وهتاف فى القمة العلياء
كل مافى الوجود روح جميل رائع فى الظلام أو فى الضياء
ساحر فاتن خريفا وصيفا مشرق فى الربيع أو فى الشتاء
غير أن العيون لاتسبر الأع ماق . . . بل تستقر فوق الماء
وأنا أبصر الوجود بروحى فأرى كل ما به من بهاء
يا إلهى لأنت نبع حياتى وحياتى من أعظم الآلاء
فلك الشكر يا بديع البرايا ولك الحمد مبدعَ الأشياء
يا إله الوجود تلك صلاتى مِلْؤها نشوتى ، وهذا دعائى
فتقبَّلْهما مناجاةَ روح برئتْ من نوازع الأهواء
واعف عنى إذا تبيّنْت عجزى فأنا من عبادك الضعفاء
واغتفرلى أن لم أحط بك علما أنت فوق النهى ، وفوق الذكاء
ووداعا يا أيها الغاب حتى يأذن الله بيننا باللقاء

ومضى العـابد التقى من الغـا ب إلى أفقـه العميق النائى
واختـفى فى فضائه كشعاع أدركته غياهب الظلمـاء
فاستفاق الوجود من نشوة الحبِّ (م) وهبَّتْ عنـاصر البغضاء
واستسرَّ الهدوء فى الضجة الكبـ رى، وغاب السكونُ فى الضوضاء

ابراهيم محمد نجا

چان پول سارتر ومواقفه

الخيال والوجود

إن نظرة نلقيها على موضوعات الخيال تدلنا على أن هذه الموضوعات ليست قائمة فى عالم الواقع الذى تدركه الحواس ويحوى ما يحيط بنا من أجسام وحيوان وأناس مثلنا. بل إن عالم الخيال لا يشترك فى حياة «الأنا»، ولا يشترك تطوره، إن صح التكلم عن تطور، فى تغير «الأنا». ولعل أقوى دليل على «عدم» موضوعات الخيال كونها لا تبدو قائمة فى زمن ما: فلا يمكننا أن نلحظ موضوع خيال فى تغير زمنى متصل، بل غاية ما ندركه لحظاتٌ نتصور فيها الحوادث الخيالية، وهذه اللحظات الخيالية، حتى إن بدت متقاربة فهى مع ذلك متفرقة متميزة، لا يربط بينها إلا اتجاه الفكر للحوادث المتخيلة، وربطه المستمر بين أجزاء الحادث الخيالى، وأقل تفكير فى حلم من أحلامنا يؤيد ذلك تمام التأييد. وقد يعترض بأننا نشعر عند مطالعتنا لقصة من القصص بأن حوادثها تقوم فى الزمن، وأن منها ما يعطينا شعوراً بالزمن شديد القوة والحيوية. قد يتعذر الإجابة على الاعتراض إن لم نفكر فى أن القصصى لا يوحى إلينا بالزمن مباشرة بل يعمل على التأثير فينا، وعلى إثارة اهتمامنا بحوادث القصة، حتى ينتقل زمننا الشخصى إلى هذه الحوادث فيربط بينها، ويعطيها وحدة أو شبه وحدة. وليس من شك فى أننا عندما نطالع فصول قصة رائعة مثل إحدى قصص دوستويفسكى أو سارتر نفسه (فى الغثيان مثلا) نحس بكثافة زمنية للحوادث. وهذا الإحساس ذاته نتيجة اجتماع شعورين، شعور المؤلف بالزمن وشعور المطالع به. وتقوم فى هذا الزمن المزدوج حوادث لها قوة، إن لم تحاكِ فى حقيقتها قوةَ الحوادث الواقعية، فهى قد تفوقها من حيث تأثيرها فى العواطف. وما ذكرناه فى المقال السابق عن صلة الخيال بالعوامل العاطفية يؤيد ذلك.

والموضوعات الخيالية غير موجودة فى المكان أيضاً، أو أن مكانها غير المكان النسبى الذى تتعين فيه مواقع موضوعات الحس فى ثَبَاتها أو تغيراتها المتبادلة. مكان الموضوعات الخيالية مطلق، أقصد أن تعييناته المكانية خاصة به، جزء منه، لا تنفصل عنه، لهذا الموضوع مكانٌ كما لموضوعات العالم رائحة أو لون أو طعم. ومكانه مطلق بمعنى أدقّ؛ لأنه لا يتعين بالنسبة لموضوعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه، يتجه نحوها أو تتجه نحوه. فعندما أتخيل صديقاً لى أقرر أنه قصير أو طويل أو سمين، على الإطلاق، لا أقارنه بموضوع آخر أكبر أو أصغر، أسمن أو أنحف، كما لو كان الطول أو القصر أو غيره من الصفات المكانية منسوبة له كما يُنْسَبُ الأحمرُ للطربوش. وإذا كنت أتخيله سائراً فى الطريق، فهو لا يتقدم فى تصورى، ولا يتأخر بالنسبة لغيره من الناس أو الأجسام. وإن تخيلته فى غرفته فكأنه جزء منها، أو كأن غرفته جزء منه تلتصق به ولا تنفك عنه.

هذا معنى قول سارتر إن موضوعات الخيال خارجة عن الوجود، وأن لا زمن ولا مكان لها. ويرى سارتر بالإجمال أننا نلمس فى الموضوعات الخيالية شاهداً على أن ثمة عدما هو موضوع الشعور، وأن الحوادث الخيالية هى هذا العدم، أو مظهر واضح له، إن أمكن وجود مظهر لما لا وجود له. وليس الخيال إلا فعلا يسجل الاعتراف بهذا العدم.

هل تحوى النفس إذن فعلين متناقضين: الخيال والإدراك الحسى؟ وهل هناك موضوعات يكفى أن تتمثل للذهن حتى تختفى موضوعات الواقع؟ وكيف يصح هذا التناقض ولا يحدث عنه فى النفس خلل وفى العالم اضطراب شديد؟ ولكن ربما كان الخيال شيئاً غير أساسى فى النفس، وفعلا طارئاً عديم الأهمية إذا ووزن بالإدراك الحسى، وعرضاً فى جوهر النفس ليس له ما يؤثر فيها أو ما يخل بتوازنها. وربما كان الموضوع الخيالى أيضاً يعرض لنا دون أن يحدث بذلك فى العالم اضطراباً أو خللا، هو على هامش الوجود، تعرض له النفس وتقصده فى لحظات زائلة، عندما تكون النفس ذاتها على هامش وجودها الشخصى تلهو به وتلعب فى لحظات فراغها، كما تلهو الصبية وتلعب. أليس موضوع الخيال عدماً، أى لا شئ، أى ما ليس وراءه شيء — أى باطلا وعبثاً، يجب ألا نقف عنده، ولا نعيره أى التفات، وألا نخلق منه مشكلات؟

إذا كان الخيال على هامش النفس وكانت موضوعاته على هامش العالم، أعراضاً طارئة لا أهمية لها، فليس ثمة مايسوّغ قيام الخيال فى النفس، أقصد أننا لسنا فى حاجة إلى مبـادئ فلسفية تفسره . وليس صادراً عن جوهرها من حيث هى مدركة، وليست موضوعات الخيـال صادرة عن جوهر العالم من حيث إن العالم موجود، وإن النفس تدركه . ويصح إذن فى هـذه الحالة أن نهمله كفلاسفة وألا نَعتدّ به، كما لا نعتدُ من حيث نحن فلاسفة بأعراضِ النفس الغريبـة وأمراضِها . أما إذا كانت هناك شروط تسوّغ قيام الخيال وتفسر موضوعاته، إذا كان هناك ما يجعل الخيال وموضوعاته أشياء « ممكنة » على حد تعبير كَنْت، فيصبح ثمة مجال للسؤال كما فعلنا : كيف يمكن قيام الخيال وموضوعاته، دون أن يؤثر فى النفس، ويحدث فيها وفى العالم خللا أو اضطراباً ؟

نستدل من التفكير فيما بيناه من عوامل الخيال ومن طبيعة موضوعاته وكيفية مثولها للنفس، أن ثمة شروطاً فلسفية تفسره وتجعله «ممكناً» بين أفعال الشعور، وخاصة ماذكرناه من أن موضوع الخيال غير قائم فى الوجود . وهذا معناه على الأقل شيئان : (أولا) أن الخيال يحمل عامل إنـكار، بل إنه فى ذاته فعل سالب إن لم يكن حكماً سالباً بالمعنى الدقيق . فنحن عندما نتخيـل ننفى عن موضوع خيالنا خصائص الوجود كما تمثل لنا فى الإدراك الحسى . الخيـال إنكار إذن أو تصوّر مقترن بإنكار . (ثانياً) الخيـال يحررنا من شرائط الوجود العالمىّ، فهو إذن شرط لحرية النفس؛ إذ أننا عندما نفكر فى الخيال، فنحن نقطع ارتباطنا بالعالم الموجود، ومن ثمة لا نخضع لقوانينه . وفى الخيال نشعر بأن موضوعاته، حتى ماكان من بينها قابلا لإدراك حسى فعلى، تصدر عن النفس لا عن الخارج، ثم تختفى فى النفس بإرادتها .

نصل إذن إلى تفسير الخيال تفسيراً فلسفيـًا، وإلى وضع شروط « إمكانه » عندما نلاحظ أنه يقوم من ناحية على قدرة فى النفس على النفى، ومن ناحية أخرى على حرية النفس، وبتعبير آخر على قدرة النفس على إنكار العالم بجملته، وعلى التحرر من العالم بجملته . يتطلب الخيال إذن استطاعة النفس الابتعاد عن العالم، واتخاذ مركز تشعر النفس فيه بأنهـا فى معزل عن العالم، مركز يمكنها منه أن تنكر العالم بالنسبة إليها، وأن تنكر ذاتها بالنسبة إلى العالم . العالم فى هذا المركز

معدوم بالإضافة إليها ، وهى فى هذا المركز معدومة بالإضافة إلى العالم . وهذا معنى ما يقرره سارتر من أن الخيال فعل معدم ، للعالم والعدم يتطلب موضوعاً .

يبدو إذن أن التناقض بين الخيال وبين الإدراك الحسى أمر لا مفر من الاعتراف به . ولكن علينا أن نسأل مرة أخرى : كيف يصح الإقرار بهذا التناقض دون أن يحدث عنه فى النفس اضطراب وفقد توازن ؟ وكيف يصح قيام تناقض صريح بين فعلين ، مثل الإدراك الحسى والخيال ، يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما يفترض قيام الآخر ، وتحاكى موضوعاته موضوعات الآخر ؟ أظن أن الأمر يحتاج إلى مراجعة آرائنا عن الإدراك الحسى وعن الشروط التى يقوم عليها . الإدراك الحسى تقرير للواقع ، تقرير لموضوع فى العالم من حيث إن هذا الموضوع حاضر أمام الذهن حضوراً فعلياً . ولكن كى يحتفظ هذا التقرير بقيمته ، وكى يقوم إدراك حسى بالمعنى العام ، يجب أن نفترض ، بين فعل الإدراك وبين الموضوع المدرك ، تميزاً دقيقاً . وواضح أننا فى إدراكنا الحسى لشىء واقعى لسنا مختلطين بالشىء ، وأننا نميز ضمناً ، عن الشىء ذاتنا المدركة ، لا فى طبيعتها فحسب ، بل فى شرط وجودها أيضاً . ومعنى هذا أن الإدراك الحسى يتضمن إمكان قيام النفس بمعزل عن العالم الذى تدركه أو عن موضوع منه . ولكن ماهذا الشرط الضمنى للإدراك إلا ما ذكرناه بالذات عن الخيال ؟ يفترض كل من الخيال والإدراك عالماً واقعيا ، ويتخذ الإنسان لذاته فى كل منهما موقفاً إزاء العالم وموضوعاته ، ويُمَيِّزُ ذاته فى كل منهما عن هذا العالم .

لا يذهب إذن الاختلاف بينهما إلى حد يمنع اتفاقهما ومشابهة موضوعات أحدهما لموضوعات الآخر ، ولا إلى حد يحدث اضطراباً فى النفس وفقداً لتوازنها . وإذا كان الخيال يفترض العدم فى موضوعاته ، عدم العالم بالنسبة للنفس التى تتخيل ، فإلى حد ما يفترض الإدراك هذا أيضاً ، ولا يمكن كما ذكرنا ، إدراك العالم أو موضوع فيه إلا إذا كنا قادرين على اتخاذ حركة تراجع وانسحاب بالنسبة له ، وما معنى هذا التراجع إلا أننا فى الإدراك لانقرر على الإطلاق أننا والعالم شىء واحد ، بل إننا نعتبر العالم عدماً بالنسبة للنفس . وهذا بالضبط ما يقوله هيدجر إن : « العدم قائم فى جوهر الوجود » .

ولكن واضح أن النفس لا تقرر هذا العدم تقريراً صريحاً فى الإدراك الحسى كما تفعل فى الخيال . وواضح أن النفس عند اتحادها بالعالم فى الإدراك الحسى ،

عند اتخاذها ، على قول سارتر ، الموقف الواقعى ، تقترب من العالم أشد الاقتراب . فتراجعها عن العالم فى الإدراك بالقوة لا بالفعل ، وتجاوزها له ، بالقوة لا بالفعل . وواضح أخيراً أن الخيال انقلاب النفس من حالة القوة إلى حالة الفعل ، فتتخلى النفس عن مقتضيات العالم ، عندما تطغى هذه على النفس وتفقدها حريتها .

إذا كان الخيال يعنى مجهود النفس للتخلص من مقتضيات الوجود ، ولإعطاء الحرية أتم معانيها ، فالفن دون شك هو أقصى مراتب الخيال ، وهو أكثر أفعاله استقراراً وانتظاماً . للفن على الأقل ما للخيال من خصائص ، ولآيات الفن ما لموضوعات الخيال من المميزات . فالفنان لا يعمل كما يدعى البعض على تحقيق فكرة مثالية أو على إنزالها إلى ميدان الواقع ، وصبغها بألوانه ، بل يجهد الفنان ، ما استطاع ، أن يخرج ذاته ومصنوعاته من الواقع . انظر إلى هذه اللوحة لماتيس المصور الفرنسى المعاصر ، تجد اللون الأحمر فيها يكتسب قيمته الفنية بقربه من صوف سجادة ، ثم لاحظ كيف يتخذ اللون الأخضر الذى يغطى الحائط فيها لمانا جافيا جامداً ، وذلك بمجاورته للأحمر المذكور . والحقيقة أن ألوان اللوحة تكتسب معناها ومغزاها من موقعها فى كلٍّ غير موجود أمامنا ، فى كلٍّ قائم فى العدم . واللوحة التى أمامنا وألوانها وتركيب هذه الألوان فيما بينها تمضى بذهننا إلى كلٍّ فى العدم يوحى لنا المصور به ، ويريد منا أن نشاهده فى اللوحة .

أنت فى دار من دور الموسيقا تتوقع سماع السيمفونيا السابعة لبيتهوفن : قبل ما تبدأ الجوقة ، فأنت مثل غيرك من الناس تشعر بمرور الوقت شعوراً واقعيا يتفاوت حسب ملابسات خارجية أو حسب حالة نفسك ، ولكن ما تبدأ الجوقة بالعزف ، حتى تأخذك النغمة من الواقع ، وتنتقل بك إلى عالم آخر هو عالم السيمفونيا السابعة ذاتها وهذه السيمفونيا التى تنصت لها فى روعة وخشوع لا تبدأ بالمعنى الدقيق فى هذا الوقت أو ذاك ، ولا تمر أجزاؤها بلحظات الزمن الذى يقدره الناس بشعورهم أو بساعاتهم . وللسيمفونيا السابعة نهاية ؛ ولكن هذه النهاية لا تسبق لحظة أخرى هى التى ستجد نفسك فيها عندما تترك مع المستمعين دار الموسيقا ، بل لا تقوم هذه النهاية إلا بالنسبة لابتداء السيمفونيا ولأجزائها المختلفة ، ولا علاقة زمنية لها بزمنك أو زمن الآخرين .

تأمل فيما تشعر به عند خروجك من المسرح من الاشمئزاز . كنت فى عالم آخر تملّكَ نفسك حتى عجزت ، عند زواله ، عن اتخاذ ما يناسب العالم الواقعى من المواقف . هذه وأمثلة أخرى غيرها تؤيد فكرة سارتر فى أن الفن كجميع مظاهر الخيال يفترض انعدام العالم .

أخيراً يؤدى بنا التفكير فى الصلة الوثيقة بين الفن والجمال إلى القول بأن الجمال غير متحقق فى الوجود ، وأن العالم فى ذاته غير جميل ، وأننا لا نشعر بالجمال إلا بقدر ما نتراجع عن العالم ، وبقدر ما يدخل العالم بالنسبة لنا فى العدم . ويقول سارتر إننا لا نستطيع القول عن امرأة إنها جميلة إذا كنا نراها أو نلمسها ، بل جمال المرأة يصبح حقيقة لأيدٍ لا تلمس ، ولأعين لا تبصر .

هذا بإيجاز ما يراه سارتر فى الخيال وفى صلته بالإدراك والوجود ، وهذا ما يخلص له من النتائج فى الفن والجمال . ولسنا نرمى إلى التعرض لهذه النتائج بالفحص والتمحيص ، ولا إلى تخطئة سارتر فيما يدعيه من انفصال قِيَمَ الفن والجمال عن الحياة والواقع ، ولا إلى مناقشة موقفه من الوجود والعدم بالرغم مما لهذا الموقف من الخطر والأهمية . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى المسألة الرئيسية التى يعالجها فى كتاب « الخيالى » . ويبدو لنا أنه إذا لمسنا ضعف موقفه من الخيال وضعف منهجه فى معالجة الخيال ، لمحنا ولو عن بعد ، موقفه إزاء المشكلات الأخرى المتعلقة بالفن وبالفلسفة البحتة .

نلاحظ أولاً أن سارتر لم يميز بين نوعين من الخيال : واحد يسترجع ما أعطاه الحس مرة أو مرات ، ويقرب من الذاكرة إلا فى أنه غير مصحوب بتعرف ولا بتعيين . وآخر يصنع موضوعاته صنعاً ، ويؤلفها تأليفاً . لا يميز بين نوعين من الصور ، صور راجعة وصور جديدة . وإن كان كثير مما يذكره سارتر ينطبق على الخيال المخترع ، فلا شك فى أن أغلبه لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الخيال الآخر ، وهو صورة أو تصور طبق الأصل لما أعطاه لنا الإدراك الحسى . ولا شك أن سارتر بإهماله هذا التمييز يقنع القارئ الساذج بجدّة ما وصل إليه من النتائج ، وباتساع الميدان الذى عملت بحوثه على اكتشافه .

هناك ثانياً نواح فى وصف سارتر لا نرى بالضبط صلتها بفعل الخيال . فما يذكره خاصة عن الشبه القائم بين مظاهر الخيال ، وضروب السحر والشعوذة أو تصورات البدائيين شىء قد كان يجدر به عدم الاسترسال فيه . وأغلب الظن

عندنا أنه طرق هذه الأبواب . لأنها من ناحية تسمح له بإنشاء أدبي يقبل عليه الجمهور ويحبه ، ولأنها متصلة من ناحيــة أخرى ببعض نظريات رائجة فى هذه الأيام ، يفترض صحتها دون أن يعرض لها بالتفصيل ، ودون أن يناقش قيمتها على الإطـلاق .

يقول سارتر إن الخيال إنكار هو مظهر لحرية النفس ، وإن موضوعه العدم . ويدعى أن هذا التفسير قد أعانه فى حل المشكلة القائمة بصدد صلة الخيال بالإدراك الحسى . ولـكن لا يسعنا إلا أن نلاحظ هنا أن ما اعتبره سارتر شرطاً لازماً لفعل الخيال ، عاد فصرح بأنه لازم أيضاً للإدراك ، بل قبل ضمناً أنه شرط لازم لجميع أفعال الشعور أيا كانت : ففى كل فعل من أفعالهـا تنكر النفس أنها والعالم شىء واحد ، وفى كل فعل تقرر ضمناً أو صراحة حريتها . أى إن الشرط المذكور لا ينطبق على فعل الخيال فحسب ، بل هو عام مشترك بين جميع أفعال النفس . لا يميز سارتر إذن الخيــال عن غيره ، ولا يفرقه فى ذاته ، ولا يعيِّنه بالمعنى الدقيق ؛ فهو لا يفسره من حيث هو خيال .

وجمـلة القول : عمـل سارتر على إعطائنا وصفاً سيكولوجيًّا دقيقاً للخيال ، ووفق فى ذلك أتم التوفيق . ونجح سارتر فى معالجة المسائل المتصلة بالخيال بطريقة جـذّابة مشوقة ، وعبّر عن آرائه بأسلوب جميل رائع ، ونظم أفكاره تنظيماً لبقاً دقيقاً . ثم إنه حاول إيجاد تفسير فلسفى للخيال ولموضوعاته ، فلم يوفق فى ذلك ، ولم يحصل بالفعل على شىء دقيق . وربما أمكن ردّ عـدم توفيقه هذا إلى ما ينقص سارتر من مميـزات الفيلسوف الحقيقى ، أى الدقة فى التحليل والتمييز ، والقدرة على رؤية الأشياء كما هى فى ذاتها ، وعلى الفحص عن المسائل فى أعماقها ، والجهد المتصل لبلوغ الحقيقة المجردة مهما كان السبيل إليها وعراً عسيراً .

نجيب بلدى

مأساة بنى سراج

ألفى بعض كتاب الغرب المحدثين مستقى خصبا لأقلامهم وخيالهم فى بعض حوادث التاريخ الإسلامى التى تمتاز بروعتها ولونها المشجى، وهم يجدون فيها مجالهم بالأخص متى كانت تحتوى على عنصر نسوى او غرامى . فنجد مصرع البرامكة وقصة العباسة أخت الرشيد مثلا تقدّم مادة طيبة لكتّاب مثل لا هارب[1]، ونجد حوادث سقوط غرناطة ومصرع دولة الإسلام فى الأندلس تقدّم مادة غزيرة لطائفة كبيرة من الكتاب والشعراء الأسبان يصوغونها فى ألوان زاهية من الفروسية وفى أساليب شعرية وغنائية مشجية . ويقتفى أثر هؤلاء بعض الكتّاب الغربيين مثل واشنطون إيرفنج الكاتب الأمريكى، إذ يقدم لنا طائفة ممتعة من القصص المتعلقة بحمراء غرناطة[2] وشاتوبريان الكاتب الفرنسى إذ يقدّم لنا قصته المعروفة :«مغامرات آخر بنى سراج»[3]. ومن الغريب أن تجذب هذه الألوان المؤثرة الزاهية معاً كتّاب الغرب قبل أن تجذب كتّاب المشرق، فلا يتخذونها مادة للقصص التاريخى الرفيع، والمسرحيات الممتعة المليئة بالعبر.

وسوف نعرض فى هذا الفصل لصفحة من هذه الصفحات الإسلامية المشجية، وهى مأساة بنى سراج التى ألهمت قلم شاتوبريان. بيد أنه يجدر بنا، قبل أن نعرض لجانبها القصصى الذى غلب على كتّاب الغرب، أن نحاول أن نلقى شيئا من الضياء على أصلها التاريخى.

ومن بواعث الأسف أن الرواية العربية لاتقدم إلينا فى هذا الموطن مادة تذكر، شأنها فى معظم المواطن والحوادث التى ترتبط بسقوط غرناطة . وكل ماهنالك أنها تشير إلى بنى سراج إشارة عابرة، فيذكر لنا المَقَّرِىّ عند حديثه عن

(١) فى مسرحيته *Les Barmécides* .

(٢) *Tales of the Alhambra.*

(٣) *Les Aventures du dernier Abencérage.*

أصول الأسر العربية القديمة التى نزحت إلى الأندلس أن بنى سراج ينتمون إلى مذحج وطيّء من البطون العربية العريقة التى وفد بنوها منذ الفتح إلى الأندلس وكان منزلهم بقرطبة وجنوبى مرسية[1]، ولا نجد بعد ذلك ذكراً لبنى سراج خلال حوادث التاريخ الأندلسى إلا فى مرحلته الأخيرة، أعنى مرحلة الانحلال التى انتهت بسقوط غرناطة وسقوط دولة الإسلام فى الأندلس. ففى هذه المرحلة تشير الرواية غير مرة إلى الدور الذى لعبته الأسر القوية العريقة فى تاريخ مملكة غرناطة، وتخص بالذكر بنى سراج وبنى الزعزى، وتنوه بما كان بينهما من التنافس فى اجتناء السلطان والنفوذ، وما كان لذلك من أثر فى تطور الحوادث. وقد كان هذا التنافس طبيعيا بين الأسرتين؛ فبنو سراج يمثلون العصبية العربية القديمة، وبنو الزعزى من أصول البربر؛ والخصومة بين العرب والبربر شهيرة فى التاريخ الأندلسى. وكان بنو سراج فى أواخر أيام مملكة غرناطة يحتلون المقام الأول فى النفوذ، وينافسون بنى الأحمر ملوك غرناطة فى البذخ والجود والبهاء، ولهم شهرة خاصة فى ميدان الفروسية. وكان بنو الأحمر يتوجسون أحيانا من منافسة هذه الأسر القوية ولا سيما بنى سراج. ولما ارتقى السلطان سعد الملقب بابن إسماعيل النصرى عرش غرناطة حاول أن يقضى على نفوذ بنى سراج بوسائل عنيفة سافرة فلم يستطع، لوجاهة الأسرة، ورسوخ مكانتها؛ ونشبت من جراء ذلك فتنة خطيرة فى غرناطة (سنة ١٤٦٢م) كادت تحتمل عرشه. وكان تنافس الأسر والعرش من نذر الانحلال والتفكك التى أودت غير بعيد بمصير مملكة غرناطة.

وفى عهد خلفه السلطان أبى الحسن ظهر بنو سراج على مسرح الحوادث مرة أخرى. وكان السلطان أبو الحسن قد أقصى زوجه الشرعية الأميرة عائشة الحرة وولديها محمداً ويوسف وزجهم إلى أحد أبراج الحمراء نزولاً على تحريض زوجه الأسبانية الحسناء إيزابيلا دى سوليس التى تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا». وانقسمت غرناطة عندئذ إلى فريقين خصمين، يؤيد أحدهما السلطان وزوجه الأسبانية، ويؤيد الآخر الأميرة الشرعية وحق ولدها فى العرش. وكان بنو سراج فى مقدمة الفريق الثانى وقد اضطلعوا بأكبر دور فى مناصرة الأميرة عائشة ومعاونتها مع ولديها على الفرار من سجن الحمراء (سنة ١٤٨٢ م)؛ وبذا

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨.

٧

استطاعت أن تحشد أنصارها فى وادى آش، وأن ترفع لواء الثورة . ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط. ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير كمين مروع لإهلاكهم فى أحد أبهاء الحمراء، وهو البهو الذى عرف فيما بعد، وما يزال حتى اليوم يعرف ببهو بنى سراج .

بيد أن الرواية تختلف هنا، فتنسب تدبير هذا الكمين وتنسب المأساة كلها إلى عصر السلطان أبى عبدالله محمد ولد السلطان أبى الحسن وخلفه فى العرش، وهو الذى سقطت على يده غرناطة وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس . وهنا تتخذ الرواية لون القصص المغرق، وتقول لنا إن المأساة ترجع إلى أسباب غرامية خلاصتها أن محمد بن سراج (أو ابن حامد) عميد بنى سراج وهو من أكابر الفرسان والسادة، هام بحب أميرة من البيت المالك، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها. وتنسب بعض الروايات هنا هذا الحادث إلى عصر السلطان أبى الحسن أيضا، وتقول لنا إن الأميرة التى هام بها ابن سراج كانت تسمى «فاتحة» وهى على الأغلب من بنات السلطان، وأن السلطان دبر كمينا لهلاك بنى سراج بالاتفاق مع ولده أبى عبد الله . ولكن معظم الروايات تقدم إلينا القصة فى وضع آخر، وهو أن آل الزعزى خصوم بنى سراج اللدّ حاولوا القضاء عليهم بمختلف الوسائل، فوشوا بهم لدى السلطان أبى عبدالله واتهموهم بالتآمر عليه وسعيهم إلى خلعه وقتله، واتهموا كبيرهم ابن حامد (أو محمد بن سراج) بتهمة أشنع وهى أنه يتصل بالسلطانة وهى الأميرة مريمة اتصالا غراميا، وأنه رئى معها أكثر من مرة فى أحراش حدائق جنة العريف . فثار أبو عبد الله لهذا الاجتراء الصارخ على عرشه وعلى شرفه، وقرر سحق بنى سراج جميعاً، ودبر مع آل الزعزى كمينا محكما لإهلاكهم، فدعا أكابر الأسرة ذات يوم إلى مأدبة أقامها بقصر الحمراء، وأدخلوا إلى بهو الحفل واحداً بعد واحد بترتيب معين من باب البهو المذكور، وكلما دخل أحدهم اقتاده جماعة من آل الزعزى إلى الفسقية الرخامية التى بالبهو، ونحروه على حافتها، وأخفوا فى الحال جثته، حتى هلك معظمهم على هذا النحو المروع . ولم يفطن فى النهاية لهذه الكمين الدموى سوى قلائل منهم أنبأهم وصيف لهم استطاع أن يتسلل داخل البهو، وأن يخبرهم بما يقع . وبلغ من قتل منهم يومئذ ستة وثلاثين من أنجاد الفرسان والسادة . وهكذا سحقت الأسرة الشهيرة وفقدت كل نفوذها وسلطانها . وسمى المكان الذى تمت

فيه تلك الجريمة الشنعاء من ذلك الحين « بهو بنى سراج » وهو البهو المقابل لبهو الأسود الشهير . وما زالت ثمة بقع سوداء فى أرض البهو الذى وقعت فيه المأساة تزعم الرواية أنها بقع من دم القتلى، وأنها لن تمحى أبدا. وتزيد الأسطورة على ذلك أنه مازالت تسمع فى هذا البهو فى بعض الليالى أنات خافتة وقعقعة سلاح، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء فى جوف الليل بعض الجند المسلمين وقدلمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة يقطعون البهو جيئة وذهابا .

تلك مأساة بنى سراج كما تقدمها إلينا الروايات والأساطير والأناشيد الأسبانية. أما الرواية العربية فلسنا نجد فيها أثراً لهذه القصص المغرق، بل لسنا نجد فيها ذكراً لبنى سراج فى حوادث غرناطة الأخيرة، وهى أيضاً ضنينة علينا بتفاصيل هذه الحوادث المؤسية التى انتهت بذهاب دولة الإسلام فى الأندلس . ولكن الأدب الأسبانى يتناول هذه الحوادث فى كثير من الأقاصيص والملاحم المغرقة. وأشهر مصادر هذه التراث كتاب وضع فى هذا العصر وزعم كاتبه، وهو أسبانى من أهل مرسية يدعى جيتربيرز دى هيلا، أنه نقله من التواريخ العربية ، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ، يدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ومنافسات بنى سراج وبنى الزعزى وغيرهم من أمجاد غرناطة . وقد ذاع هذا المؤلف فى أسبانيا ولا سيما فى ريف الأندلس وترجم إلى لغات عدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لايمكن أن يكون ترجمة لروايات عربية ، وكل ماهنالك أنه مزيج من الأساطير النصرانية والشعبية المغرقة التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأحبار والفرسان والشعراء ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

فى سنة ١٨٢٦ ظهرت قصة شاتوبريان « مغامرات آخر بنى سراج » التى وضعها قبل ذلك بأعوام عقب زيارته لأسبانيا . وقد وقعت حوادث هذه القصة بعد سقوط غرناطة بأربعة وعشرين عاما أعنى فى سنة ١٥١٥ م وبطلها فتى أندلسى يدعى ابن حامد ، يصفه شاتوبريان بأنه سليل بنى سراج وآخر عقبهم . وقد نزح بنو سراج عقب سقوط غرناطة إلى أحواز تونس ، وعاشوا هنالك على مقربة من أطلال قرطاجنة القديمة عيشة متواضعة فى غمر الحسرات والذكريات.

المحزنة، واشتغلوا بالتطبيب بعد الفروسية، وهلكوا واحداً بعد الآخر حتى لم يبق منهم سوى ابن حامد . وكان فتى وسيم الطلعة جم الذكاء والفطنة والكرم ، وهى الصفات التى بها عرف آله . توفى أبوه وهو فى الثانية والعشرين من عمره، فاعتزم أن يحج إلى غرناطة موطن آبائه القديم ، فركب البحر إلى الأندلس وجاز إلى غرناطة واتخذ هنالك صفة طبيب عربى جاء ليبحث عن الأعشاب النادرة فى جبال الأندلس.

ففى ذات يوم أخذ يطوف بربوع غرناطة وحمرائها وحدائقها الملوكية ، وقلبه يخفق بالذكريات المؤلمة . ولما جاء المساء لم يستطع أن يقاوم شعوره ، فعاد يطوف بأحيائها طول الليل حتى ضل طريقه وأدركه الصباح . وبينما هو يسير هائم اللب إذ وقعت عيناه على فتاة أسبانية رائعة الجمال تخرج من منزلها ووراءها وصيفة فسحره جمالها أيما سحر ، ودهشت هى لمنظره وثيابه العربية، فتقدمت منه بظرف وسألته : أهو غريب ؟ وهل ضل طريقه ؟ فأجابها بألفاظ وعبارات رقيقة أن نعم ، فسارت أمامه بظرف حتى قادته إلى باب الخان الذى ينزل فيه .

وترك منظر الحسناء فى قلب ابن حامد أثراً لايمحى وشغف بها أيما شغف، ولبث أياما يطوف هائما فى غرناطة وهو يتصورها فى كل رؤية وكل مقابلة ، حتى كان ذات يوما يجول على ضفاف نهر « حدارة » على مقربة من حدائق جنة العريف فسمع صوت قيثارة وغناء ، نخفق قلبه واقتحم حرش الأشجار ، فألفى نفسه بين جماعة من الفتيات ذعرن لمقدمه ، وصاحت إحداهن : «هذا هو السيد العربى » وكانت هى فاتنة قلبه .

كانت دونا بلانكا — وهو اسمها — سليلة أسرة عريقة تنسب إلى السيد ألكمبيادور، وأبوها الدوق سانتافى، ولها أخ فتى يدعى دون كارلوس.وكان الدوق قد استقر فى غرناطة فى بعض أملاك الأسر المسلمة التى وهبت لأبيه ، وكانت بلانكا لفرط جمالها وذكائها وظرفها معبودة الأسرة ، وكانت تمرح فى ذلك اليوم مع نفر من صاحباتها . فما كاد يراها ابن حامد حتى صاح أنه يبحث عنها كما يبحث الظمآن عن الماء . فأجابته بلانكا أنها كانت تنشد قصة بنى سراج وهى تفكر فيه. فخفق قلبه وكاد يصيح بها أنه « آخر بنى سراج » لولا أنه خشى أن يثير الكشف عن شخصه ريب السلطات .

وهنا قدم والد بلانكا الدوق ، فبادرت إليه قائلة: «هذا هو السيد المسلم الذى حدثتك عنه ياأبت، وقد عرفنى وجاء يشكرنى على ماأسديت إليه» . فرحب الدوق

بابن حامد! وأنس الجميع بمقدمه، وأخذوا يسألونه عن بلاده وأحواله، فكان يجيب بظرف وفصاحة، وكان يتحدث القشتالية كأحد أبنائها، ثم تناولوا الحلوى والشيكولاتة، وانقضى اليوم فى غناء ورقص وطرب ثم عاد الجميع إلى غرناطة، ووعد ابن حامد أن يلبى دعوة الدوق لزيارته.

سرى إلى ابن حامد وبلانكا حب عنيف متبادل. وكانت بلانكا تقول فى نفسها: «آه لو دخل فى دينى وكان يحبنى لتبعته إلى آخر العالم.» وكان ابن حامد يقول لنفسه: «آه لو أسلمت بلانكا!» وأفضى إليها بحبه ذات يوم وهما يتنزهان فى أبهاء الحمراء، فأجابته كيف يمكن ذلك وهو عربى كافر وهى أسبانية نصرانية؟

واستدعى ابن حامد فجأة إلى تونس؛ إذ كانت أمه على شفا الموت، فاستأذن من حبيبته فى السفر، وأقسم لها أنه سوف يحبها إلى آخر نسمة من حياته، فأجابته باكية أنها سوف تنتظره كل عام، وأنها سوف تذكره إلى الأبد، وتقبله زوجا يوم يدخل دينها.

وعاد ابن حامد إلى تونس فألفى أمه قد توفيت، وقضى بين أطلال قرطاجنة أشهراً وهو هائم اللب، حتى جاء يوم السفر إلى غرناطة، فركب البحر إلى مالقة وكانت بلانكا هنالك ترقب مقدمه خلال التلال المشرفة على الثغر. فلمحت ذات يوم مركبا عربيا منشور الشراع، فهرعت إلى المرسى ولمحت عربيا يرتدى ثيابا فخمة ولم يكن سوى ابن حامد، فبعثت إليه تدعوه إلى مكانها، فهرع إليها ابن حامد وارتمى أمام قدميها، وقدم إليها هدية طريفة هى غزالة وضعت فى سلة، قائلا إنها تشبهها خفة ورشاقة. وسارت بلانكا ووالدها الدوق وابن حامد إلى غرناطة، وهنالك أنفق الحبيبان أوقاتا سعيدة فى التجوال والرياضة وتبادل العواطف المضطرمة، ولكن كلاهما لبث راسخ العزم على التمسك بدينه. فكلما دعته بلانكا إلى اعتناق دينها دعاها هو بدوره إلى اعتناق دينه.

وعاد ابن حامد إلى موطنه، ثم سافر فى العام التالى إلى غرناطة وقصد إلى منزل بلانكا، وكان والدها الدوق غائبا فى مدريد، فلقى أخاها الدون كارلوس وكانت تعبده ويعبدها حبا، ولكن تولته الدهشة وانكمش فؤاده حينما ألفى عند قدمى بلانكا فتى لم يره من قبل، وهو أسير فرنسى من أصل نبيل يدعى لوتريك توثقت بينه وبين الدون كارلوس أواصر الصداقة منذ أسر فى موقعة بافيا، وعاد معه إلى أسبانيا. ورحبت بلانكا بابن حامد وحياه دون كارلوس برقة، فانحنى

ابن حامد أمام الفتاة وانصرف لفوره ، وساور لوتريك الشك فى نظراتهما فانصرف هو أيضا . وهنا أفضت بلانكا إلى أخيها بحقيقة الأمر وباحت له بحبها لابن حامد، فصاح بها ساخطا كيف تحب سليلة السيد الكنبيادور عربيًّا ومسلماً، وقد كان يظن أنها تقترن بلوتريك. فأجابته أنها حرة فى أمرها وعواطفها ، بيد أنها لن تغدو على أى حال زوجة لمسلم .

وهرع دون كارلوس إلى ابن حامد ودعاه إلى البراز ، فأجابه إلى طلبه وتبارزا خارج غرناطة فغلبه ابن حامد ولكنه ترفع عن إيذائه . وهنا جاء لوتريك وبلانكا إلى مكان المبارزة مسرعين وانتهى الأمر بسلام واحتجب ابن حامد حينا نزولا على نصح بلانكا .

ولبث ابن حامد تفترسه مختلف العواطف والمشاعر. وجاءته بلانكا ذات يوم وهى شاحبة ذابلة وخاطبته بحدة وذكرت له كيف تذوى صحتها فى حبه ؛ فهجس بخاطره مدى لحظة أن يقبل التنصير وينتهى الأمر. وفى الغد كان إلى جانب بلانكا وأخيها الدون كارلوس ولوتريك فى حفل أنيق فى جنة العريف ، وأخذ كل من الفتيان الثلاثة يلقى بعض أناشيد الفروسية ، وأنشد ابن حامد قصة من وضع شاعر من بنى سراج ، وتبين من أناشيد دون كارلوس أن جد ابن حامد وهو فارس بنى سراج أيام حرب غرناطة قد لقى حتفه على يد أسرة حبيبته، وأن أسرتها هى التى استولت على تراث بنى سراج ، فعندئذ كشف ابن حامد عن شخصه ، وأعلن أنه آخر « بنى سراج » ، وقدم الدليل على نسبته خاتم بنى سراج معلقا فى عنقه بسلسلة من الذهب، وتضرع إلى حبيبته أن تنسى كل شىء ، وأنه يحلها من كل شىء وأنه يضع نفسه تحت تصرفها لتأمره بما يفعل. فعندئذ أشارت اليه بلانكا أن يعود إلى الصحراء ثم أغمى عليها .

فركع أمامها ابن حامد ثم غاب عن الأنظار . وفى نفس الليلة سافر إلى مالقة وركب البحر إلى وهران ، وهنالك انخرط فى سلك قافلة الحاج المسافرة إلى مكة ولم يعرف بعد ذلك مصيره قط .

ومرضت بلانكا حتى أشرفت على الموت، ثم تماثلت وعاشت فى حزن مقيم وعزلة مطبقة، تذهب كل عام إلى مالقة تحدج البحر فلا ترى أحدا، وتقضى أيامها فى التجوال فى أبهاء الحمراء. وقد توفى والدها من الحزن ، وقتل أخوها فى مبارزة، واختفى لوتريك فلم يسمع به أحد .

يقول شاتوبريان : وهنالك فى تونس عند الباب الذى يؤدى إلى خرائب قرطاجنة توجد مقبرة ، وبها قبر منعزل ليست له أية علامة مميزة ، يصفونه بأنه قبر « آخر بنى سراج » .

تلك هى القصة التى ألهمتها ذكريات بنى سراج قلم الكاتب الفرنسى الكبير. ومن الواضح أنها لاتقوم على أصل تاريخى ، ولكنها تقوم كمعظم القصص المتعلق بحوادث سقوط غرناطة وأمجادها الأعلام ، وفروستها الأخيرة على تراث الأساطير والأناشيد الأسبانية المغرقة . على أنها تبدو بما يسبغه عليها شاتوبريان من بلاغته وفنه ، وبما يتخللها من ذكريات غرناطة والأندلس ، قطعة من الخيال المؤثر . وهى ليست إلا مثلا من أمثلة عدة استطاع فيها الخيال الأوربى أن يجد فى صفحات التاريخ الأندلسى الأخيرة كل عناصر الإلهام والفن الرفيع .

محمد عبد الله عنان

ذكريات

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

فى عام ١٩٠٣ اجتزنا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا فى القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة تلميذ . وعقد الامتحان فى القاهرة . ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت فى نظامها ثكنات يتسلط عليها الإنجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية . وكان الإنجليز يحاربون شيئين فى الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفلون بقاءنا فى ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين ، وهما محاربة التعليم ، ومحاربة الصناعة. ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيما ؛ فلم يسمحوا طيلة إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات فى أى مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدى . وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنية الابتدائية فى القاهرة ، وكانت ناظرتها إنجليزية ، تصر على البرقع للتلميذات وهن فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكتة . وتقدمت الآنسة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية فى سنة ١٩٠٧ من بيتها . فرفض دنلوپ المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف قبولها فى الامتحان . ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة فى الجرائد ، وتقدمت فى السنة التالية فقبلت ونجحت ولكن الإنجليز تنبهوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ سنة ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتى أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية فى ١٩٢٥ أى بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلمذة فى المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طيلة العام الدراسى بالحضور يوم الجمعة فى المدرسة حتى لا يهنأ بالإجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر

أحدنا فى منتصف الساعة السابعة صباحاً أى فى الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الإنجليزى قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين فى الحضور فى الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزاد عقوبة والزيادة تراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى مهينة مثل حرمانه من الغذاء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق فى تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الإسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية ، وكانت تشترى لهم ملابسهم فى شكة واحدة . وكان هؤلاء المساكين يخجلون من هذه الملابس الصفراء الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يتميزوا بفقرهم أمام زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التى تصمهم بالفقر ، فلبسوها وكانوا يتروون منا فى خجل .

ولست أشك فى أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا غرقاً فى أواخر الحرب الكبرى الأولى عم الفرح جميع القارئين الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارىء هذه العاطفة منا . ولكنى أؤكد أن التلمذة فى تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الإنجليز لذة فى تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الإحساس البشرى ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم أحد المدرسين طيلة العام الدراسى .

وقضيت ثلاث سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنئت به . ولذلك تخلفت عن الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أنى مرضت بعينى واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أنى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى ، وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة .

ولكن القاهرة فى تلك السنين (١٩٠٣ — ١٩٠٧) كانت حافلة بتباشير العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأوتوموبيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء فى قربته لمنزلنا . وكنا أحياناً نركب الحمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان فى شوارع قليلة . ولم يكن شىء

من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء. بل أذكر أن شمال المدرسة التوفيقية فى ١٩٠٣ كان خالياً من المبانى إلا القليل المتفرق.

وكنا نتحدث فى تلك السنين عن شيئين يحركان المجتمع المصرى هما الاحتلال الإنجليزى، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة، ولم أكن أهتم بالحركة الثانية كثيراً. وكان « الحزب الوطنى » أعظم قوة تكافح الاحتلال فى ذلك الوقت. وكان قد ألفه فى ١٨٩٧ ستة من الشبان المتنبهين هم: أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمى. وكان « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة. ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينيــة فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية. وكان منطقهم يقول: « إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية فى مصر مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر، فإن لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى. »

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينيًّا ساءت عواقبه واستغله الإنجليز أيام كرومر وجورست. ولم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد حين أسس « الجريدة » ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شئ من الدعاية للأتراك أو للعرب أو للإسلام. ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن فى مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط، وكان لهذا يعارض الخديوى عباس فى ممالأته للدولة العثمانية. وبلغ من معارضته له أن جريدة « المؤيد » وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابى.

والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركيًّا أو كالتركى؛ فكان الاصطياف فى استانبول مألوفا، وكانت الحكومة المصرية تؤدى « الجزية » السنوية لتركيا. وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاسية. وقلما كنا نجد « مصريا » ثريا. ولذلك حين تتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٦ تجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء. وهذه الحال تفسر لنا نفسية الحركة العرابية. فإن عرابى كان يتأمل وطنه فى ١٨٨٠ فلا يجد فيه

مصريا صميماً يملك شيئاً يؤبه له . وكان جميع الأثرياء من الأتراك أو الألبان الذين كان محمد على قد اختصهم بالامتيازات ، وأقطعهم أرض المالكين المصريين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لانعرف رئيساً للوزارة إلا وهو تركى الأصل . بل أحياناً كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصرى صميم واحد أيام إسماعيل وتوفيق . وكنا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سخفهم ونذالتهم وهم فى عرباتهم يتنزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قوّاص أو قواصان وكل منهما فى سترة تهريجية يحمل عصا طويلة فى وضع عمودى ويعدو أمام العربة وهو يصيح : هيه ، هيه .

وكانت الجرائد المقروءة فى تلك السنوات ثلاثاً : «اللواء» الذى كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجلاء ويقرؤه جميع الشبان . و« المؤيد » الذى كان يؤيد الخديوى ويقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و«المقطم» الذى كان يؤيد الإنجليز ويقرؤه الموظفون . أما «الأهرام» فكان فى ركود يشبه الموت لا يقرؤه غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوى عباس محور الحركة الوطنية فى أوائل حكمه . وهو الذى أوعز بإيجاد الحزب الوطنى ، وكان يعاونه بالمال . ومما زاد الخديوى اتجاها نحو الحركة الوطنية تلك الإهانات الشخصية التى كان يجدها من كرومر ؛ فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية فى الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الإنجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له فى ذلك أساليب طفلية . وقد رأيته ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستوياً على قدميه كما يفعل البشر ، بل تقدم له خادم مصرى وحمله كأنه طفل من العربة فى عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا فى ظنى كى يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمى . وتشاجر مرة مع الخديوى لأن الحوذى الذى كان يسوق عربته إنجليزى . وحاول مرة ، عقب انتقاد الخديوى للجيش المصرى الذى كان كتشنر قائداً عامًّا له ، أن يعين وزيراً إنجليزيا . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذى أحال القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلا تاما ، حتى إننا حوالى ١٨٩٢ أنشأنا مصنعا فى القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزى ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الإنجليزى فى الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها ، فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى . فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه ، فاشتبك الريفيون مع الإنجليز فى مشاجرة انتهت بقتل بعض الإنجليز أو بالأحرى بوفاته . وعندئذ عينت محكمة « مخصوصة » كان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين . وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب «المقطم» بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فخجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً ؛ لأنه كان يتصل اتصالا تاماً بالإنجليز فى ذلك الوقت . وصدر حكم المحكمة بجلد البعض وبشنق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها ، ورأى الأطفال آباءهم يشنقون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الحبال أو يصرخون من الجلد .

وأذكر أنى كنت فى الإسكندرية فى ذلك الوقت أتنزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عمنى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام . ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الإنجليز أنفسهم من هذا الحادث الإجرامى ، فعزلوا كرومر عن وكالته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الإنجليزية فى ذلك الوقت رجل من الحربين يدعى هنرى كامبل بانرمان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى برر جريمة كرومر بأن وقف فى البرلمان يقول : إن التعصب الإسلامى قد تفشى فى إفريقية الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . وكتب «المقطم» مقالا عنوانه « التعصب يمتد ويشتد » ما زالت كلماته ترن فى ذهنى ، ولا تزال «دنشواى» عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شىء واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاما وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم ، فكنت أجد بعض الشبان يشترون «المقطم»

ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد ، وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء عائلتنا . ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية ، فكانوا يشيحون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت فى ذلك الوقت بما لا زلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطانى ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ؛ لأن الرجعية بالتزام التقاليد ،وكراهة الروح العصرى فى السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لعرقلة أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التى تعلمتها من « المقتطف » قد جعلتنى ألمح بصيصا من الرؤيا الجديدة ، وأن أومن بأن العلم الذى حقق السيادة وان لم يحقق السعادة لأوربا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذى وضعنا عليه الإنجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتنى من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداء الذى أناصبه للإنجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويلتزم المنطق والتعقل . وكان «المؤيد» قليل الانتشار يسبقه «اللواء» ويطغى عليه بمقالات مصطفى كامل النارية . ولكن «المؤيد» كان يثب فى الأزمات . ففى حادثة دنشواى مثلا أقبل عليه القراء ، وهم فى كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعقلون ما يكتبه عن السياسة الإنجليزية المصرية وينظرون للمستقبل من خلال بصيرته .

ولكن علاقة الشيخ على يوسف بالخديوى جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عند ما أسس « مجلس المبعوثان » فى تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ؛ إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية . . .

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسماعه . وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن ولما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفى تلك السنين شبت الحرب بين روسيا واليابان، فاتجه الرأى العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية؛ لأن روسيا كانت تمثل فى أذهان الجمهور أوربا التى تنتمى إليها بريطانيا، كما أن اليابان كانت تمثل يقظة الشرق. حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتاباً باسم «الشمس المشرقة».

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية فى تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم «مسامرات الشعب» وهى قصص مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية اشترك فى الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبدالقادر حمزة (باشا) ومحمود أبو الفتح وغيرهم. ولكن الأدب لم «يتمصر» فى ذلك الوقت؛ لأن كفاحنا للأمبيريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا. فكان الكاتب الذى يجد فى نفسه القدرة على التعبير الفنى يلتفت إلى السياسة قبل الأدب، ويجاهد فى إيقاظ الوجدان المصرى الوطنى. وما نقصنا نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون عنا، وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوربية منا؛ لأنهم تعلموا فى الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية فى بيروت. وهم أيضاً، لأنهم كانوا مسيحيين، لم يجدوا العائق السيكلوجى الذى كنا نجده نحن فى مصر إزاء الثقافة الأوربية العصرية.

وكنا فيما بين ١٩٠٣و١٩٠٨ فى تبلبل سياسى وفى تبلبل آخر أدبى واجتماعى. فقد كانت تسود وجداننا السياسى نزعتان: الأولى والكبرى فى الاتجاه نحو الدولة العثمانية والدفاع عن استقلالنا المصرى، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية. وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقلا. ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق، وهى الدعوة إلى الاستقلال المصرى التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معاً.

أما التبلبل الأدبى فلم نكد نحس به فى تلك السنوات. وكان جميع الكتاب، باستثناء السوريين، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر. ولكن كان هناك تبلبل اجتماعى وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين، ونمت وزكت هذه الخميرة فى الوسط الإسلامى. وأصبح لها دعاة وخصوم.

وكان الخديو عباس محبوبا إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح. وكانت شراسة كرومر، الذى كان يرغب فى معاملته كما لو كان أحد مهرجات

الهند ، تنبه فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية . ومما سمعناه فى تلك السنين أن ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يحلوا خيولها ويجروها هم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضاً لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان الخديو يصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لاتتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازوروّا عن الخديو .

ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصرى يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فإن الإنجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطنى يدس لهم ويؤيد الحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السر الدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتحبب هذا إلى الخديو وزاد فى سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحا عظيما جدًّا ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية ، ويسير مع الانجليز فى «سياسة وفاق» كان ضررها بالأمة فادحاً .

وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به فى انجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو فى فراش الموت .

ثم جاء كتشنر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن فى فجاجة العسكرى وغشومته . وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للإنجليز .

ولو سئلت عن الفرق فى القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الإيقاع كان شرقيًّا فى كل شئ تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة متكتلة فى رقعة صغيرة لم تستفض بعد إلى صحراء هليوبوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا فى الملابس نعبر طور الانتقال . فإنى أذكر أنى لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط فى الزقازيق ، وكنت فى العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا فى الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساؤنا وآنساتنا فمعظمهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا نقضي ليالي السرور عند الشيخ سلامة حجازى . والحق أن هذا الرجل كان ممثلا بارعا ، ولكنه لم يكن يمثل قدر ما يغنى . فقد وجد إقبالا عظيما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقاً بالغناء . وظنى أنه كان يفعل هذا مضطرا ؛ لأن كفاءته المسرحية كانت عظيمة جدا . ولا بد أنه كان يتألم ؛ لأن الجمهور لا يقدرها ويؤثر عليها الغناء .

وكانت هناك إلى جنب مسرح الشيخ سلامه ملاهٍ أخرى كانت غاية فى الفحش ، حيث كانت الراقصات يقمن بحركات وإيماءات هى فى صميمها محاكاة غير فنية للتعارف الجنسى ، محاكاة فاحشة رخيصة دنسة متهتكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٢ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغانى القديمة الفاحشة لا تزال تغنى إلى أيامنا هذه .

وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، نحس الوجدان المسرحى ، وندرك معنى الدرامة ومغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبيض من الدرامات عن اللغة الفرنسية .

سلامه موسى

آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية

العادات المصرية القديمة الباقية فى مصر إلى الآن

تنتشر فى كل أمة من الأمم مجموعة من العادات والتقاليد ، يزاولها الأفراد فى كل وقت كأمر طبيعى سهل ميسور لا يمكن أن يكون مجالا للبحث والمناقشة . وشأننا فى مصر شأن باقى الأمم ؛ فنحن نجد أنفسنا محاطين بطائفة من العادات نراها ونلمسها فى كل يوم منبثة بين طبقات مختلفة من الأمة هى السواد الأعظم من أهل هذه البلاد ، بحيث أصبحت هذه العادات والمعتقدات دستورا عند العامة فى المدن ، وجميع أهالى القرى من الفلاحين والمزارعين .

هذه العادات تترفع عنها تلك الأقلية من المتعلمين فى هذه البلاد ، فيصفونها بالخرافات ، وإذا ترفقوا فى الوصف والتعبير سموها بعلم « الركة » ، وهم يعنون بذلك فن الترهات والأباطيل والخزعبلات .

ولكن هل جشم أحد هؤلاء المتعلمين نفسه ، فبحث عن أصل هذه العادات والخرافات والمعتقدات بحثا علميا ردّها جميعا إلى أصولها القديمة ، طبقا لقواعد علم « الفولكلور » ؟

الواقع أننا لا نعرف شعبا فى العالم أجمع أشد محافظة من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته . فقد مرت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيرت لغة البلاد ودينها عدة مرات ، ولكن الغزوات التى توالت على مصر لم تستطع أن تغير شيئا مما ورثه الشعب من التقاليد والمظاهر . قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والعرب الذين استقروا فى البلاد قد تمكنوا من إحداث أثر ضئيل فى المدن الكبيرة التى استقروا فيها مجتمعين ، ولكن باقى البلاد التى تشمل آلاف القرى والدساكر بقيت محافظة على مصريتها الثابتة وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثر . فالفلاح الحالى لا يزال يشبه أجداده

الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام المشابهة ، مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالى قد أصبح يتكلم العربية ويدين بالإسلام أو بالمسيحية ، أما ملامحه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التى يستعملها والمنازل التى يسكنها والعادات التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها ، فهى مصرية فرعونية فى روحها وشكلها . فما زال الفلاح يعيش هو وماشيته فى منازل مبنية من اللبن كما كان يعيش الفلاح فى العصر الفرعونى ، وما زال يستعمل فى فلاحة الأرض نفس المحراث والمنجل والمذراة وغيرها من أدوات الزراعة التى كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروى أرضه بنفس الشادوف الذى كان يروى الفلاح القديم أرضه به . فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه فى صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان يفعل الفلاح القديم تماما . وما زال هذا الفلاح الذى نراه اليوم خير خلف لسلفه العظيم فى صبره وجلده ، يعمل فى حقله طول ليله ويكد طول نهاره دون أن يدركه كلل ولا ملل . وهو فى وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة . وما زالت السلال والمقاطف «والزكائب» التى تعرف «بالشنف» والحبال بل الأنوال التى يستعملها فى نسجه ، وكذا المنازل هى نفسها أدوات سلفه العظيم . وما زال فلاحنا قنوعا يكتفى من عيشه بالكفاف ، إذا جاع فكل ما يتمناه قطعة خبز يسد بها رمقه ، وهو كالفلاح المصرى القديم لا يختلف عنه فى مأكله ، لون الطعام الذى يوده ويهواه هو البصل والفجل .

فهذا الفلاح الذى وصفناه هو الذى حافظ على ما ورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، حتى وصلت إلينا فى صور مختلفة من المعتقدات التى نطلق عليها الآن اسم علم « الركة » .

من المعروف أن قدماء المصريين كانوا يعبدون الشمس ، واستمرت عبادتها زمنا طويلا . ولكن الكثيرين سوف يدهشون عندما أقول إن أثر عبادتها لا يزال ظاهرا بيننا إلى اليوم . ففى بعض قرى الوجه البحرى لا يزال يقسم الأهالى بالشمس فيقولون : « وحياة الشمس الحرة » وفى جهات أخرى يحلفون بالشمس فيقولون : « وحياة البهيّة اللى تطلع من جبلها » . ومظهر آخر من هذه المظاهر يتضح فى عادة رمى السن إلى الشمس فيقول الصبى : « يا شمس

ياشمّوسه ، خدى سن الحمار وِهاتى سن الغزال . » أما البنت فتقول : « يا شمس ياشمّوسه ، خدى سن الجاموسة وهاتى سن العروسة . »

وقد وحدت الشمس عند قدماء المصريين مع الجعل (الجعران) ، فسميت «خپرع » ، وإلى الآن نجد أهالى بعض جهات الصعيد إذا مرض أحدهم بالحمى المسببة عن ضربة الشمس ، خاط إلى طرف ثوبه جعلا ليأخذ الحمى .

وكما كان المصريون يعبدون الشمس ، فإنهم كانوا يعبدون أنواعا مختلفة من الأشجار ، كشجر الجميز والسنط والنخيل ، وكانوا يعتقدون أن الإلهة «هاتور» أو « توت » قد حلت فيها . وفى كثير من الرسوم نرى الميت وقد وقف أمام شجرة برزت منها الإلهة وهى تقدم له مائدة عليها قرابين مختلفة . فهذه العبادة لا تزال موجودة فى مصر إلى الآن يزاولها كثير من المسلمين والأقباط على السواء . فشجرة المطرية التى تعرف بشجرة العذراء هى بلا شك خلف لشجرة هليوبوليس المقدسة التى كانت تحل فيها الإلهة ويعبدها المصريون القدماء . وفى إحدى قرى الفيوم شيخ اسمه الشيخ صبر دفن فى مكان لاتقوم فيه سوى شجرة كبيرة يحج إليها كل ذى حاجة يريد قضاءها من أهالى البلاد المجاورة ، ويأتى لها المرضى من كل فج عميق آملين الشفاء من أمراضهم ، فيدق كل مريض فى جذعها مسماراً يلف عليه خصلة من شعره ، فإذا فعل هذا اعتقد المريض أنه سيشفى من مرضه لا محالة .

فهذه الأشجار ، وخاصة الجميز ، لا تخلو منها جبانة حديثة فى مصر أو ضريح من أضرحة الأولياء والمشايخ . وتعتبر الشجرة وأغصانها مقدسة ، أما أوراقها وفاكهتها فلها قيمة محترمة .

وللقطط الآن عند العوام منزلة خاصة ؛ فهم يرعون جانبها ويحسنون معاملتها ويتجنبون ضربها . وهم يعتقدون أن الأرواح والجان يتلبسون أجسام هذه القطط ويظهرون بأشكالها . وتفسير هذه الأفكار والمعتقدات الغامضة هو أن القطط كانت إحدى معبودات المصريين القدماء ، يعبدونها باسم الإلهة «باستت» .

ويعتقد العوام من الناس أن لكل منزل ثعبانا يحرسه ؛ فهذا الاعتقاد يرجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يعبدون أحيانا ثعبانا كبيرا يظنون فيه الخلود ، ويعتقدون أنه يسكن حقلا أو غابة أو كهفا أو جبلا ويقوم على حمايته .

ولدينا بالمتحف المصرى تمثال ثعبان وجد بمعبد أتريب ، بنها الحالية ، ووضع هناك لحمايته .

أما ما نجده أحيانا معلقا على أبواب المنازل من تماسيح محنطة ، فإن هى إلا بقية من بقايا عبادة هذه الحيوانات فى عصر الفراعنة ، إذ كان التمساح إلها عبدوه وسموه « سبك » .

يعتقد العوام الآن أن لكل شخص أختا تحت الأرض أو قرينة تولد معه . فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عليها « كا » وكانت هذه الـ « كا » تعيش معه ، فإذا مات تبعته إلى المقبرة .

هذه كلمة عاجلة عن المعتقدات . أما العادات فكثيرة لا يدركها حصر ، فنقتصر على ذكر أهمها :

يحرص الفلاحون فى القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذرية ، وهم يبكرون فى الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون . فهذه عادة ورثناها أيضا عن المصريين القدماء . قال الحكيم المصرى « آنى » فى وصية إلى ابنه : « اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك ، وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلا . إن السعيد من كثرت ناسه وعياله ، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه . » أفليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هى التى نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟

نعيب على مواطنينا تمسكهم بوظائف الحكومة وتعلقهم بأذيالها ونحتقر قولهم : « من فاته الميرى اتمرغ فى ترابه » ، ولكننا ننسى أو نتناسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا . فقد ورد فى النصوص الفرعونية صورة خطاب كتبه أب لابنه يقول فيه : « بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك ، فهل تريد أن تكون فلاحا تشق وتكدح ! لا تكن فلاحا ، ولا تكن جنديا ولا تكن كاهنا ، بل كن موظفا يحترمك الجميع ، ويمتلئ منزلك خدما وحشما وتتربع فى مجلس الثلاثين إلى جانب رجال البلاط . »

ولطالما هزأنا بآلاف الموظفين وما يبدونه من ضروب المداهنة والمصانعة

للرؤساء ابتغاء مرضاتهم ، ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد . ألم يقل الحكيم « بتاح حتب » الذى عاش منذ خمسة آلاف سنة : « انحَنِ أمام من هو فوقك ، أمام رئيسك فى شؤون الإدارة الملكية حتى يستمر بيتك مفتوحا ، ويستمر رزقك وراتبك جاريا ، ولا تعصه فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير . »

تنادى الآن بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا انتقل الموظف إلى جهة بعيدة ، ولكن يجب ألا نلام على ذلك ، فإن الاغتراب قد ولّد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركة التى خلفها لنا الأجداد . ألم يَشْكُ هذا الموظف المسكين الذى نقل من بلده منفيس منذ أربعة آلاف سنة ، فكتب يقول : « إنى أجلس هنا بالجسم على حين تطير روحى إلى منفيس حتى تطمئن على الأحوال هناك وتستقر . إنى أجلس هنا ولست بمستطيع أن أقوم بعمل ، أى إلهى « بتاح » أحضر إلىّ وخذنى إلى منفيس ودعنى أرها ولو من بعيد . »

ثم إن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين . فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتمه من تبذير شديد عيب قديم فينا . ألا تخبرنا النصوص بأن الملك رمسيس الثالث الذى كان يعطى ١٨٥٠٠٠ كيس من القمح سنويا للمعابد ، هو بعينه الملك الذى كان لا يستطيع أن يرسل خمسين كيسا من القمح شهريا لعماله فى الجبانة ، وقد كانوا يتضورون جوعا !

أما كرم المصريين وإسرافهم فى الولائم والأفراح فهما موروثان أيضا . فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء فى عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعى إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقا والرقص والغناء . وكان المصريون لا يدخرون وسعا ، كما نفعل اليوم ، فى تقديم الكميات الوافرة من اللحوم وألوان مختلفة من ألذ أنواع الطعام ؛ إذ كانت تقاس عظمة الداعى بكمية ما يقدمه من طعام . فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل ، فكان يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق فى طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم كل الشبه ، فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضا كما نفعل اليوم .

أما احتقارنا للفلاح فهو قديم . وقد وردت فى رسوم المقابر الفرعونية مئات الرسوم التى تهزأ به وتسخر منه ، وكان إذا تأخر فى دفع ما على أرضه من

ضرائب أتته جباة الأموال وطرحوه أرضا وأوسعوه ضربا بعصيهم حتى يدفع . أفلم يكن هذا هو النظام المتبع فى جباية الأموال إلى عهد قريب ؟

وهناك مئات من العادات الصغيرة نراها كل يوم دون أن نلقى إليها بالاً . فالمغنى البلدى لدينا والمقرئ وهو يتلو القرآن كلاهما يضع إحدى يديه على خده وهو ينشد . فهذه العادات وردت لها عشرات الرسوم فى الآثار المصرية القديمة. بل إن نفس الزمارة (المزمار) التى يستعملها المغنون فى القرى هى نفسها التى كانت تستعمل فى عصور الفراعنة .

ثم إن التصفيق بالأيدى لمصاحبة الغناء أخذناه عن المصريين القدماء . وكذا «الطرقعة» بأطراف الأصابع عند الرقص ورثناه عنهم أيضا . وكما كان يفضل المصريون القدماء من المغنين والعازفين من كان أعمى لا يبصر ، فإننا لا نزال إلى الآن نفضل من المقرئين من كان كفيف البصر . أما عادة وضع القلم على الأذن التى يزاولها كل يوم مئات من كتبة المحال التجارية والمحصلين وجباة الأموال (الصرافين) فى القرى والأقاليم ، فهى عادة انحدرت إلينا من كتبة قدماء المصريين الذين كانوا يضعون الأقلام على آذانهم .

بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغنى أو المنشد أو إظهار الفرح العظيم بأن يلقى الشخص ملابسه أو طربوشه هى أيضا عادة مصرية قديمة . فقد ورد فى نصوص الأهرام وصف لوصول الملك بعد موته إلى العالم الآخر حيث « وجد الآلهة فى انتظاره متدثرين بملابسهم ومنتعلين نعالاً بيضاء ، فما كادوا يرونه حتى ألقوا بملابسهم ونعالهم من الفرح وصاحوا قائلين : « إن قلوبنا لم يدخلها الحبور والفرح إلا عند مقدمك » .

أما ما ندعوه الآن بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء . فقد اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالسحر ، وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا ساحراً تغدق عليه خيراتها وتضع فيه ثقتها ويستمتع فيها بنفس النفوذ والثقة التى كان ينعم بها سحرة العصور القديمة .

كان المصرى القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدو . وتخبرنا النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة وأصوات مستغربة ، بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض فتنهك قواه وتهد بدنه . وكان الساحر قادرا على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن

ويتعلقن بأذيال من يريد الساحر من رجال ، حتى لو كانوا موضع كرههن من قبل .
وكان الساحر يطلب فى مثل هذه الأحوال لكى ينجح عمله أن يُؤتى له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامة من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها ، فإذا حصل الساحر على ما طلب صنع تمثالا من الشمع بشكل الشخص المطلوب العمل له ، ووضع فى التمثال أو استعمل فى صنعه الأشياء التى أخذها . فإذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتى يرتديها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة . ثم يبدأ فى أن يجرى على التمثال طائفة من الأعمال السحرية ؛ فكان إذا دق مسماراً فى التمثال أصيب الشخص بمرض ، وإذا قَرّب التمثال من النار أصابت الشخص حمى جنبية ، وإذا طعن التمثال بسكين قُتل الشخص أو جرح . ويظل الساحر يزاول أعماله حتى يقضى على الشخص الذى يريده . وقد ورد فى النصوص أن هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث ، ولكنه اكتشف الأمر فقبض على هؤلاء السحرة وصادر ماوجده لديهم من تماثيل الشمع التى صنعت بشكله (راجع ورقة هاريس البردية السحرية وورقة تورين البردية القضائية) . أفليس هذا النوع من السحر وعمل التماثيل من الشمع أو الطين وشكها بالإبر والدبابيس هو الذى يستعمله سحرتنا فى القرى والأقاليم الآن ؟

وليس الأمر مقصورا فى ذلك على القرى والأقاليم ، بل إن القاهرة نفسها وهى عاصمة البلاد تعج بمن يعتقدون فيها بالسحر وقوة فعله . ونحن نورد فى هذا المقام فقرة نشرتها جريدة الأهرام فى اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٥ قالت فيها تحت عنوان : « تشكو من السحر » : « تقدمت فتاة وطنية إلى البوليس تشكو شابًا معيناً بأنه دأب على أن يستعمل لها السحر حتى أقض مرقدها ، وطلبت من البوليس أن يحول بين ذلك الشاب وبين أعماله السحرية » .

وكل ما لدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والأحجبة : كحجاب الحب والكره والحفظ ، وآلاف التمائم التى تعلق فى رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم ، كل هذه إن هى إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسيرون خطوة إلا والتمائم ترافقهم وتحميهم . وزيارة واحدة للمتحف المصرى ترينا آلاف التمائم التى استعملها المصريون القدماء .

ويقرب من هذا اعتقاد العوام منا اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها . فأنت

إذا جلست إلى رجل من العوام حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما . ولنا فى ذلك تقاليد غريبة . فإذا توعك طفل عزت أمه انحراف صحته إلى عين الحسود ؛ فتذهب إلى أحد المشايخ وحينئذ يوعز إليها أن تلتقط «ريحة» الطفل ، ثم يكتب لها حجاباً ويعطيها قليلا من « الكسبرة » لتبخر بها طفلها ، ثم توضع « الشبة » الزفرة فى النار ويطوفون خلال ذلك بالمريض حول النار وهم يقولون : « من عين أمك لعين أبوك ، لعين الناس اللى حسدوك ، إن كانت عين مره ، يبتليها بشرشرة ، وإن كانت عين راجل يبتليها بشراشر . يالمبة ، مساء الخير عليك ، فلان منكد رمى نكده عليك » . ثم تأخذ إحدى النساء النار بعد أن تلقى فيها ملليماً وترميها من وراء ظهرها إشارة إلى نبذ أذى العين .

وبسبب العين أيضاً نشأت فكرة تعليق الصحون على مداخل المنازل أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب ، وكذا طائفة من التمائم نراها معلقة على العربات بل على سيارات الأغنياء منا والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعاً للعين ؛ فهذه الخرافة ورثناها أيضاً عن مصر القديمة . فقد وجد فى مكتبة معبد الإله حوريس فى أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة . كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، وقد ورد فيها ما يأتى : « أيها الإله تحوت إذا كنت تحمينى لم تبق بى حاجة إلى الخوف من العين » .

يعتقد العوام عندنا أن هناك ساعات من النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتى فيها عملا لأنها منحوسة . فهذا الاعتقاد فى الأيام سعدها ونحسها قديم أيضاً ؛ إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة فى أساطيرهم الدينية ، فاليوم الأول من أمشير الذى رفعت فيه السماء ، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذى عقد فيه صلح بين الإلهين حوريس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم ، كانا يومين كلاهما سعد وبركة . أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذى بكت فيه ايزيس دنفتيس على أوزريس فقد كان يوماً منحوساً . وكان هذا الاعتقاد من القوة فى العصر الفرعونى بحيث إن كثيراً من الأعمال كالبدء فى سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل من أجل هذه الأسباب .

وما زلنا الآن بعد مضى خمسة آلاف سنة نؤجل أشغالا لهذا السبب عينه .

وقد اعتدنا فى ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الأماكن التى تنام فيها أو نضعه تحت الوسادة ، وفى الصباح نكسر البصل ونشمه ، وفى بعض القرى يعلقون هذا البصل على باب المنزل . فهذه العادة مصرية قديمة ؛ إذ كان الناس فى عيد الإله « سكر » إله الموتى فى مدينة منفيس يطوفون حول جدران هذه المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم ، كما كانوا يعلقون البصل أيضاً حول أعناقهم فى الليلة التى تسبق هذا الاحتفال .

كان الطب فى مصر القديمة يختلط اختلاطاً كبيراً بالسحر ، فالعلاج بالعقاقير والأدوية كان يسير جنباً إلى جنب مع العلاج بالرقى والتعاويذ . وقد ورثنا شيئاً كثيراً من قدماء المصريين فى هـذا الباب . ففى القرى نجد الشخص إذا مرض لجأ إلى شيخ يزاول السحر ، فيكتب له تعويذة على طبق ، ثم يضع الماء فيه كى يختلط بالكتابة التى عليه ، ثم يكلف المريض بشرب هذا المنقوع لكى يشفى من مرضه . فهذه الطريقة نقلناها عن قدماء المصريين . ولدينا على ذلك الدليل : ففى المتحف المصرى يوجد تمثال من الجرانيت الأسود يقوم على قاعدة ، لكاهن ساحر يدعى زحر اشتهر بما كان يحفظه من الصيغ السحرية لعلاج مختلف الأمراض . فهذا الساحر المشهور الذى لا يشق له غبار فى فنه صنع لنفسه هذا التمثال وغطاه هو وقاعدته بالتعاويذ السحرية الواقية من عدد كبير من الأمراض لكى يستفيد به بنو جنسه بعد موته . فكان إذا أصيب أحدهم بمرض مما نصت عليه التعاويذ ذهب لصب المـاء على التمثال فيصبح الماء بعد جريانه على التعاويذ المنقوشة عليه متشبعا بفضيلة التعاويذ . وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن يغترف السائل الذى يجرى إلى تجويف القاعدة فيتناوله المريض ويشربه لكى يحصل له الشفاء .

أفليس هذا هو الأصل فى العادة التى ذكرناها ؟ أو ليست فكرة « طاسة الخضة » الموجودة لدينا الآن بما عليها من كتابات ونقوش وآيات ووضع الماء فيها لشربه هى شيء شبيه بما ذكرناه ؟ بل ما أشبه « طاسة الخضة » هذه بإناء من المرمر وجد فى مقبرة توت عنخ آمون حفر على حافته سطر من الكتابة الهيروغليفية يتضمن أدعية للملك وتعويذة لحفظه نقشت فى هذا المكان حتى

تختلط بما يشربه الملك عندما يضع شفته عليها وقت الشرب فتمنحه الصحة والسعادة .

ثم إن الأصل فى تلك الفكرة الغريبة المستهجنة التى تتملك فريقا من نسائنا والتى تتلخص فى أن فلانة عليها شيخ أو عليها عفريت ، لا يعدو الخيال الذى يدل على عقلية سقيمة معتلة من نسائنا أكثر من دلالتها على جسم سقيم أو مرض عضوى . والمسألة فوق هذا وذاك تقليد ورثناه انحدر إلينا ضمن التركة التى خلفها لنا المصريون القدماء . ألسنا نقرأ فى قصص المصريين القدماء قصة أميرة بختن وقد حلت فى جسدها روح شريرة لم يمكن إخراجها من جسدها إلا بعد أن ذهب إليها الإله خنسو بنفسه فأخرجها بقوة سحره ، أو لسنا نقرأ فى هذه القصة نفسها أن هذه الروح قد اشترطت قبل خروجها أن يقام لها احتفال فخم يشترك فيه الإله مع أمير بختن بحضور هـذه الروح ، فأقيم الاحتفال وقدمت فيـه الهدايا والقرابين والضحايا لهذه الروح أمام الإله خنسو ، فلما أخذت منها بأوفر نصيب ، وعند ما قاربت الحفـلة الانتهاء « خرجت الروح ذاهبة إلى حيث تريد » كما تقول النصوص المصرية القديمة . والآن ألا نجد فى هذه القصة المصرية القديمة تفسيرا للمصدر الذى استقينا منه هذه الحفلات الهائجة المائجة التى ندعوها « الزار » ولأولئك « الأسياد » الذين يحلوّن فى أجسام سيداتنا المصريات .

وهناك صور كثيرة تقع تحت أنظارنا فى كل يوم تطابق أشد المطابقة صوراً مصرية قديمة بتفاصيلها كما وردت رسومها على جدران المقابر . فمنازل الفلاحين فى القرى هى كما قلنا شديدة الشبه بالمنازل المصرية القديمة ؛ فهى تبنى مثلها من اللبن الذى يضرب فى قالب من الخشب بنفس الطريقة التى كان يضرب بها الطوب عند قدماء المصريين ، ثم يُرص فى الشمس ليجف . ونفس المصطبة التى نجدها أمام منازل الفلاحين الآن كانت توجد عند المصريين القدماء أمام منازلهم . بل إن الأخصاص التى نجدها الآن مقامة فى المزارع والحقول وفى جهات متعددة من القرى ، والمصنوعة من سفائف من البوص المطلى بالطين، هى أيضا كانت ذائعة الانتشار عند قدماء المصريين .

والآن ننتقل إلى صورة أخرى نراها كثيراً مرسومة على جدران مقابر طيبة، الأقصر الحالية ، وهى صورة حلاق القرية ، وقد جلس على الأرض وأمامه رجل

يحلق له فى الهواء الطلق ، أفليست هذه الصورة بعينها هى التى نجدها فى قرانا الآن ، بل فى كثير من مدننا ، بل فى العاصمة نفسها على إفريز الطريق بجوار سور حديقة الأزبكية .

ونحن إذا سرنا فى القرية رأينا فريقا من الصبية وقد حلقوا رؤوسهم ، ولم يتركوا عليها إلا خصلات متناثرة من الشعر للزينة . فهذه العادة أيضا أخذناها عن أطفال قدماء المصريين .

والآن فلنقترب من حفلة عرس لنرى ما يدور فيها . فهنا نجد المغنين وقد وضعوا أكفهم على خدودهم عند الغناء كما كان يفعل المصريون القدماء . وعلى مقربة منهم نجد العازفين على الزمارة ، وهى قصبة من البوص طويلة الساق ذات ثقوب تشبه تمام الشبه ما كان يستعمله قدماء المصريين . وهناك نجد طائفة من الراقصات وقد أسرفن فى التكحل وغمرن الخدود بالأصباغ كما تعود أسلافهن من المصريات فى العصر الفرعونى أن يفعلن ، ونجد فى أيديهن نفس الطبلة والدربكة والرق والطار التى كانت تستعملها الراقصات المصريات فى عصور الفراعنة . كما نرى الجمع وقد انتشى بشرب نبيذ البلح ، وهو نفس النبيذ الذى كان يفضله المصريون القدماء فى أمثال هذه الحفلات .

ونحن إذا تركنا هذا كله جانبا ويممنا شطر الأراضى المزروعة والحقول الواسعة رأينا فيها ما يدهشنا . فالحقول تقسم الآن إلى مربعات صغيرة لتسهيل ريها بنفس النظام الذى كان يسير عليه المصريون القدماء منذ عصر ما قبل التاريخ . ونجد الحقول وقد انتظمت المحراث وتوارثته عن المصريين القدماء ولم تغير ، مع توالى العصور عليه ، لا من شكله ولا من طريقة استعماله . كما نراها تنتظم الشادوف بشكله المتعارف عند المصريين القدماء أيضا ، يقوم على استعماله الفلاح المصرى الحديث كما كان يقوم سلفه العظيم على استعماله منذ آلاف السنين . فإذا نما الزرع واشتد عوده وآن أوان حصاده ، فطريقة قطعه هى بالمنجل وهو نفس المنجل الذى كان يستعمله المصريون القدماء بشكله المعروف الذى أخذناه عنهم . وطريقتهم فى التذرية هى نفس الطريقة التى نستعملها نحن الآن ، كما أن الأداة التى نستعملها فيها ، وهى المذراة ، هى بعينها لم تتغير منذ عصور قدماء المصريين طبقا لما نراه مرسوما على جدران المقابر .

ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفا من الرجال والماشية والدواب

وهى تسير فى الأفق البعيد ، فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المقابر والآثار . ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الإلهة المصرية القديمة نخبيت ترفرف على شكل عقاب . وهناك يطير الإله حوريس على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله أنوبيس على شكل ابن ، آوى ، فيختبئ فى الأودية والسهول . وعند موطئ أقدامنا نرى خپر يسير متمهلا فى شكل جعل صغير . وهناك تحت الشجرة المقدسة نرى الإله خنوم يرقد تحت ظلها فى هيئة كبش كبير . وهكذا فى كل جانب من جنبات الوادى وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجئ كأنها نقوش معبد فرعونى قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

وهكذا تتالى أمام أعيننا فى مصر الحديثة صور مختلفة يخيل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحولت فى لحظات إلى رسوم حية و « تابلوهات » مجسمة تنبض بالحياة .

فنحن ، كما رأينا ، نعيش فى نطاق تركة خلفها لنا القدماء ، تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التى تربطنا بها ربطاً وثيقا لا نجد إلى فصم عروته سبيلا . فنحن كما كنا وسنظل دائما أبناء للفراعنة ، وإنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين .

محرم كمال

الطفلان العاشقان

[هو فى الثالثة من عمره ، وهى فى مثل سنه أو تنقص عنه قليلا ، نشأ بينهما الحب نضارا لا يطيقان الفراق فى ليل أو نهار .]

أفديهما من عاشقيـ ... ن تشاكلا حسًّا ومعنى
غصنان فى ظلّ الصِّبا ... بذَّا غصونَ الرّوض حسْنا
ما منهما بحبيبه ... إلا أخو وَلَهٍ مُعَنَّى
إنْ غاب عنه أنَّ مُشـ ... تاقًا ، وإنْ وافاه غَنّى
قرّت به عينًا — فلم ... تألفْ سِواه — وقرَّ عَيْنا
يتعاطيان من الهوى ... كأسًا زَكَتْ غَرْسًا وَمجْنى
من خمرةٍ لم تتّخذْ ... إلاّ حنايا الصّدر دَنا
وتراهما — تحت الكرى — ... يستقبلان الطّيْفَ وَهْنا(١)
مُتَبسّمين له كما ابـ ... تسم المَرُوع إذا اطمأنّا
إنْ يغضبا فالقلبُ أبـ ... يض لم يُسئْ بالحبّ ظنّا
هى لحظةٌ تمضى وما ... حمَلا بها فى الصّدر ضِغنا
كم من ودادٍ عاد بعـ ... د الهجر وهو أشدُّ رُكْنا
ولربما أبْدى المُحبُّ (م) ... تجَلُّداً والقلبُ مُضْنى
فنٌّ من الحب الرفيـ ... ع وقد عَرفتُ الحبَّ فَنّا

---

(١) الوهن : نصف الليل .

لله حين تراهما نَزلا من الأشجار رِكنا
والزّهرُ أيقظَه النَّدى والوُرْقُ في الأوراق وَسْنَى
أمِنا الرقيبَ، وقلَّ أنْ يَلقَى أخو الصَّبَوات أمنا
«رِخشْفَين»(١) يعانق مُسْتطا راً لُبّه خِشْفاً أغنَّا
يَتَقارضان الهمْسَ يَسْرِي في ثنايا النّفس لَحْنا
لَبِسَا الهوَى العذريَّ ثَو باً طاهراً ذَيْلاً ورُدْنا
لم يَنْدَما يوماً إذا قَرَعَتْ غُواةُ الحبِّ سِنّا

☆

يا أيُّها الفَنَنَانِ لا بَرِحَ الهوى بكما مُهَنّا
ولَقيتُما أيّامَه سَعْداً يُظِلّكما ويُمْنا
لا تَسْمَعا قولَ الوُشا ةِ، ولا تُعيرا العَذْلَ أُذْنا
ولْيَرْعَ حُبَّكما العَفا فُ، فلم يَزَلْ للحُبِّ حِصْنا
لو كانَ يهوَى النّاسُ مِثْ لَكما جَنَوْا سَلْوى ومَنّا
مَثَلْتُما لى في صَفا ءِ هَواكما «قَيْساً ولبْنَى»
سَقْياً لِروضكما وحَيَّا هُ رِعهادُ المُزْنِ عَنّا

علي الجندي

---

(١) الخشف : ولد الغزال .

عدى بن زيد

نشأ عدىٌّ فى أسرة كريمة بالحيرة ، وكان أجداده أصدقاء لملوكها الذين أولوهم ثقتهم وعطفهم . وكان جده حماد أول من تعلم الكتابة ، وكتب للنعمان الأكبر. وقد توثقت صلته بمرزبان الحيرة فرّوخ ماهان ، حتى عهد إليه بتربية ولده زيد من بعده ، وقد عمل المرزبان بوصية صديقه . وكان زيد الطفل يجيد العربية فوجهه المرزبان لدراسة الفارسية والتكلم بها ، ثم أوصى به خيراً عند كسرى ونصح بأن يجعله على البريد فى حوائجه ففعل ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة . وهلك النعمان ، واختلف أهل الحيرة فيمن يولىّ من بعده إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد ، فكان ملكا على الحيرة إلى أن نصب كسرى المنذر بن ماء السماء .

ونشأ عدىٌّ بن زيد طفلا فى الوقت الذى كان أبوه ملكا فيه ، وكان رفيقاً لابن المرزبان ، يلعبان معاً ويتلقيان علوم الفارسية معاً فى الكُتَّاب الفارسى ، وأصبح عدى وشاهان مرد ، ابن المرزبان ، كأنهما أخوان . ولما قويت الصلة بين كسرى والمرزبان عمل هذا على إلحاق عدىّ بخدمة كسرى كما فعل بأبيه من قبل ، فهو ينتهز فرصة إثبات كسرى له ولولده فى صحابته ، فيرجوه أن يلحق بأبنائه هذا الفتى العربى الذكى الذى تعلم الفارسية فأتقنها ، والذى يقول الشعر بالعربية . وكان عدى جميل الوجه — والفرس تتفاءل بالوجه الجميل — فلما كلمه كسرى وجده ظريف المحضر حاضر الجواب ، فأحبه وألحقه بديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية فى الديوان . وعلا شأن عدى عند كسرى فكان يؤذن له عليه فى الخاصة .

وبينما عدى ينعم بما حظى به من عطف كسرى إذا بأعراب الحيرة يثورون على المنذر ، فإنه يعتدى على حقوقهم ، ويأخذ ما يريد منهم قسرا ، فهم يريدون خلعه ، وهو يحس ببغضهم له ، فيؤثر أن يتخلى عن عرشه ، وأن يعيش بقية

عمره فى أمن وسلام . ولكن زيداً والد عدى يصلح ما بين الملك وشعبه، ويرضى العرب برأى زيد على أن يكون له الحكم وللمنذر المُلك . وأخذ عدى يتردد على الحيرة بين الحين والحين . والناس يرون فيه الرأى الناضج ويحسون نفوذه القوى عند كسرى، فيعرضون عليه الملك ، ولكنه يأبى أن يكون ملكا، لأنه لا يحب حياة الحكام بل يريد أن يكون حرًّا طليقاً ينعم بما ينعم به من نفوذ فى بلاط كسرى ويحيا الحياة التى يحبها بين الفرس ، فإذا حن إلى بلاده استطاع أن يزورها متى شاء فيلقى من حب أهلها وتقديرهم له ما يدخل على نفسه السعادة والغبطة والبهجة الحقة بالحياة . ويشعر المنذر بما لعدى من مقام عند كسرى ، وما له من حب فى نفوس العرب، فيعمل على تقريبه منه ، ويتخذه صديقاً ويعهد إليه بتربية ابنه النعمان .

وكان للمنذر غير ابنه النعمان أبناء كثيرون يسمّون الأشاهب لجمالهم ، وأظهرهم الأسود الذى تربى فى حجر بنى مرينا . فلما احتُضر المنذر أوصى بأبنائه إلى قبيصة الطائى وملّكه الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه . ويفكر هذا فى أن يغضّ النظر عن هؤلاء الأمراء الصبية ، ويرغب فى أن يولى على الحيرة أميراً فارسيًّا . ولكن عدى بن زيد يذود عن العرب وهو فى بلاد كسرى . إنه يذكر للمنذر أنه منع الأعراب من أن يأخذوا ماأعطوه لأبيه من جمال الديات . ويذكر قوله : « لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد ثفروق وأنا أسمع الصوت . » ثم إنه يريد أن يحفظ للنعمان الذى تربى فى حجره ولاية عرش أبيه وأجداده . ويسأل كسرى عديًّا عمن بقى من آل المنذر وهل بقى فيهم أحد فيه خير؟ فيجيبه : « إن فى ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير » . فقال كسرى : « إبعث إليهم فأحضرهم ؛ فبعث فأحضرهم ثم أنزلهم جميعاً عنده » .

ودعا عدى النعمان فوعده بأنه سيملكه الحيرة ، ولكنه سينتقص من قدره أمام إخوته وسيظهر لهم من المودة والاحترام مالا يظهر له ، لأنه يريد أن يغترهم بذلك حتى يمكِّن له عند كسرى . وجمع الأشاهب فأوصاهم بالتأدب على المائدة . وقال : « إذا دعاكم كسرى للطعام فالبسوا من ثيابكم أحسنها ومن زينتكم أعلاها، وتباطئوا فى الأكل وصغروا اللقم وتزروا ما تأكلون فإن الفرس قوم ذو مدنية وحضارة، وهم لا يأكلون نما يأكل العرب، إنهم يتذوقون الطعام تذوقا ولا يزدردونه ازدراداً » . قال : « وإذا سألكم كسرى ، أتكفوننى العرب؟ قولوا

إنا نقدر عليهم ولكن لا نقدر على أنفسنا ، حتى لا يطمع فى أن يضرب بعضكم ببعض ، وحتى تظل مهابة العرب موفورة فى نفوس الفرس» . وخلا عدى بصاحبه النعمان فنصحه بأن يتجوّع وأن يدخل غرفة الطعام فى ملابس السفر، وأن يسرع فى المضغ والبلع ويكبر اللقم ويزيد فى الأكل ، وألا يحفل بما حوله من مظاهر المدنية الفارسية المترفة . قال : «وإذا سألك : أتكفينى العرب؟ قل نعم . فاذا قال وإخوتك؟ فقل إذا عجزتُ عنهم فإنى عن غيرهم لأعجز» . ودخل الأشاهب على هرمزد ابن كسرى وقدّمهم إليه عدى بن زيد ، فأعجبه جمالهم وحسن زيهم ، ولفت نظره هذا الأحمر الأبرش القصير الذى لايحفل به عدى بن زيد كثيرا . ودخل هرمزد إلى غرفة الطعام ومعه الأشاهب فرآهم يأكلون كما يأكل أهل الحضر يتباطئون ويتأنقون ، عدا هذا الأحمر الأبرش القصير فقد جلس إلى المائدة وكأنه فى مخيمه ، فهو يُقبل على الطعام بشهية فيقطع اللحم بيديه ويزدرده ازدراداً ولا يكاد يلتفت إلى شىء إلا لما يتهيأ للانقضاض عليه . ونظر كسرى فأطال النظر إلى هذا الفتى ، والتفت إلى من حوله وقال بالفارسية : «هذا أصلحهم للملك» . ورفع الطعام وأخذ كسرى يسألهم فرداً فرداً عن العرب فيجيب كل منهم بما أملاه عليه عدى ، حتى إذا كان هذا الأحمر الأبرش القصير قال: «أكفيك العرب وإخوتى جميعاً» . فقام كسرى وألبسه التاج ونودى به فى البلاط ملكا على الحيرة .

وعاد عدى مع صاحب الملك وعاد الأشاهب ومن بينهم الأسود ووليه عدى ابن مرينا . وأراد عدى بن زيد أن يصفو الجو للنعمان وأن يزيل ما بالنفوس من ضغائن وأن ينزع ما فيها من غل ، فدعا ابن مرينا وأصحابه إلى طعام فى بيعة . وبعد الطعام قال له عدى بن زيد : «يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يَلُمْ عليه من كان مثلك ، وإنى قد عرفت أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبي النعمان، فلا تلمنى على شىء كنت على مثله . وأنا أحب ألا تحقد علىّ شيئاً لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطينى من نفسك ما أعطيك من نفسى ؛ فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك» . وقام إلى البيعة فحلف ألا يهجوه أبداً ولا يبغيه غائلة ولا يزوى عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدىّ بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف مثل يمينه ألا يزال يهجوه أبداً ويبغيه الغوائل مابقى .

وتوثقت الصلات بين عدى بن زيد والنعمان ، وكان هذا يستشيره فى أموره ويعمل برأيه . وقد بلغ من تأثر الملك بعدىّ أن ترك الوثنية واعتنق النصرانية

بنصيحته [1] . ولكن عديا لم يكن يطيل الإقامة فى الحيرة ؛ فهو من أصحاب كسرى الأقربين ، وهو يؤثر البقاء فى فارس حيث الترف الذى ألفه منذ صباه . فينتهز ابن مرينا فرصة ابتعاد عدى بن زيد عن النعمان ليتقرب منه . وكانت السبيل إلى هذا التقرب ميسورة ؛ فقد كان ابن مرينا غنيا وكان يستعين بأموال الأسود ، فكان يبعث بالهدية تلو الهدية إلى النعمان ويتردد عليه ولا يترك مجلسه ، فاتخذ النعمان منه صديقا أمينا . ولما أحس ابن مرينا بتمكنه من النعمان أخذ يدس لعدى بن زيد ، فصوره وقد استعلى على النعمان لأنه صاحب الفضل عليه . وأحس أهل مجلس النعمان بما لابن مرينا من منزلة وبما لقوله من أثر فكانوا يتملقونه بالموافقة على آرائه وتأكيد ما يصدره من أن عديًّا لا يؤمن شره . ومهما تكن طبيعة الوسائل التى تذرع بها ابن مرينا فى الوقيعة بين الصديقين فإنه نجح فى السعى بينهما والإيقاع بعدىٍّ .

وبعث النعمان إلى عدى عند كسرى يدعوه لزيارة الحيرة فاستأذن فاذن له . وما كاد يدخل الحيرة حتى أخذوه فألقوه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد . وأدرك عدى بن زيد أن خصْمه ابن مرينا قد أفسد ما بينه وبين الملك . فكتب إلى النعمان يشكو إليه سعى أعدائه به ، ويذكِّره بما كان من أمر نصره له والأخذ بيده حتى علا العرش :

سعى الأعداء لا يألون شراً ... علىّ وربٍّ مكة والصليب
أرادوا كى تمهّل عن عدى ... ليُسجن أو يُدَهْدَهَ فى القليب
وكنت لزاز خصمك لم أُعرّد ... وقد سلكوك فى اليوم الخصيب
أُعالنهم وأبطن كل سر ... كما بين اللحاء إلى العسيب
ففزتَ عليهمُ لما التقينا ... بتاجك فوزة القِدْح الأريب

ثم شكا ما لقى من الحبس والقيد ومصادرة الأموال، وقد أصبح بيته مقفرا إلا من زوجات أرامل هلكن من النحيب :

أحَظِّى كان سلسلةً وقيداً ... وغُلاًّ والبيانُ لدى الطبيب

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ص ٧٤ .

أتاك بأننى قد طال حبسى ... ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفرٌ إلا نساءٌ ... أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدىٍّ ... كشنٍّ خانه خَرْزُ الربيب
يحاذرن الوشاة على عدىٍّ ... وما اقترفوا عليه من الذنوب

ثم يستعطفه ويعتذر إليه عما قد بدر منه :

فإن أخطأتُ أو أوهمت أمراً ... فقد يَهِمُ المصافى بالحبيب
وإن أُظلِمْ فقد عاقبتمونى ... وإن أَظلَمْ فذلك من نصيبى

وأخيراً يقول له إنه سيندم عليه إذا افتقده فى الشدة فلم يجده :

وإن أهلك تجد فقدى وتُخْذَلْ ... إذا التقت العوالى فى الحروب

وكان كثير الضيق بهذه الأغلال التى شدوه بها . وقد زارته أمه فساءه أن رأته وقد أوثقوه وهو ينصحها ألا تقترب منه وألا تحاول معانقته، فإن المصفَّد بالأغلال لا يروق له عناق :

ولقد ساءنى زيارة ذى قر ... بى َحبيب لودنا مشتاق
ساءهُ ما بنا تبيَّن فى الأ ... يدى وإشناقها إلى الأعناق
فاذهبى يا أميمَ غير بعيد ... لا يُؤاتى العناق من فى الوثاق
واذهبى يا أميم إن يشأ اللّه ... ـه بنفسى من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيل النـ ... ـاس لا تمنع الحتوفَ الرواقى

ثم يخاطب إخوته طالبا منهم أن يغيثوه ويخلصوه من سجنه :

وتقول العُداة أودى عدىٌّ ... وبنوه قد أيقنوا بغلاق
يا أبا مُسهر فأبلغ رسولا ... إخوتى إن أتيت صحن العراق
أبلغَنْ عامراً وأبلغ أخاه ... أننى موثق شديد وثاقى
فى حديدِ القسطاس يرقبنى الحا ... رس والمرء كل شىء يلاقى
فى حديد مضاعف وغلول ... وثياب منضحات خلاق
فاركبوا فى الحرام فكّوا أخاكم ... إن عِيراً قد جهّزت لانطلاق

وأخذ عدى يرسل القصيدة تلو القصيدة للنعمان مستعطفاً ، والنعمان لا يأبه له ، ويكتب الشعر لأعدائه ناصحاً تارة ، ومهدداً تارة أخرى فلا يلتفت إليه أحد منهم . وكان له أخ اسمه أُبَىّ كان قد ألحقه بديوان كسرى ، فكتب إليه شاكياً ما يلقاه من سجن وقيد . ورفع أُبىّ أمر أخيه إلى كسرى فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه . ولكن خليفة النعمان أرسل إليه بما كان من أمر كسرى ، ثم إن جماعة من خصوم عدى جاءوا يَعْدُون إلى النعمان وحدثوه بأنهم رأوا رسول كسرى يدخل السجن ويقابل عديًّا ، وأن الرسول فى الطريق إليه ، نخشى النعمان إن ترك عديا حيًّا أن يخرج من السجن فينتقم منه ، فأرسل إليه جماعة فغمّوه حتى مات . وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأحسن وفادته وتلقى رسالته ثم أبلغه أن عديًّا قد مات .

ولم يكد ابن مرينا يتخلص من عدوه الأكبر عدى حتى أظهر النفور والبغض للنعمان ، فانه لم يكن يريده ملكا على الحيرة ، وإنما كان يسعى للأسود . وأحس النعمان بما كان من حقد ابن مرينا على عدى والإيقاع به عنده ، فندم على ما كان من قتله ، وأخذ ولده زيداً فأحسن رعايته، ثم بعث به إلى كسرى راجياً أن يكون خلفاً لأبيه .

وقبل ملك الفرس زيداً وولاّه وظيفة أبيه . وكبر زيد وزادت منزلته عند كسرى ، وفى نفسه أن يكيد للنعمان انتقاماً لأبيه . وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم ، وكانوا يبعثون إلى الأطراف فى طلبها ، ولكنهم لم يفكروا فى بلاد العرب لظنهم أنها خالية منها . ودخل زيد ذات يوم على كسرى فوجده يتحدث فى ذلك القول ، فقال له : «إن عند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة» . وأراد أن يُحكم انتقامه فحدّث كسرى بأن شر شىء فى العرب ، وفى النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم . والتمس من كسرى أن يذهب بنفسه إلى النعمان حتى لا يغيبهن أو يعرض غيرهن ، فبعثه كسرى ومعه رسول من عنده . وأقبل زيد والرسول على النعمان فأبلغاه الرسالة. فقال: «أما فى مها السواد وعِين فارس مايبلغ به كسرى حاجته؟» فسأل الرسول زيدا: «ما المها والعِين؟» فقال له بالفارسية: «كاوان أى البقر» . واعتذر النعمان عن تلبية طلب كسرى . فرجع زيد ومعه الرسول فحدثا الملك برفض النعمان ، وقال زيد: «إنى خبرتك يا مولاى بضنهم بنسائهم على

غيرهم وأن ذلك من شقائهم ، وإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال » . فسأله كسرى الرسول فقال: «إنه أجابنا بقوله أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟» فغضب كسرى ووقع فى قلبه منه ما وقع ، وقال: «رُبَّ عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب» .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، فأصبح فى حيرة من أمره : أيحارب كسرى ذوداً عن الأعراض وهو لا يقوى على قتاله ؟ أم يبعث بزوجاته وبناته وأخواته إليه ، وهو ما يأباه الرجل الحر ؟ واستجار برؤساء العرب فلم يُجِرْه أحد منهم فليس منهم إلا خائف من كسرى طامع فى رضاه . فأودع أهله رئيساً من العرب ، ثم سار إلى كسرى الذى بعث يطلبه .

وقابله زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له : أَنْجُ نعيمُ إن استطعت النجاء. قال : أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك .

قال زيد : إمض لشأنك نعيم ، فقد والله أخّيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرِن .

ولما بلغ كسرى أن النعمان بالباب أمر بقيده وإلقائه فى السجن ، فظل به إلى أن لقى حتفه .

وهكذا انتقم زيد لأبيه الذى مهّد للنعمان بلوغ الملك ، والذى قال له وهو سجين :

نحن كنا قد علمتم قبلكم . عَمَدَ البيت وأوتاد الإصار

يحيى الخشاب

من هُنا وهُنالك

عبد الحق حامد وأفكاره الفلسفية

قبل أن أدلى ببيان رأى نحو أفكار شاعر مفكر جليل القدر مثل عبد الحق حامد يحسن بى أن أورد نبذة عن شخصيته المعنوية وطبعه الشاذ ؛ فان هذه هى القاعدة المعتبرة والدأب المقبول لدى الناقدين .

ولكنى آسف لعدم كفاية وقتى ، وهذا ما جعلنى لا أقف منه موقف الناقد ، فأردت مع ذلك أن أضع بالاختصار تحت ضوء البحث فى عدة صفحات شيئاً مما قد يثير الفضول مما درسته عن هذا الموضوع. وإنى أؤكد للقراء المحترمين أن ما سوف أقوله إنما هو صورة صادقة لظنى الغالب الذى سيطر على فكرى نتيجة بحثى الذى قمت به بصبر ودقة .

إن شخصية حامد المعنوية معقدة جداً . وهى تكاد تضرب مثلا لفطرة متعددة الوجوه أعنى أنها تجمع فى نفسها نماذج من شخصيات متخالفة ومتنوعة . ولذلك أعتقد أنه لا يكون صحيحاً أن نعتبرها شخصية واحدة ، وإن كانت وحيدة فى تاريخ أدبنا كآية للعبقرية .

إن حامداً للفظ مشترك، بل إنه لاسم جامع، وإلى هذا الاسم تنسب شخصيات معنوية مختلفة كلها على فطرة متفاوتة .

وهو ذاته قد أدرك هذه الحقيقة ، فقال للتعبير عن معنى التضاد الموجود فى طبعه :

حقيقة ايكى شخصم بن ، اعتقادمجه : برى
هميشه مبشر ، برى مكدر در !

[ما أنا إلا شخصان، وفى اعتقادى أحدهما أن مبشر والآخر مكدر .]

ولقد يفهم أن قائل هذا البيت يعرف — وهو ليس بطبيب — أنه يكون نموذجاً لتلك الظاهرة الروحية الغريبة المسماة « ثنائية الشخصية » ويعتقد أنه هكذا ويعترف ، هذا صحيح ! ولكنه يقوله من وجهة التشاؤم والتفاؤل. ولعله من المستطاع أن يقال إن المعنى الذى أقصده أنا لم يخطر قط بباله . إذن لا نبالغ كثيراً ولا نعد حالة الشاعر مطابقة للأعجوبة الروحية المشهورة عند الأطباء النفسانيين .

وفى الحقيقة قد يوجد فى بعض الأشخاص الثنائية الشخصية . ونحن نعتبر هذه الثنائية لأسباب عدة حالة مرضية . ومثلا قد ظهر بعد البحث والاختبار أن بعض الناس يعمل بفعل الروحين ، أنهم يعملون كشخصين متفاوتين ليس بينهما أدنى تشابه، وأن أحدهما بعد أن يظل يظهر معنويته لمدة وبطابع معين يزول عن الوجود، أو على تعبير علماء النفس يغادر المسرح ثم يظهر كأنه متجرد من الروح الأولى ويعمل على فطرة أخرى ، هذا الشخص الثانى ليس بالشخص الأول وهو على نقيضه تماماً سواء أكان ذلك من حيث الفكر أم الاعتقاد أم الخلق . والغريب أن هاتين الشخصيتين المختلفتين ليستا على اتصال الواحدة بالأخرى ولكل منهما ذاكرة خاصة ، ولكل منهما حرم يحيط بمعنويتها ، كل منهما تمثل دورها على المسرح أى تعمل بحكم شخصيته وتتذكر أعماله السابقة وتواصل حياتها المعنوية بعد استئنافها من المرحلة التى تركتها فيها .

ولولا أن اعتقاد التناسخ باطل بالبداهة لكان الانسان يستطيع أن يدعى أمام هـذا الحادث العجيب : أن روحين مختلفتين تترددان على قالب الجسم نفسه دون أن تشعر إحداهما بالأخرى ، وتتصرفان فيه بالتناوب !

وهناك الظاهرة الغريبة التى نسميها بالثنائية الشخصية ولها أنواع ، والأطباء الاخصائيون يعدون هذا النـوع منها مرضاً خاصاً ينهك الشخصية .

والشاعر المشهور الذى أتشرف بمعرفته جيـداً ليس ولا شك شخصا عجيباً مثل هذا وأنا كفيل بذلك . وإذا قلت : إنه من ذوات الشخصيات العديدة فلست أقصد المعنى المذكور تماماً ، فأرجو ألا يفهم ذلك خطأ . فكل ما أريد أن أقوله هو أن لروح حامد مظاهر متنوعة ولذكائه تجليات ولطبعه ميولا مختلفة . ولكنها تكون فى ذات حامد سجايا بذلك البروز والاستقلال، بحيث إنها تكاد تكفى لتمييز شخص بشاكلته الخاصة . وهذا النوع من الانسان ليس نادراً ، وليست هـذه الفطرة من شأن الشخصيات العظيمـة بالضرورة ، وإن هى إلا فطرة جبلت عليها فحسب .

وإنى إخال أن لحامد شخصيات عديدة ، لا شخصيتين . أعرف منها ثلاثا ، وكتبت هذه الرسالة لتقدير إحداها حق قدرها .

أولا إن له روح طفل دهشة مرحة غير خاضعة للنظام بل ثائرة فى بعض الأحيان . ولقد غمرها فيض إلهى فاحتفظت بشبابها ولم تعرف الهرم . وأصدقاؤه المقربون عاشروها مدة طويلة ورضوا عنها رغم مجونها ، لأنهم واثقون من أنها بريئة وليس من شأنها أن تكبر فهى فتيـة دائماً !

أليس الشاعر كالطفل فى فطرته ؟ وما الطفولة بضارة ما دامت لا تعكر صفو العبقرية . أو لم يكن كذلك لورد بايرون ، بول فرلين وروبرت لوئيس ستيوفنس وكثير من كبار الرجال ؟

وليست معنوية الطفل هذه لا تضر شاعرنا فحسب بل هى تفيده بحيث لا يمكن تقديرها حق قدرها . حينما تضيق روح الشاعر ذرعا بالافتراضات غير المجدية للعقل الذى يشعر بعجزه وينعقد لسـانه أمام أسرار الغيب ، يلتجىء الشاعر المسكين إلى معتقدات الطفولة البريئة الخالصة فيجد فيها شيئاً من العزاء . هذا الرجل الذى تقلق باله فكرة الانعدام إلى الأبد ، يسليه عنها النظر إلى وجوه الأطفال ، فيخيل إليه أن الذين مضوا يعودون فيهم إلى الحياة ، فيتسلى برؤيتهم على محياهم . ومثلا أنه أوضح جيداً جداً كيف شعر بسرور مؤلم حينما لاحظ أن أما ماتت قد عادت إلى الحياة فى شخص بنتها .

والشاعر بعد أن خاطب أولاده ولا سيما ابنته ونبه عليها قائلا :

شاعر ده چوجوقدر ، أى تيزم ! بيل .

[اعلمى يا بنيتى أن الشاعر طفل أيضاً !]

برهن على ما أوردته بالأبيات الآتية :

جوق مسئله حل ايدر وجودك
بازيچه سى دراو دست جودك
سن سك نبلان اول مزارى تأويل
عمرم اوله جق سنكله تكميل .
بن سنجه او يونجاغم مسلم .
سن سه بكا برغريب تمثيل .
سندن بولورم بو دم تسلى
لكن اونه برألم تسلى ؟
برطرز بيانله آكلا شيلماز ،
فريادو فنانله آكلا شيلماز !

[إن وجودك لمفتاح لحل مسائل كثيرة
وهو لعبة بيد الخالق الكريم
وما وجودك إلا تأويل للقبر
وما أنت إلا تكملة لعمرى
وما أنا إلا لعبة فى يديك
أما أنت فآية عجيبة لى

وليس لى عزاء سواك الآن
ويا له من عزاء مؤلم !
لا أملك بياناً ولا نوحا لتبيينه .]

عندما تعجز كل الأفكار الفلسفية أن تسد فراغ القبر ييأس الشاعر من الاهتداء إلى وسيلة لشفاء آلام روحه العميقة القاسية، فيجد النظريات الفلسفية والمعتقدات كلها عبارة عن أقوال باطلة لا غناء فيها، وحينئذ يرجع إلى الطفولة ، ويرى اعتقادهم أولى بصفاء الضمير ؛ وفى قوله :

سزلرده كى اعتقاد ، خوشدر .
اك دوغروسى او ، بزمكى بوشدر .

[إن اعتقادكم أحسن وأصح
أما ما عندنا فهو واه]

ما يثبت ما أسلفته ..

وإذا كان الانسان لا يدرك — كما يرى الشاعر — حقيقة الأشياء وعلة الكون وغاية الحوادث : أى سبب الحياة وسر الممات ، وقف موقف المتفرج من جريان الوقائع. وإذا لم تكن المعرفة سوى ذلك ، فإن معرفة الأطفال وحكمهم الذى يصدرونه عفواً وبسذاجة لجدير بالرجحان ، إذ الأولى هو عدم المعرفة .

وهو يستمد من روح الطفل تلك عندما لا يجد فى جريان الحوادث نظاماً ، وفى الكون غاية معقولة، أى حين يقع فى الشك وهو يمعن النظر فى مشكلة العلة النهائية . ولا غرو أنه تصور الله كالطفل الأكبر تحت تأثير هذه المشكلة. وهذا يعنى أنه عند ما لا يرى نظاماً فى العالم يتحرر من قبول عقدة الايجابية..

نقلها إلى العربية ابراهيم صبرى

توفيق رضا

جناية

كتب إلينا الأستاذ حبيب زحلاوى ردا على ما أثير حول القصة التى نشرت له فى أحد أعداد هذه المجلة ، وظهر أنه سبق أن نشرها فى إحدى المجلات الأدبية تحت عنوان آخر . ولسنا نحب أن نعود إلى ما كتبناه عن ذلك فى العدد السابق . غير أننا نقول إن ماذكره الأستاذ عن علم سكرتير التحرير بسابق نشرها لايمكن أن يطابق الواقع ، كما أن تغيير العنوان إنما كان بعمل الأستاذ مؤلف القصة وبخطه ، ويثبت ذلك أصلها المحفوظ فى الدار . وللأستاذ رأيه فى مبدئه الخطر عن حق المؤلف فى بيع المقال الواحد لأكثر من ناشر . ولم يبق بعد ذلك إلا أن ننشر خطابه بدون تعليق :

حضرة المحترم سكرتير تحرير مجلة الكاتب المصرى

أت فى العدد التاسع من المجلة ، كلمة بعث بها أديب من العراق إلى رئيس التحرير يستنكر فيها نشر قصتى « جناية » التى نشرت بالعدد السابع من المجلة ، ويقول إنها نشرت من قبل ذلك بمجلة « الرسالة » بعنوان آخر .

وقرأت أيضاً تعليقك على تلك الكلمة .

وقد بدا لى أن أهمل الرد عليها تجاوزا عن الروح الذى أملى عليك ذلك التعليق ، واستخفافا بالواقعة نفسها ؛ لأن طبيعة القصة تقبل النشر فى أكثر من صحيفة ، وفى أزمان

متفاوتة البعد ما دام فيها ما يكفل لها ذلك من عناصر الحياة وخصائص البقاء. ولكنى أتناول الرد على التعليق بالمقدار الذى يضع الأمر فى نصابه، ويجرد المسألة من الزوائد التى حشرها السائل بسؤاله، والكاتب فى كتابه.

عرضت عليك — باتفاق بينى وبين رئيس التحرير — قصة «لقيط» (وقد نشرتها مجلة «الكتاب») ، فأبيت أخذها بحجة أن فيها ما يمس فتاة مجندة فى الجيش البريطانى ، فعرضت عليك مجموعة قصصى المعدة للنشر وتركت لك حرية الاختيار، فاخترت أنت القصة التى نشرتها لطابعها الشامى البديع . ولكن عنوانها «الجارم» لم يعجبك ، فاستبدلنا به عنوانها الجديد وهو «جناية» وكتبته فى رأس القصة بقلمك وحبرك ثم نشرتها . ولما تلاقينا بعد ذلك لقيتنى ببشاشة ظاهرة وابتسامة عريضة ، وقلت لى : «متى تتحفنا بقصة جديدة لم يسبق نشرها» فاعتذرت لك بانصرافى إلى كتابة القصة الطويلة ، وانتهى الأمر .

إذن كان المعلوم أنك اخترت قصة نشرت من قبل ، وكان المفهوم أنك تقرأ مجلة كمجلة «الرسالة» ، فما معنى أن تسألنى الرأى فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟ ولكن أليس من حق أن أبيع قصة لناشر سبق لى نشرها ؟

أقول : بلى ! هذا من حق وليس لمخلوق أن ينازعنى فيه ، وإلا فما رأى الأستاذ حسن محمود فى موضوع أو موضوعات أدبية يذيعها أديب بالمذياع فيأخذ عنها أجرا ، ثم ينشرها فى صحيفة أو أكثر فينال عنها أجرا ، ثم يجمعها فى كتاب ويقدمها للناشر فيأخذ عنها أجرا ، ثم تترجم إلى لغات أجنبية وتنشر فيقبض عنها أجراً ، فهل ينطبق تصرف هذا الأديب على تصرف التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

اللهم كلا !

نشرت صحيفة «كانديد» الفرنسية قصة متسلسلة عنوانها «سيدة فى نافذتها» لقصصى يدعى دريـه لاروشيل ثم نشرتها بعد ذلك مجلة «باريس» فى عدديها ٢١ — ٢٢ الصادرين فى أول وفى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ من سنتها السادسة والعشرين ، فانهالت كتب القراء تحمل الشكر لقلم تحرير «مجلة باريس» التى يسرت لهم قراءة القصة دفعة واحدة . وهل فعلت سوى أنى نشرت قصة فى عدد واحد من «الكاتب المصرى» كانت نشرت فى مجلة «الرسالة» مسلسلة فى جملة أعداد ؟ وهل فى هذا الأمر الذى اتفقنا عليه معاً ما يستوجب اللوم ويستحق الانتقاد ؟

حبيب الزحلاوى

شهريات

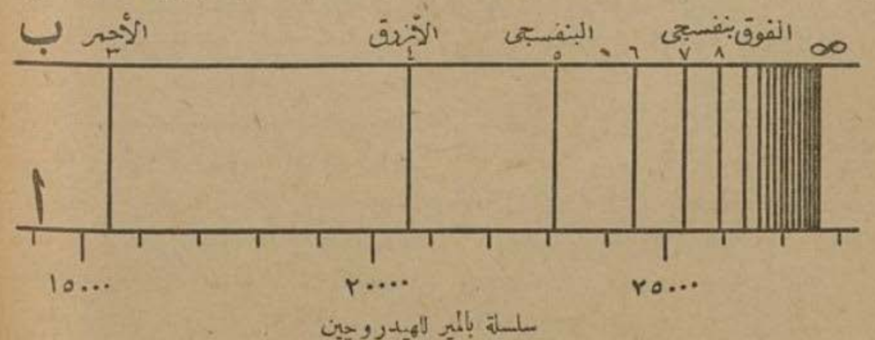
شهرية العلم

الألكترون الحائر وبوهر العظيم

فالمان : عالم ألكتروني عاش فيه البشر ملايين السنين، وأكبر خصائصه انبعاث الضوء والكهرباء ، وعالم نووى يشغل العلماء مرجعه نواة الذرة . وأظن أننا سنعيش فيه ملايين أخرى من السنين إن لم ينقطع بفعل الانسان حبل الحياة على الأرض . ولقد تحدثت عن العالم الألكتروني فذكرت أن ذرة كل عنصر تتركب من نواة وسطى يدور حولها عدد من الألكترونات كما تدور الأرض حول الشمس . وإنى لا أدخل فى أصل الفكرة عند رذرفورد ومدرسته اللذين افترضا للمادة هذا النظام الشمسى ، ومع ذلك فانه لا يكفى أن يفترض رذرفورد ذلك ليكون افتراضه صحيحا ؛ فالعلم يتطلب التحقيق من طريقين طريق البحث النظرى وطريق العلم التجريبي . ويتلخص الموقف فى نظريتين ، إحداهما تعتمد على افتراض حركة بندولية لا حركة دورية للألكترون داخل الذرة ، وهذه تفسر الانبعاث الضوئى ولا تفسر مواضع خطوط الطيف . والثانية تفترض للألكترون حركة دورية حول النواة ، وهذه لا تفسر خطوط الطيف إلا على حساب حركة تقدمية للألكترون نحو النواة ، وهو ما ليس حادثاً ؛ لعدم تغير مواضع خطوط الطيف .

وهكذا لم يمكن الاحتفاظ فى بادئ الأمر بنموذج رذرفورد الشمسى ، وهو النموذج المحبب إلى العلماء ، مع تفسير فى الوقت ذاته للانبعاث الضوئى ووجود الخطوط الطيفية فى مواضع ثابتة . صعاب تتلوها صعاب لم يمكن التغلب عليها إلا فيما بعد . على أن مهمتى اليوم أن أشرح كيف تغلب العلم على هذه الصعاب ، وكيف ثبت للعلماء دوران الألكترون المستمر حول النواة ، وكيف أمكن مع هذا تفسير الانبعاث الضوئى وتحديد مواضع الخطوط .

ولعل بدء النجاح فى التغلب على هذه الصعاب يرجع إلى مجهود رجل متواضع ، مجهول الاسم فى زمانه ، له مكانته اليوم بين العلماء المحدثين ، هذا الرجل هو بالمير الذى ظل منزويا فى قاعات التدريس فى ثانوية بال بسويسرا . عكف بالمير عام ١٨٨٥ على دراسة طيف الهيدروجين الذى تظهر له



سلسلة بالمير للهيدروجين

خطوط رأسية تقترب بعضها من بعض ابتداء من خطوطه الأولى فى الأحمر نحو البنفسجى كما فى الشكل ، وقد اتضح له فى بادئ الأمر عدم وجود نظام معين بين أوضاع هذه الخطوط ، ولكنه وجد أن هناك ارتباطا بينها وبين بعض ، كما لمس مثل هذا الارتباط لطيف العناصر الأخرى . وهكذا أصبحنا بعمل بالمير أمام دالة رياضية تشمل متغيرين أحدهما طول الموجة والآخر ترتيب الخط الطيفى ، بحيث وجدت علاقة لأول مرة بين الأعداد الصحيحة وموضع هذه الخطوط .

ولسهولة علاقة بالمير ولشعورى باهتمام فريق من القراء ببحوثه ، بل ولأهمية هذه البحوث ، أذكر أنه إذا فرضنا أن :

ا عدد الذبذبات الضوئية فى الثانية أى التردد

و ب ترتيب الخط الطيفى فى الهيدروجين

و حـ عدد ثابت يسمى ثابت ريدبرج ومقداره :

$$١٠٩٦٧٧و٧٦ \ (\text{س.م})^{-١}$$

فان علاقة بالمير تكتب كالآتى :

$$ا = حـ \left(\frac{١}{٢^٢} - \frac{١}{ب^٢} \right)$$

ويلاحظ أنه إذا عوضنا فى السلسلة المتقدمة العدد ب بترتيب أى خط ابتداء من الخط الثالث نحصل على التردد الخاص بهذا الخط ، وبالتالى على طول موجته ، وقد طابق هذا الواقع إلى حد كبير .

ظلت أعمال بالمير منذ سنة ١٨٨٥ لا تجد تفسيراً إلى أن قام عالم دانمركى يافع فى سنة ١٩١٣ بالخطوة الحاسمة فى هذا الموضوع ، وهذا التاريخ الأخير يجب أن يذكره الانسان بكثير من الاهتمام ، فقد عرف نايلز بوهر لأول مرة أن هذه السلسلة لبالمير تجد تفسيراً علمياً لو أننا استخدمنا فكرة الكم عند بلانك ، وهو الذى يقول إن الطاقة ظاهرة غير متصلة ، وإنها لا تحدث إلا بكم معين أى بوحدة معينة . وتطلع بوهر بثاقب فكره نحو الالكترون محاولا أن يعطيه نموذجاً يتفق وفكرة الكم السابقة ، نموذجا يفسر به الانبعاث الضوئى ، مع الاحتفاظ بنموذج رذرفورد السابق .

حدثنا العلماء أن المادة لا توجد إلا بكم ووحدة معينة هى حبيبات ذرة العنصر ، وأن الكهرباء لا توجد إلا بكم معين أى وحدة لا تتجزأ هى الالكترون . ويحدثنا بلانك أن الطاقة فى هذا الكون مهما كان نوعها لا توجد بدورها إلا بكم معين لا ينقسم إلى وحدتين . ولندرك ذلك أذكر أننا إذا أردنا مثلا أن ندعو عدداً من الناس لتناول الطعام ، فاننا مخيرون أن ندعو ثمانية أشخاص مثلا أو تسعة او عشرة الخ . . . ، ولكننا لا نستطيع أن ندعو تسعة أشخاص ونصف شخص ، إذ الانسان موجود فى الخليقة بوحدات معينة ويستحيل وجوده بأنصاف هذه الوحدات — كذلك الحال فى الطاقة التى لا توجد فى الخليقة إلا بوحدة معينة وكم معين .

هذا الكم للطاقة تطلع إليه بوهر ليوفق بين أعمال جليلة لبالمير صاحب السلسلة ، وأعمال هامة لبلانك صاحب الكم ، وأعمال أخرى لرذرفورد صاحب النموذج الذرى المحبب إلى العلماء لانسجامه مع بقية الكون . وهكذا بدأ بوهر عمله محاولا تفسير الشفرة التى عثر عليها بالمير ، وكأن بوهر يقول : « ليست هذه الورقة لبالمير عديمة القيمة ، إنما هى ورقة تحتاج إلى من يطالعها » . وهكذا تشبث بوهر بهذا المستند ، وهو يقول للعالم أجمع : « أعطونى وقتاً كافياً لعلى أوفق لقراءة هذه الرسالة العجيبة » .

والآن دعونا نسأل لماذا نرى فى الصوديوم خطوطاً طيفية معينة ، ونرى للهيدروجين خطوطا أخرى ؟ دعونا نسأل هل هناك علاقة بين ما نراه وبين ما هو داخل الذرة ؟ إننا لم نر لهذه القطعة من الصوديوم هذه الخطوط إلا بعد أن هيجناها فى اللهب — ترى ماذا جرى فى عالمها الالكترونى ؟ وما هذا النوع من الاضطراب ؟ وما الذى طرأ على الالكترونات الدائرة داخل ذرات هذا الصوديوم؟ ترى ما الذى حدث للصوديوم أو للهيدروجين أو غيره من أحداث عالمية جعلتنا نرى لكل منها خطوطه المنتظمة ؟

هنا احتفظ بوهر العظيم بنموذج رذرفورد ولكنه لم يوافق على ميكانيكا لورنتز البندولية ولا على تلك الفكرة التى تفسر الانبعاث الضوئى تفسيراً خاطئاً ، من تقدم مستمر للألكترون نحو النواة عند دورانه حولها . وأصر بوهر على أن الالكترون يدور ، ولكنه يدور فى مدار ذى قطر معين أو مدار آخر محدد ، وحسب أن لكل مدار كمية معينة من طاقة ألكترونية تزداد بازدياد المسار ، وفى هذا ازدياد لطاقة الالكترون الكامنة ، وهى الطاقة التى يعطيها كاملة فيما لو وقع فى النواة مثلا . وهنا أدخل بوهر فرضاً جريئاً له علاقة بكم بلانك متقدم الذكر ، فقرض أنه لا توجد مسارات للألكترون إلا تلك التى تطابق التغير فى الطاقة بمقدار كم واحد . وهنا حسب هذا الكم الذى يرتبط بمقدار المسار وتتبع فى ذلك الأعداد الصحيحة ١ ، ٢ ، ٣ الخ وكأنه فرض فى الحيز حلقات معينة حول النواة لا يمكن للألكترون أن يدور إلا فيها . وأظن أنه يمكننا أن نفترض فى الحيز هذا النوع من عدم الاتصال بجوار المادة . بمعنى أنه يصح لنا أن نفكر أن وجود المادة تفرض على الحيز بجوارها أو عندها فرضية بوهر العظيمة المتقدمة . وهو رأى خطر لى أرجو أن ينال موافقة العلماء المعاصرين .

ولقد حاول بوهر بهذا أن يفسر عملية انبعاث الضوء التى لم يعزها إلى دوران الالكترون ، وإنما عزاها إلى حادث عظيم وقع لهذا الكوكب الصغير ، حادث لم يقع على الاقل لكوكبنا الأرضى منذ دورانه حول الشمس ، وهذا الحادث الجسيم الذى وقع للألكترون هو وثبة له من إحدى المدارات إلى مدار آخر ليس له أن يتعداه إلا بحادث آخر مماثل للأول . على أن هذه الحوادث وأمثالها التى أحدثت تغيراً فى طاقة الالكترون هى التى سببت لنا على شبكة العين ما نراه من الأثر الضوئى الذى يرجع فى أصله إلى هذا الاضطراب الالكترونى ، فنرى للصوديوم هذين الخطين ، ونرى هذا أحمر وذلك أصفر .

هنا يحررنا بوهر من كل قيودنا العلمية السابقة ، ويباعدنا عن كل معارفنا وعن كل ما ورثناه وورثه فيزيائيو هذا العصر من علوم . فمثلا كيف يمكننا أن نتصور مع بوهر ألكترونا دائراً فى مدار معين لا يرسل أمواجاً كهربائية وفق نظرية مكسويل ، تلك النظرية التى اضطر بوهر إلى هجرها . بل إننا نصادف بعد ذلك صعوبات جمة ، أولها أننا لا ندرك لماذا تعطى وثبة الالكترون إشعاعا ؟ وثانيها لماذا يتبع نظام المسارات وحدة بلانك؟ وأخيراً يقصر بنا الفكر أن نفهم لماذا وثب الالكترون ؟

ومهما يكن من خطورة هذه الأسئلة ، فان بوهر لم يعرها انتباها ، وربما كان هذا سر عظمته . وهكذا كلما عارضته فكرة قديمة عمد إلى ترك القديم ، وظل شاخصاً إلى الطيف لا يعبأ بكل تاريخ الفيزياء ، مادام يجد بطريقته الخاصة تفسيرا لوضع الخطوط الطيفية ، وهكذا أحدث ثورة علمية كبرى .

على أن هذا النجاح لبوهر ، وإن تعارض

مع ما ذهب إليه الفيزيائيون فى عصره ، لفت إليه نظر جيش كبير من هؤلاء . وقد تمكن من وضع حساب دقيق لخطوط الهيدروجين ، بل تمكن من تفسير ثابت ريدبرج الذى ذكرناه فى سلسلة بالمير المتقدمة ، والذى ظل العلماء يرون فيه عدداً بسيطاً لا يمت للذرة فى شئ ، فوجد أنه دالة لكتلة النواة وكتلة الالكترون وشحنته وثابت بلانك وسرعة الضوء .

ولم تكتمل هذه الصفحة المجيدة لبوهر دون أن يصادف صعاباً لا تعدلها صعاب ، فقد امتحن العلماء طيف الهيليوم فوجدوا أن العدد الثابت يختلف قليلا عما يحتمه حساب بوهر . وهنا أخذ بوهر فى محل الاعتبار أثر الالكترون المتحرك على النواة مسبباً لها حركة ضعيفة ، فصحح بهذا ما ظنه العلماء خطأ . وأخيراً عند ما يعثر فيزيائى من ذلك العهد على خطوط غريبة فى أنبوبة هيدروجينية لا تتفق مواضعها مع معادلات بوهر ، فان بوهر يؤكد له خطأه التجريبى ، ويذكر له فى جرأة أنه لا بد أن يكون هناك أثر طفيف للهيليوم مثلا فى هذه الأنبوبة ، وهو أثر طالما اختفى عند تحضير الهيدروجين من جديد والحصول عليه بحالة نقية .

ومع كل ما ذكرت فقد تخلل عمل بوهر صعوبة علمية كبيرة . فبينما لا يشمل حساب مجموعتنا الشمسية إلا تسعة كواكب ، يصل عدد الكترونات نواة العناصر المختلفة إلى ٩٢ . هنا نرى صعوبة يعرفها أولئك الذين وهبوا حياتهم لتتبع رياضيات بوهر المتقدمة . وتنحصر صعوبة الحساب فى تحديد ما لهذه الكواكب (الالكترونات) ، من أثر بعضها فى بعض ، وفى ميل مسارات الواحدة منها على الأخرى ، بل فى اختلاف هذا الميل من كوكب إلى آخر .

كل هذا يجعل الموضوع عسيراً ، ومع ذلك اندفع جيش من الفيزيائيين النظريين فى كل جامعات الأرض محاولين تتبع أعمال بوهر وتطبيقها والاضافة إليها ، وذلك بالانتقال من عنصر إلى عنصر والتغلب على صعوبة الحساب ، وتوالت الرسائل العلمية فى هذا الباب سنين طويلة حتى إننى كنت لا أصادف فى السوربون سنة ١٩٢٥ والعشر السنين التى تلتها إلا طلابا مشغولين بقضية الطيف ، وهم بالعشرات من جميع أجناس البشر ، بعضهم يتابع النظر إلى طيف العناصر فى المعامل ويحاول أن يقوم بتحسين فى المطياف ، وبعضهم يتابع الحساب ويقابل ذلك بما تحتمه التجارب . ومن هؤلاء وهؤلاء من يعكف على عمله أعواماً ليجد حلا موفقاً بين ما يصل إليه عن طريق الحساب وما يعثر عليه غيره من الطريق التجريبى .

وهكذا كان على بوهر أن يواجه فيزيائيى هذا العصر ، يفسر ما هو معروف من ظواهر طبيعية ليس من اليسير هجرها ، وما قد يستجد من الظواهر . ألم يجد بوهر تفسيراً خالداً لظاهرة زيمان ، نسبة للفيزيائى الهولندى الذى كشفها ، وتتلخص فى أن للمجال المنناطيسى القوى أثراً فى الانبعاث الضوئى ، بحيث إذا وضعنا قطعة الصوديوم المتوهجة بين قطبى مجال مغناطيسى ، فان الخطوط الطيفية تنقسم فيما بينها ، فنرى للخط الواحد اثنين وثلاثة . ويطول بنا الشرح لو فسرنا كيف استطاع بوهر دون أن يتخلى عن فكرته أن يفسر هذه الظاهرة تفسيراً صحيحاً ، بل إنه وجد تفسيراً لظاهرة أخرى اسمها ظاهرة ستارك من اسم مكتشفها الألمانى ، وهى ظاهرة خاصة بأثر المجال الكهربائى فى الضوء .

هذا هو بوهر العظيم ، وهذه هى الالكترونات الحائرة تدور حول النواة كما

تدور الأرض حول الشمس، هذه الالكترونات التى ذكرنا أن النسبة بين كتلة إحداها وحبة المسبحة كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية، أصبحت معروفة فى دورانها ووثباتها داخل العالم الذرى بقدر ما نعرف من حركة السيارات داخل العالم الشمسى .

لقد عز على نفسى أن أذكر نايلز بوهر فيما نشرته بالكاتب المصرى فى بضع سطور[1] بعد أن لمع اسمه فى سنة ١٩١٣ والسنين التى تلتها ، وبعد أن لمع اسمه من جديد فى الطاقة الذرية وما جرى بين صحراء المكسيك وهيروشيما .

هذا هو بوهر العظيم الذى فسر الانبعاث الضوئى من وثبة للألكترون من مدار بعيد فى النواة إلى مدار أقرب منه ، وجمع فى هذا التفسير بين فكرة الكم وبين نظام الطيف .

هذا هو بوهر الدنمركى الذى يرأس اليوم أعمال الطاقة الذرية بأمريكا، والذى أفاد أخيراً من أعمال أوتوهان فى برلين ، قد أطلعتك على جزء من أعماله الخالدة التى هزت العالم هزاً ، وها نحن أولاء تجولنا فى الذرة معاً بعيداً عن النواة وعن شمسها الخطيرة ، تجولنا معاً فى هذه السيارات التى تدور حول نفسها وحول النواة . وأغلب الظن أن جولتنا كانت متعبة لك وعسيرة على نفسى ، فقد أمعنت الفكرة فيما أكتب ، وأطلت النظر فيما تطالع . ولكنها الدنيا خلقت على نحو هذه الحلقات المعقدة . والميراث العلمى يزداد على هذا النحو الذى تراه ، ومع ذلك فلم أعرض فى هذا المقال لأعمال ديراك الخالدة ، وما يحتمه من حالة مغناطيسية للألكترون ، ولم أعرض كذلك لدوران الالكترون حول نفسه ، وكلها أعمال متممة لأعمال بوهر .

ولقد تتبعت مع القارئ فى الجزء الأكبر من هذا العرض طريقتى الخاصة فى الكتابة والشرح ، واستعنت فى جزء منه بطريقة فى العرض لريشنباخ . وما هذا وذاك إلا محاولة منى لعرض آرائى وآراء غيرى . ومع ذلك فان لقى القارئ مشقة فى هذه الجولة ، فأكبر ظنى أنه أفاد مما تعب من أجله ، وسأحاول أن تكون جولاتى القادمة أيسر عنده من جولاتى السالفة .

محمد محمود غالى

(١) « القنبلة الذرية والعدام الذرة » ، الكاتب المصرى عدد ١ (أكتوبر ١٩٤٥) ، صفحة ٩٥ .

شهرية السياسة الدولية

كأنه ركود

كأن السياسة الدولية إذ تنلى مراحلها، فى ركود ؛ فهى لا تزال تعالج نفس المشاكل التى بدأت فيها من شهور : ومشكلة ايران لا تزال حتى هذه اللحظة التى نكتب فيها هذه الشهرية واردة فى جدول أعمال مجلس الأمن وهى فيه منذ بدأ أعماله بلندن فى أواخر شهر يناير الماضى . ولا تزال كذلك المشكلة الأسبانية شاغلة أعمال المجلس ذاته منذ انتقل مقره إلى نيويورك . ولا تزال أنظمة الحكم والدستور فى فرنسا واليونان وبلغاريا وإيطاليا محل الاستفتاءات والانتخابات والمشادات داخل هذه البلاد، وموضع التأثير فى الاتجاهات الخارجية لها وللدول العظمى من ورائها كذلك . ولا يزال مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة يعقد جلسات فى قصر لوكسمبور يتلمس حلولا لمشاكل معاهدات الصلح مع إيطاليا والنمسا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا وما يتفرع عنها من تعديل التخوم وتقرير نظام المستعمرات .

ولكن

ولكنه ركود فى الظاهر ليس غير ؛ إذ الواقع أن العالم الدولى كان طوال الشهر المنقضى فى حركة دائمة يساورها شئ من القلق، ويحض عليها شئ من الحرص على الرغبة فى الاستقرار . وكان مظهر تلك الحركة خطبا يلقيها وزراء الخارجية فى انجلترا والولايات المتحدة وروسيا، ورسالات يوجهها الرؤساء إلى شعوبهم وهم يخرجون من ديارهم أو وهم يعودون إلى ميادين العمل فيها . على أن الأمر لم يقف عند حد الأقوال تلقى والعبارات تدون، بل إنه تجاوز الأقوال والعبارات إلى الأعمال والمواقف .

فى ايران

فبينما يستبق مجلس الأمن المسألة الايرانية فى جدول اعماله ، تتم المفاوضات بين حكومة طهران وزعماء أذربيجان الذين كانت قيامتهم سبباً مباشراً أو غير مباشر لعرض القضية الايرانية السوفيتية على هيئة الأمم المتحدة ، وتصل إلى تفاهم بين الطرفين يسفر عن بقاء الاقليم المتحفز فى دائرة الامبراطورية الايرانية ، على أن يستمتع بنوع من التميز فى الادارة المحلية ، إذ يكون له حاكم عام من أبنائه ، وإذ تخضع الادارة فيه لنظام المجالس الاقليمية والقروية ، وإذ يحظى أهله بنصيب وافر من العدالة الاجتماعية والهناءة البشرية .

والمنظور بعد هذا التفاهم فى سبيل الاستقرار أن تسحب القضية الايرانية بل تشطب من جدول أعمال مجلس الأمن وقد زال الخلاف الذى سبب رفعها إليه .

أسبانيا

لكن المشكلة الأسبانية ، أو «الفرنكوية» لا تزال معروضة على المجلس ، ولا تزال محل تنازع الاتجاه بين أعضائه . فنهم من يرى قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال مع تلك الدولة التى ينطوى نظامها الداخلى على مظاهر صريحة من مظاهر الفاشية التى قامت الحرب العالمية الثانية للقضاء عليها . ومنهم من يرى العرض للنظام « الفرنكوى » حراما فى ذاته، إذ هو تدخل فى شؤون داخلية يمنعه ميثاق الأمم المتحدة ذاته . ومنهم من يرى عدم اتخاذ المجلس قرارا حاسما فى المشكلة، والاكتفاء برفع توصية منه إلى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . وبين هؤلاء الأخيرين من يرى أن تكون التوصية متصورة على اقتراح النظر فى قطع العلاقات الدبلوماسية مع أسبانيا ، ما دام نظام فرانكو هو السائد فيها . وبينهم من يرى التوسع فى الاقتراح بحيث يشمل قطع العلاقات بالنص، كما يشمل فتح الباب أمام الجمعية العامة للاتجاه إلى أى اقتراح آخر تراه .

ويخشى الكثيرون أن يكون هذا التعدد فى المواقف وهذا الترجح بين الآراء معيدا إلى الذاكرة سوابق مؤلمة من سوابق الضعف التى كانت تلصق بعصبة الأمم البائدة !

فى فرنسا

وقد جرت الانتخابات العامة الثانية فى فرنسا خلال الشهر المنقضى وأسفرت عن بعض التحول فى الموقف السابق عليها . وقد كان الشيوعيون هم أصحاب المكان الأول فأصبحوا فى المكان الثانى ، وكان الاشتراكيون فى المكان الثانى فاصبحوا فى الثالث ، وكانت الحركة الجمهورية الشعبية فى الصف الثالث فطفرت إلى الصف الأول ، وإن كانت الفروق فى الأصوات لا تزال طفيفة كما كان شأنها من قبل .

وقد كان من شأن هذا التبدل أن حسب الجمهوريون الشعبيون — وهم المسيحيون الديمقراطيون السابقون — أن من حقهم أن تكون لهم رياسة الجمعية التأسيسية الجديدة وأن تكون لهم رياسة الحكومة أيضا . ولكن بعض المضاعفات جاءت تميل أول الأمر إلى الاشتراكيين لتجعل منهم رئيس الجمعية التأسيسية فى شخص فرنسوا أوريول ، ورئيس الحكومة فى شخص مسيو جوان رئيسها الحالى .

وفى اللحظة الأخيرة ، بالنسبة لهذه الشهرية جد جديد ، بل حدث حدث ، بدخول الجنرال ديجول فى الميدان وإلقائه خطابا اعتبره الكثيرون خطاب ترشيح لرياسة الحكومة الجديدة .

ولتطور الأمور فى فرنسا على نحو أو آخر أثر كبير فى السياسة الدولية . والمعروف أن الاتحاد السوفيتى يؤيد الشيوعيين الفرنسيين ، كما أن حكومة العمال فى انجلترا تميل إلى الاشتراكية ، والعناصر الكاثوليكية والرجعية فى كل مكان تدعو بالخير والاقبال للحركة الجمهورية الشعبية .

فى إيتاليا

وفى إيتاليا أسفر الاستفتاء عن فوز النظام الجمهورى على النظام الملكى ، وكان المصوتون خمسة وعشرين مليونا او يزيدون . فازت الجمهورية منهم باثنى عشر مليونا وفازت الملكية بأحد عشر مليونا وألغيت بطاقات مليونين . فكان هذا الالغاء مثارا للشك والطعن ولتأجيل الاعلان الرسمى للجمهورية من قبل محكمة النقض التى تشرف على فرز الأصوات وإعلان النتيجة النهائية . وقد انتهز الملك أمبرتو فرصة عدم إتمام هذا الاجراء واعتبر الملكية لا تزال قائمة ورفض مغادرة البلاد إلا مكرها وموجها رسالة للشعب يسجل فيها حقه فى المطالبة بالعرش .

فى اليونان

ولا تزال الأزمة النظامية قائمة فى اليونان بين الملكيين والجمهوريين . ولا يزال الملكيون يطالبون ببقاء الجنود البريتانية فى اليونان لحفظ الأمن الذى يخشون عليه من الجمهوريين اليساريين إذا خلا لهم الجو .

ويقوم الجدل فى أثينا حول الموعد الذى يجرى فيه الاستفتاء . وكان المفهوم أنه لن يكون قبل سنة ١٩٤٨ . لكن بعض العناصر اليمينية تحاول إجراءه من الآن أو على الأقل ترك الملك يعود إلى بلاده ويتولى سلطاته مادام النظام القائم هو النظام الملكى ، وما دام الوصى على العرش هو المتولى رياسة الدولة بالفعل نيابة عن الملك الأصيل .

لكن المسألة أعوص من أن تعالج بالسهولة . وعودة الملك الآن قد تكون إيذانا بقيام حرب أهلية واسعة النطاق . ولذلك فأغلب الظن أن الحال تستمر على ما هى عليه وقتا آخر إلى أن تجئ شهريتنا المقبلة على الأقل .

مؤتمر وزراء الخارجية

أما مؤتمر وزراء الخارجية فقد بدأ اجتماعه فى جو تفاءل به « الملاحظون » ، وقد رضى الرفيق مولوتوف أن يدع المسألة النمسوية ترد فى جدول الأعمال بعد الفراغ من معاهدات الصلح . لكن المواضيع الدقيقة فى المعاهدة الايتالية لا تزال قائمة ولا يزال الخلاف عليها ناشبا . ولم يتضح بعد أى اتجاه لأية دولة فى سبيل أية ناحية من نواحيه . ولو أن المتشائمين يخشون أن تكون تريستا مبعث شرارة جديدة ، أو أن يكون الخلاف على مصير برقة وطرابلس سبباً لاخفاق المؤتمر وإيذانا باتجاه حاسم جديد فى الميدان الدولى كله .

محمود عزمى

شهرية الفن

معرض مائة صـــورة
من عيون الفن لمدرسة باريس

إنه لمن أصعب الأمور اختيار مائة من خير الصور وجمعها فى صعيد واحـد بحيث تكون هـذه الصور فوق متناول النقـد . ولكن متحف شار بنتييه قد تمكن من القيام بهذا العمل العجيب ، حين عرض ما سماه « مائة من أهم الصور التى أخرجتها مدرسة باريس » . وهذه الصور تظهر لمن يجهل حتى الآن ما أخرجته العبقرية الفرنسية فى فترة خطيرة من حياتها ، منذ مطلع هذا القرن فى مونمارتر مونبارناس وغيرهما من أحياء باريس .

أكثر هذه الصور من عمل رجال توفوا ، وهى تنتمى إلى مداوس عدة من طرق الفن الحديث أطلق عليها أسماء غريبة مثل الأنبياء والوحوش والمدرسة المتجاوزة مدى الواقعية والمدرسة التعبيرية .

ومدرسة أصحاب الغريزة لا تنتمى إلى « البســطاء » ولا « الأوائل الحديثين » وليس هنــالك كلمة يمكن أن تعبر عن الصفة الأساسية لهذا النوع من المصورين ، على أن تسميتهم بالغريزيين تصفهم بما فيه الكفاية ؛ إذ أن هذه الصفة تجمع بين أشخاص ذوى أخلاق متباينة وتكوينــات متعددة ومطامع أحيانا متعارضة . وهؤلاء الغريزيون يتركون الكلام لقلوبهم وما فيها من الشعر وما تنطوى عليه من أحلام . وهـــذه الأحلام تختلف عن أحلام المتجاوزين مدى الواقعية ؛ إذ أن الأخيرين يحاولون تصوير ما ينطوى عليه العقل الباطن ، وإنما الحلم عند الغريزيين هو ذلك الذى يقوم فى نفس الأطفال والمحبين ، وغاية هذا الفن هو الهرب من هموم الحياة .

أما « الأنبيـاء » فقد نشأوا فى عالم الفن فى نحو سنة ١٨٩٠ تحت تأثير جوجان وجماعة الصداقة ، وتجمعهم اكتشافات واحدة ، وقد عملوا فى حماسة وتواضع على ربط أنفسهم بالتقاليــد المفقودة . ويعد بونار من أجرئهم وأكثرهم اختراعاً ، وهو يجدد رنوار وريدون على حين يرث فياركلا من شاردان وديجاس ويعتبر موريس دنى صاحب نظريات الجماعة . ويعد روسل وڤالوتون بصلة إلى فرا أنجلكو ودانجر وبوسان ؛ وكل منهم حاول أن يتخلص من حدود لوحة التصوير ، ونجح فى التصوير على الحوائط .

أما الوحوش فكل همهم فى اللون . وقد ظهر فن هـــذه الجماعة فى ســنة ١٩٠٥ وهم ماتيس وڤلامنك وروو ومانجان وبو وڤالا وماركيه وڤان دونجن . وهم جميعاً يفتنون فى الألوان ومزجها وتنويعها . وتعنى الوحشية أيضاً بالنار : فڤلامنك يصور حريق الشمس على حين يصور روو العالم وهو يحترق فى نار الجحيم .

أما المذهب التكعيبى فهو اتجاه جـديد فى التصوير الفرنسى المعاصر . فالوحشية ليست إلا نوعاً جديداً من المذهب التأثيرى ، أما المذهب التكعيبى فهو قطع لكل صلة بالماضى ، ورفض لكل ما أتى به المصورون منذ سنة ١٨٧٥ ، فأنت ترى شدة الحياة بدلا من لذة

الحياة التي نجدها عند رنوار ، وترى التناسق الجدى في اللون الأسمر أو الرمادى بدلا من الألوان الحمراء الزاهية ، وترى الأشكال الهندسية بدلا من الخطوط المؤثرة لبيسارو وسلى ومونيه ، فى المذهب التكعيبي بأجمعه رفض للبحوث والاكتشافات السابقة . ولكن هذا الرفض ليس سلبيا ، إذ هو يعبر عن شيء آخر ولكنه يحذف ما لا يلائمه ؛ فأصحابه يريدون العودة إلى فن العظمة ؛ ولذلك يفرضون على أنفسهم نظام كبار المنشئين . فالصورة ليست مجرد لعبة ظريفة ، بل هى تعبير عن إرادة لا تتفق مع التساهل . ويجب ألا نخلط بين الجميل والظريف وبين الجد والرقة وبين العظمة والتأثير . وقد تمكن مخترعو هذه النظريات التى دهش لها الجمهور من أن ينشئوا تدريجياً عالماً فنياً لا يتخذ العالم الخارجى إلا ذريعة لينشىء فناً حسب حاجاته .

وفى العالم الذى شب سنة ١٩١٠ وظهرت فيه نخبة جديدة من رجال الفن ، كان التصوير عن طريق التكعيب من أوائل طرق التعبير عن ذلك النوع من المشاعر .

ثم جاء مذهب المتجاوزين مدى الواقعية على أثر التكعيب ، وقد انبعثت فى العالم هزة صامتة ، وكأن الأرض قد ثارت كتلا ، وكأن الحيوان قد دهش لنفسه ، وكأن الانسان قد قلق لقوته .

ثم جاء التعبيريون . وإذا كنا نستطيع أن نتكلم عن مذاهب الوحشية والتكعيب والمتجاوزين مدى الواقعية ، فانه لمن أصعب الأمور أن نحدد وصف المدرسة التعبيرية . وكثيراً ما سمى روو Roualt أبا المذهب التعبيرى الفرنسى ، وإلى جانبه جروميه .

ورسوم روو تدل على تطور متناسق ، ولم يسبق لفن التصوير أن بلغ من الثقة والجرأة مبلغه اليوم ، وإن كنا لا نجد فى رسومه الأخيرة ما كان فى الرسوم الأولى من عنف وتأثير ، إذ يغلب عليها الهدوء والحب والروحانية ، وهذا غير ما نألفه فى المدارس الأخرى . على أننا نجد فوق كل هذا ، تلك الروعة التى نجدها فى صور عظماء المصورين على اختلاف العصور .

ننتقل إلى الأجانب ؛ فان وجود المصورين الأجانب بين المدرسة الباريسية ظاهرة جديدة وهامة بالنسبة لعددهم وصفاتهم .

لقد ظهرت مواهب كثيرين من الأجانب عندما سكنوا باريس ، فكان لباريس الفضل فى أن أحيطوا بجو الحماسة وحب الانشاء والحرية ، وتعلموا كيف يعبرون عن رسالتهم ، وهم بدورهم زادوا مدينة النور ثراء .

وهكذا نرى بيكاسو فى تاريخ الفن الفرنسى يتأثر سيزان دون أن ينسى بلده أسبانيا . ولقد تأثر الفن الفرنسى بالحياة الأسبانية عن طريق جوان جرى وميرو ، وأدخل اليه كل من موديليانى وكيريكو شعور العظمة . ونستطيع أن نقارن فنهما حين كانا بايطاليا بفنهما وهما فى فرنسا ، فيتجلى لنا فضل باريس عليهما . ولكن أليس أنفع ما دخل الفن الفرنسى هو ما جاءه من شرق أوربا ؛ لأنه أبعد المؤثرات وأكثرها غرابة ؟ إن فن سوتين وتحليلاته للطبيعة ، وشاجال وتحولاته ، مما أدخل خميرة جديدة فى الألوان القديمة التى ألفها المصورون الفرنسيون ، ولم يظهر فى مجال الفن منذ ثلاثين سنة مثل هذا العنصر الجديد الذى بلغ مبلغ الثورة . فالفن الفرنسى المعاصر يحتوى على عناصر متعددة فيها حياة ؛ ولذلك كانت رسالته لا تزال فى انتشار .

معرض الستائر فى باريس

أقيم معرض عظيم فى المتحف الأهلى للفن الحديث بشارع الرئيس ولسن بباريس، وفيه نرى صوراً متتابعة لتاريخ الستائر الفرنسية. وقد نسق القسم القديم منها مسيو ڤرليه، والقسم الحديث مسيو جان كاسو، يعاونهما فى ذلك رجال المتاحف الأهلية.

ولقد عادت الحياة إلى فن الستائر فى فرنسا منذ بضع سنوات، وبدأت الحركة متواضعة حين نسجت ستائر فى بوڤيه مطابقة لرسوم راؤول دوفى، ثم قويت فى عهد الاحتلال الألمانى عند ما نسج جان أدنيه رسوم ساڤال وبريانشون وكوتو وروهنر وغيرهم.

وظهر فى هذه الأثناء مصور للستائر حديث هو مسيو لوركا، فأقيم له معرض فى متحف كاريه، وبلغ مسيو جرومير فى أوبوسون مبلغاً من الاتقان لايدانيه فيه أحد، فلازال الفرنسيون فى فن الستائر والسجاد يشغلون مركزاً هاماً.

ويشغل المعاصرون فى المتحف طابقاً بأكمله. ويعتبر كل من مسيو راؤول دوفى ولوركا وجرومير زعماء هذا الفن الفرنسى فى القرن العشرين، وهؤلاء الرجال الثلاثة لم يخترعوا مع ذلك شيئاً غير منتظر، وهم يمتون بصلة قوية إلى ما نشاهده فى الطابق الأسفل من فن للقدماء فى هذا الباب.

* * *

شهرية السينما

عودة القافر (شركة أفلام التاج)

قيل إن قصة هذا الفيلم من وضع الأستاذ يوسف جوهر، وقيل أيضاً إنها حازت الجائزة الأولى من وزارة المعارف العمومية لمسابقة القصة. وقد تكون الجائزة الأولى من وزارة المعارف للقصة ضماناً كافياً لنجاح الفيلم، ولكنها فى هذه المرة لم تكن كافية لهذا الضمان؛ فقصة هذا الفيلم مفككة بها من التطويل ما يمل القارئ أو المشاهد. على أنى أعترف للمؤلف أنه ذو خيال خصب جامح لم يحسن التحكم فيه فأوحى إليه مواقف وقصصاً كثيرة غير مرتبط بعضها ببعض. فعندما يتكلم عن أسرة حمدى وما بينها وبين الأسر الأخرى من ضغائن يخيل إليك أن محور القصة هى تلك الضغائن، ولكن سرعان ما يتضح لك أن تاريخ الأسرة ليس له علاقة بالحوادث القادمة مطلقاً بل إن كانت ثمة علاقة فلم يحسن المؤلف إظهارها. وعلى أية حال فقد غالى فى سرد هذا التاريخ وأسهب فيه حتى أسأمك منه.

ثم ينتقل بك من الماضى إلى الحاضر: فيبتدئ حياة حمدى، وهى حياة كفاح كما قيل فى البرنامج الذى وزع على النظارة، وهى حقاً حياة كفاح، غير أن كثرة الحوادث والشخصيات شغلت المؤلف عن إعطاء هذا الكفاح المرتبة الأولى فى قصته. فأطال مثلا فى دراسة شخصية هذا المحامى الشيخ إطالة لا مسوغ لها مطلقاً، إذ أن شخصيته ليست ذات غناء فى الفيلم اللهم إلا فى حدود تأثير هذا الشيخ فى صهره حمدى. وكان من اليسير جداً على المؤلف أن يظهر مدى هذا التأثير فى منظر او منظرين قصيرين، إلا أنه تمادى فى ذلك، حتى إن نصف القصة أو ما يقارب النصف لم يكن الحديث فيه حول كفاح حمدى فى الحياة بل حول حياة هذا الشيخ، وهى حياة هادئة متصلة الهدوء لا يعكر صفوها سوى حادث أو حادثين لا خطر لهما مطلقاً.

ويموت الشيخ ولا يترك لحمدى وزوجه شيئاً من الثروة التى جمعها. فيعود الشاب إلى الكفاح فى سبيل قوته وقوت أسرته، وتلم به محن كثيرة: منها أن زوجته التى تزوجته عن حب وأنجبت منه طفلا اوثق الرباط بينهما، والتى قبلت أن تكافح مع زوجها، هجرته هذه الزوجة لتعيش مع شاب كان أبوها يبغضه كل البغض، ولم تظهر له قبل زواجها أى ميل. فهل يمكن فتاة شريفة مثل التى صورها لنا المؤلف محبة لزوجها مخلصة له كل الاخلاص، هل يمكن هذه الفتاة أن تقبل دعوة شاب للتنزه معه؟ فهى تضحى بزوجها وبابنها وبسعادتها لترحل مع هذا الشاب الذى يسمعها عن زوجها مايجرح شعورها وكبرياءها! ولو لم تكن بطلة القصة بالأخلاق التى اتصفت بها، لكان لهذه النزوة منها مسوغ.

ويواصل حمدى كفاحه فى الحياة حتى يصبح محامياً مشهوراً تحقيقاً لرغبة حماه، وينتقل من العسر إلى اليسر. وهنا يمرض ابنه، فتسمع زوجه بهذا المرض فتذهب لعيادة المريض الصغير، ويتقابل الزوجان حول سرير ابنهما، فتكون التوبة ويكون الغفران، ويعاود الزوجان المعيشة معاً.

ونرى من هنا أن الجزء الأول أو مقدمة القصة قد أغارت على القصة نفسها وفاقتها طولا مع أن العقدة ونهاية القصة لم يحظيا إلا بقسط يسير ، وأن الابتعاد عن موضوع القصة طغى عليها حتى فقدت وحدتها وضاعت معالمها فى هذا الطغيان .

ولم يحسن الأستاذ أحمد بدرخان فى إخراج الفيلم إخراجاً سينمائياً . ولربما كان له فى ذلك بعض العذر ، لأنه ليس من حقه أن يقتطع من الرواية ، مما جعل إخراجه مسرحياً أكثر منه سينمائياً . فقد أطال فى تصوير المونولوج فى الفيلم ومناجاة الشيخ لصورة امرأته أو ثوب المحاماة، إلى آخر هذه المواقف التى طالت حتى سئمناها . ويبدو أنه لا بد من وجود مناظر راقصة فى الأفلام المصرية ، ولو لم يكن لها مسوغ . وإذا كان المخرج يتهاون بفنه إلى هذه الدرجة ، فكيف يقبل المؤلف أن يدخل على قصته هذه المناظر التى ليس لها أى مسوغ . بل تعد إطالة لا تستساغ ؟

وكان التمثيل مسرحيا أكثر منه سينمائياً . فالأستاذ حسين رياض — ونحن لا ننكر هنا أنه ممثل قدير — قد غالى شيئا ما فى تمثيل المحامى الشيخ وفى إيماءاته وخطواته البطيئة كأنه يمثل على المسرح . فهذا التمثيل لا يصلح للسينما لكبر المناظر ، ومن ثم تبدو المواقف طويلة مملة . وقد أصاب الأستاذ حسين صدق فى تمثيله توفيقاً يجعله أهلا للثناء ؛ فهو يبدو طبيعياً فى كل مواقفه . أما السيدة سميرة خلوصى فقد امتلأ جسمها إلى حد لا يسمح لها أن تقوم بأدوار الفتيات ، ولم تحسن فى لبس سروال ركوب الخيل لأنه زاد من بداناتها . وعلى المخرج أن يختار لممثلته الأولى ما يلائم جسمها ويخفى ما به من عيوب . وقد قامت بدورها وأصابت نجاحاً وتوفيقاً .

غير أن نجاح الفيلم تمثيلا لم يمنعه من الاخفاق تماما . وكيف لا يكون ذلك نصيبه والقصة مفككة لارباط بين أجزائها ، والاخراج رخيص لم يبذل فيه المخرج عناء . والسينما المصرية لن تعرف إلى النجاح سبيلا إلا إذا دققت فى اختيار قصصها ، وأخرجت لنا من الأدب العربى الحديث والأدب الأوربى أيضا ما أنتج من قصص عالية متقنة . وليعلم الذين يعنون بشؤون السينما أن القصص الظافرة بالجوائز ، ليست هى أحسن القصص . والدليل هنا جلى واضح .

فولبونى (فيلم أيل دى فرانس) [1]

يبدو أن السينما الفرنسية تتجه إلى إخراج المسرحيات الخالدة على الشاشة البيضاء ، مع أن هذه المسرحيات غير صالحة للسينما مطلقا .

وقصة « ڤولبونى » التى عرضت علينا منذ قليل ماهى إلا مسرحية « ڤولبونى » أو « الذئب » التى ألفها بن جونسون سنة ١٦٠٤ واقتبسها عنه الكاتب النمساوى ستيفان زڤايج ، ثم تناول موضوعها الكاتب الفرنسى جول رومان فصاغها صياغة فرنسية خالصة محتفظا فيها بمعالم شخصياتها كما وضعها مؤلفها الانجليزى ، وبنقده اللاذع لعيوب المجتمع المعاصر له ، وبادراكه التام للطبيعة الانسانية البغيضة . وقد يكون الكاتب الانجليزى غالى فى تصوير هذه الطبيعة حتى أصبحت شخصياتها غريبة كل الغرابة تبعث على البغض والكراهية . إلا أن الكاتب

(١) Volpone (*Isle de France Films*).

الفرنسى قد حرص كل الحرص، وهو امين فى اقتباسه، على الاحتفاظ بهذه الصورة التى تدعو إلى الاشمئزاز أكثر مما تدعو إلى السخرية. ولا تنكر أن الفيلم ما عدا الجزء الأول منه كان أيضاً أميناً فى اقتباسه لهذه المسرحية الفريدة.

وقصة ڤولبونى تصور تصويرا دقيقا أطماع الناس فى المال وفرض سلطانه عليهم. فهم عبيد له لايعيشون إلا لجمعه كلما وجدوا إلى جمعه سبيلا، والاستمتاع بمنظره وهو مكدس فى خزائنهم كلما تيسر لهم هذا الاستمتاع. وهم فى سبيل هذا وذاك لايبالون بالوسيلة التى تيسر لهم هذا الاستمتاع وهذه اللذة. فهم يضحون بأزواجهم وأولادهم وأعراضهم لينالوا حتى اليسير من المال، يتفانون فى خدمة هذا الاله الطاغية وهذا السيد المستبد، لاشباع أهوائهم وملذاتهم. فڤولبونى تاجر شرقى يعيش فى البندقية وقد جمع من تجارته مالا كثيراً، فأذاع بين الناس بوساطة موسكا تابعه أنه أشرف على الموت وأنه حرر وصيته، ولكنه لم يذكر فى تلك الوصية اسم وريثه، فأخذ الناس يهرعون إلى قصره طمعا فى أن ينالوا الميراث.

فهذا يقدم له كأسا من الذهب الخالص وذاك كيساً من القطع الذهبية. وحين يتضح لهم أن هداياهم ليست بذات غناء يلتجئون إلى وسائل أخرى، فهذا يحرم ابنه ميراثه ليجعل ڤولبونى وريثه الوحيد، وذاك يحضر له امرأته ليقضى معها ليلة فاجرة ثمنا لهذا الميراث الذى يود الحصول عليه. ولكن لايحصل على هذا الميراث أحد منهم؛ فڤولبونى يفقد ثروته التى جمعها وحرص على إخفائها بفضل دهاء تابعه موسكا. فهذه صورة بشعة لنفسية الانسان ووضاعتها لا تخلو من التهكم والسخرية، ولكنى أرى فيها من المغالاة بالرغم من طابعها الواقعى ما يجعل من شخصياتها صوراً «كاريكاتورية».

وثمة فوارق بين السينما والمسرح تحد من نجاح أية مسرحية إذا أخرجت إخراجاً سينمائياً. فبينما ترتكز المسرحية على الحوار دون المناظر نجد أن الفيلم السينمائى يرتكز على المناظر دون الحوار. وبالرغم من هذا البون الشاسع بين أسلوبى هذين المظهرين للفن التمثيلى نرى الشركات الفرنسية تتزاحم على إخراج المسرحيات فى السينما. فهى لا تقتبس المسرحيات وتصلحها ولكن تعرض المسرحية فى أمانة تامة. أما ڤولبونى فقد أدخل المخرج على مسرحية جول رومان مقدمة للقصة ليكثر من المناظر الخارجية فى الفيلم. وعند انتهاء هذه المقدمة عادت إلى أسلوب المسرح فى الاخراج. وعبثا حاولنا أن نتتبع موسكا فى غدواته وروحاته فى المدينة، فالمنظر ظل واحداً طول الشريط، لم تنتقل من حجرة ڤولبونى إلا مرة واحدة للذهاب إلى المحكمة. ولولا التمثيل وجمال الحوار لبدا مملا هذا الأثر الفنى. فهارى بور ولويس جوڤيه وشارل دولان كان لهم النصيب الأوفى فى نجاح هذا الفيلم باشتراكهم فيه بفنهم الرفيع. كان هارى بور يقوم بدور ڤولبونى وهو دور عسير، إذ يحتوى على دورين فى آن واحد: ڤولبونى على فراش الموت، وڤولبونى الصحيح البدن الذى يلعب بالرجال ويسخر منهم بوساطة ماله. والجمهور المصرى يعرف الممثل القدير لويس جوڤيه الذى ينفرد فى تمثيل مسرحيات جان جيرودو، وقد أتقن القيام بدور موسكا ذلك الشاب المستهتر الذى قضى جزءاً من حياته عالة على ڤولبونى ثم نجح فى أن يستولى على مال سيده. ونذكر أخيراً شارل دولان وكان يقوم بدور كورباتشيو ذلك الرجل المسن الذى كان يقرض النقود بالربا الفاحش. وقد

قام بهذا الدور دون مغالاة : لقد غير من ملامحه وصوته وضحكته بما يلائم الشخصية التى كان يضطلع بها . ولا عجب أن ينجح شارل دولان فى هذا الدور فهو يمثله منذ سنة ١٩٢٨ . ولا داعى أن نتعرض لجاكلين ديلوباك ولا لتمثيلها السخيف المزرى . ومن العجيب أن نرى هذه الممثلة تظهر فى أفلام كثيرة بالرغم من مواهبها الضئيلة .

سيرانو دى برجيراك تأليف إدمون روستان (أفلام فرناند ريفيرز) [1]

من الخطأ أن نعد هذا الفيلم إنتاجا سينمائياً ، وأن نوجه إلى مخرجه الملامة على ما فعل . فلم يرم مسيو فرناند ريفير عند ما أنتج هذا الفيلم إلى أن يغير على مسرحية خالدة ويشوهها بأن يقتطع من مشاهدها ما لا يصلح للسينما وأن يضيف إليها ما يراه ملائماً ليصل إلى النجاح السهل الرخيص كما يفعل بعض المخرجين المصريين . بل كان مقصده نبيلا كل النبل ؛ إذ أنه أخرج هذه المسرحية بأكملها كما كتبها إدمون روستان دون أن يغير فيها كلمة واحدة ، وأهداها إلى هؤلاء الذين قرءوا شعر روستان وحالت الظروف بينهم وبين مشاهدة تلك المسرحية . وقد يوجد من بين النظارة من يرمى هذا الانتاج بالاطالة وبساطة الاخراج وقلة المناظر . فليعلم هذا الفريق من المشاهدين أنهم يبتعدون عن الأمانة فى النقد ؛ لأن فيلم « سيرانو دى برجيراك » ما هو إلا تسجيل سينمائى لمسرحية خالدة مثلت وأخرجت على أنها مسرحية لا فيلم . ولا أرى فى ذلك أى خطأ بل على العكس أرى أن فيه خدمة جليلة لعاشق الفن والمسرح الفرنسى أولئك الذين حرموا هذا النوع من المسرحيات والتمثيل منذ زمن بعيد .

وقصة « سيرانو دى برجيراك » خالية من الحوادث الكثيرة ، مع أنها متقنة حواراً وموضوعاً كل الاتقان . لما علم سيرانو دى برجيراك أن ثمة شاباً يدعى كريستيان يكلف كلفاً شديداً بمحبوبته روكسان أخذته يد له يد المساعدة فى هذه المغامرة الغرامية . والدافع إلى ذلك هو أن سيرانو دميم الهيئة لم يجد إلى السعادة فى الحب سبيلا بالرغم من لباقته وإتقانه لغة الهوى ، على حين كان كريستيان شابا وسيم الطلعة جذابا ولكنه لا يعرف كيف يتكلم إلى النساء . ويصل العاشقان إلى مرادهما ، وهو أن تهيم روكسان بالشاب كريستيان ، فتعشق فيه جماله ولباقة سيرانو . ويموت كريستيان أثناء محاصرة أراس ويحتفظ سيرانو بالسر الذى كان يربط بينهما ، ولم يبح به لروكسان إلا عند وفاته أى بعد أربع عشرة سنة .

وقد اجتمع فى هذا الفيلم عبقرية رجلين : عبقرية الشاعر روستان الذى لشعره وقع قلما وجدناه فى مسرحيات أخرى ، وعبقرية الممثل العظيم مسيو كلود دوفان . وشعر روستان فى غنى عن تقديمه إلى الجمهور ، فقليل من الناس من لم يطلعوا عليه ولم يشعروا عند قراءته بهذه الموسيقا الذى تنطلق منه . وروستان يمتاز بسهولة اللفظ : فشعره كماء جدول نقى شفاف . أما روحه المرحة ونكاته المستملحة ومواقف مسرحياته المتقنة وخياله الجامح ، فهذه العناصر كلها متجمعة ، مهدت لمسرحية سيرانو الطريق إلى الخلود . أما مسيو كلود دوفان فهو يمتاز ببساطة فى التمثيل

---

(١) Cyrano de Bergerac d'Edmond Rostand (*Films Fernand Rivers*).

وإلمام واسع للشخصية التى يمثلها . فقد أخرج لنا شخصية سيرانو كما عرفناها وكما رسمها مؤلفها : شخصا دميم الهيئة ، ولكنه يمتاز باللباقة فى الكلام ، وحب المخاطرة ، والافتخار بينى مقاطعته وتطلعه إلى الحرية والاستقلال الفكرى مهما كلفه ذلك من عناء ، ومهما أوجد له من متاعب . كل نواحى هذه الشخصية كانت واضحة فى تمثيل هذا الممثل البارع .

وما نأخذ المخرج به هو إدخاله بعض الرسوم المتحركة على الفيلم ليصور قصة سيرانو عن صعوده إلى القمر . ولست أجد معنى لهذه الرسوم ، وقد أفسدت قليلا من وحدة الفيلم وطابعه المسرحى .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان(١) ألفه شاعر مصرى يسمى ابن سودون ، وقد كان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وكان إماما ببعض المساجد ، إلا أنه اتخذ الهزل منهجاً له فى حياته، فطار اسمه وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة . وقد عنى أخيراً بجمع هذا الشعر فى ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق ، كما يقول هو فى مقدمة هذا الديوان ، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من المواليا مضيفاً إليها طائفة من الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامى ، وهو من هذه الناحية يسجل جانباً له أهميته فى تاريخ لغتنا الشعبية ؛ فان من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة ، وإن فى هذا بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود؛ فكثير من أمثال هذا الديوان واصطلاحاته وألفاظه لاتزال ماثلة تحت آذاننا فى العصر الحديث .

ولكن الشئ الذى يلفتنا حقاً فى هذا الديوان هو أنه ألف كله فى ضروب من الهزل والدعابة ، ولسنا نعرف شخصاً قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة ، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعراً احتكره الهزل هذا الاحتكار . حقاً أن فى الخريدة شعراء فاطميين يعتدون بالفكاهة فى شعرهم ، وكذلك الشأن فى العصر الأيوبى،ولكننا لا نجد شاعراً يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذى نجده عند ابن سودون .

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى ؛ لأنه يفصح إفصاحا واضحاً عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الذى تشتهر به مصر فى عصورها الاسلامية المختلفة . وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة ، فهى المفتاح الذى ينصب منه جميع نغم الهزل فى الديوان . وقد كان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هى أن يقف بين يديك موقفاً جاداً يريد أن يروى لك بعض العجائب ، ولكنه ما يبدأ فى ذكرها حتى تحس مفارقة ونبواً وشذوذاً عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل فى الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك ، فقد كنت على أهبة أن تستمع لأشياء غريبة ، فاذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتنا لها وصلتنا بها . ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية، هى أمكنة المنطق الواقع ، فنضطرب معها ولا نلبث

---

(١) طبع هذا الديوان فى القرن الماضى طبعة سقيمة . ولكن بدار الكتب المصرية نسخ مخطوطة منه مختلفة .

أن تضحك فى غير نظام ، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . وانظر إليه يقول :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما ... تيقن أن الأرض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل ... وبينهما أشيا متى ظهرت ترى
وإنى سأبدى بعض ما قد علمته ... لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم ... ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قفى
وأن أبى زوج لأمى وأننى ... أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
وكم عجب عندى بمصر وغيرها ... فمصر بها نيل على الطين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بله ... وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً ... بها الظهر قبل العصر قيل بلا مرا
وفى الشام أقوام إذا ما رأيتهم ... ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه ... بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
وتسخن فيها النار فى الصيف دائماً ... ويبرد فيها الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى إذا ما طرقته ... يطن كصينى طرقت سواً سوا
بها يضحك الانسان أوقات فرحه ... ويبكى زمان الحزن فيها إذا ابتلى
ومن قد رأى فى الهند شيئاً بعينه ... فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم ... لأنهم تبدو بأوجههم لحى
ومن قد مشى وسط النهار بطرقها ... تراه بها وسط النهار وقد مشى
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا ... ثماراً كأثمار العراق لها نوى
به باسقات النخل وهى حوامل ... بأثمارها قالوا يحركها الهوى
وعندى علوم بعد هذى كثيرة ... تدل على أنى من الناس يا فتى
وما علمتنى ذاك أمى ولا أبى ... ولا امرأة قد زوجانى ولا حما
ولكننى جربتها فعرفتها ... وحققتها بالفهم والحذق والذكا
فيابخت أمى بى ألا يا سرورها ... إذا سمعت أنى أفوق على جحا

أرأيت كيف يغمس ابن سودون هزله فى لبنة المفارقات ، فاذا الفكاهة تستوى له على هذه الصورة المتناقضة ، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض ، وأن بين السماء والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها . وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين يسمو عقله ، فانه يقف ايضاً على أن الناس من نسل آدم وأن أبا صاحبنا زوج لأمه . وماذا من الجدة فى هذه اليقينيات ؟ إنها لا تحتاج الى سمو فى العقل وما يشبه السمو ، غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء وأنها تحتاج الى عقل راق ، ثم تقرأ فاذا أنت أمام حقائق أولية . وإنه ليحاول أن يأتى بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق ليجعلك تغرب فى الضحك . ويتطرق ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان ما رآه فى البلدان المختلفة من عجائب ، وهو يبدأ بمصر فيروى لك حقائق عامة مألوفة ، ولكنك ما تقرؤها حتى تضحك لأنه عرف كيف يعبث بمنطقك

هذا العبث الذي جعله يقص عليك أن الفجر بمصر يظهر قبل الشمس ، وأن الظهر يمر بنـا قبل العصر . وإنه ليؤكد ذلك كأنه شيء مشكوك فيه ، فيقول إنها حقيقة « بلا مراء » . وينتقل ابن سودون بسامعه من مصر إلى الشام فيروى له أن بها ناساً ظهر كل منهم وراءه ، كأن الناس على قسمين ، قسم هذا الذى يراه فى الشام ، وهو قسم غريب ، ولذلك وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما راى هناك من غرائب ، أما القسم الآخر فقد سكت عنه لأنه مفهوم ومعروف ، وهو إنما يروى المجهول غير المعروف . هذه قصة الناس هناك ، أما بدرهم فان ضياءه يستتر حال الغيم وأما شمسهم فان ضياءها ينتشر حال الصحو ، وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء ، كأن ذلك كله شيء خاص بالشام . ويترك الشام إلى الصين فاذا هو يحدثنا أن بها صينيا يطن مثل ماذا ؟ « كصينى طرقت سوا سوا » . هل جاء ابن سودون بشيء ؟ إنه كما يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء ، وهو يستمر فى هذه المفارقة ، فالناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم ، وينتقل من الصين إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئاً بعينه ، فقد رآه بعينه ! هل قال ابن سودون شيئاً أكثر من أنه غالطنا . فاذا هو يعيد ما قاله فى الشطر الأول فى الشطر الثانى . وما من شك فى أنه حاول أن يغرب ما وسعه الاغراب حين أخذ يعرفنا بأن الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافاً بينا لما لهم من لحى ، كأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند دون سواهم . وأعجب من ذلك وأغرب أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى ، وهى مغالطة طريفة . ويعود ابن سودون إلى مصر أخيراً فيتكلم عن إقليم الصعيد ويعجب أن به ثماراً كأثمار العراق لها نوى ، أرأيت إلى هذا النظير أو قل هذا القياس الدقيق؟ إنها علوم ابن سودون الكثيرة كما يقول ، تلك العلوم التى تجعله يقتنع بأنه من الناس ، ولقد تعلمها باجتهاده ورحلاته ، وما تعلمها من أم ولا أب بل ولا من زوج ولا من حما ، وإنما تعلمها من طريق تحقيقه وفطنتـه وذكائه ، وإنه ليهنئ أمه بنفسه مردداً أنه يفوق على جحا . وحقاً أنه كان جحا القـرن التاسع الهجرى ، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل الذى لانبعـد إذا قلنا إنه تفوق فيـه لا على جحا وحده بل على كل من سبقوه . وهو فن — كما رأينا — كان يعتمد على المفـارقات المنطقية . وربما كان من أطرف القطع التى تصـور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لموت أمى أرى الأحزان تحنينى ... فطالمـا لحستنى لحس تحنين
وطالمـا دلعتنى حال تربيتى ... خوفا على خاطرى كيلا تبـكينى
أقول نمنم تجى بالأكل تطعمنى ... أقول أمبو تجى بالمـاء تسقينى
إن صحت فى ليـلة وأ وأ لأسهرها ... تقول : ها ها : بهز كى تنثينى
كم كحلتنى ولى فى جبهتى جعـلت ... صوصو بنيلى وكم كانت تحنينى
وربما شكشكتنى حـين أغضبها ... وبعد ذا كشكشتنى كى ترضينى
ومن فقيهى إن أهرب ورام أبى ... مسكى وبعتى له كانت تخبينى
وزغرطت فى طهورى فرحة وغدت ... تنـثر الملح من فوق وترقينى
وفى زواجى تصدت للجلاء عسى ... على المنصة تلقـانى بتزيين

وربت أولاداً أيضاً مثل تربيتى ... وبعد ذلك ماتت آه وانبى
وخلفتنى يتيما إبن أربعة ... وأربعين سنيناً فى حسابينى
يعظم الله فيها الأجر لى وكذا ... لى فى من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك ، لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذه الظروف اعتداء شديداً أو قل اعتداء صارخا . وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصاً يقف بازاء أمه — وقد لبت نداء ربها — ليرثيها وكأن كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه ، فاذا هو يترك ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالفرح والسرور ، كأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى طرفه فتضحك ، وقد تغرب فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة . وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه القطعة . وارجع إلى مطلعها فانك تراه فى الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انهداداً فقد قوسه الحادث وحناه . ولكنك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فاذا هو يذكر كيف كانت أمه « تلحسه لحس تحنين » وكيف كانت « تدلعه » خوفاً على « خاطره » . وتستمر فاذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكراً أنه كان حين يقول نمم تأتى أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتى له بالماء . أرأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك فى موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن . ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ها ها ونحو ذلك . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » وكيف كانت « تكشكشه » . ثم يقص علينا كيف كانت « تخبيه » حين يهرب من الفقيه وأنها « زغرطت » يوم طهوره وزينته يوم زواجه . وأخيراً يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربعة وأربعين سنينا ، كما يقول . وكل هذه مفارقات ؛ فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين ، وهو باك وهو فى الوقت نفسه ضاحك ، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه إلى هذا الهزل وما يتصل به من فكاهة . وفى أى موضع يصنع ذلك ؟ فى الرثاء أو بعبارة أخرى فى أكثر المواقف دعوة للحزن وأشدها استثارة للبكاء ، وهو بلا ريب يجرح هنا شعورنا ؛ لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموضع ، لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك بل إلى أن نغرق فى الضحك لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وإنه ليغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته . وارجع إلى ديوانه فستجده دائماً يعتمد على هذه المباينات بين ما تنتظره وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفلة زواجه إذ يقول :

حل السرور بهذا العقد مبتدرا ... ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
والكل كال وجه الأرض فانعطفت ... أغصانه بالتهانى تنثر الزهرا

والطير من فرحها فى دوحها صدحت بكل عود عليه لا ترى وترا
تقول فى صدحها دام الهنا أبداً على العرايس كى يقضوا به الوطرا
وكنت عند زفافى قد وصلت إلى حد الأشد وعقلى فى الورى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته أنى إذا نمت مع ظهرى يكون ورا
هذا وعقل عروسى كان أصغر من عقلى ولكن حوت فى عمرها كبرا
فى السن قد طعنت ما ضر لو طعنت بالسن من رمح أو سيف إذا بترا
فى لونها نمش ، فى أذنها طرش فى عينها عمش للجفن قد سترا
فى بطنها بعج ، فى رجلها عرج فى كفها فلج ما ضر لو كسرا
فى ظهرها حدب فى قلبها كدر فى عمرها نوب كم قد رأت عبرا
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت يوما وقد سبسبت فى جيدها شعرا
تظل تهتف بى : حسنا حظيت بها أواه لو حاشها موت لها قبرا

وأنت تراه يعمد فى هذه القطعة إلى المفارقة حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين فى فرحهما ، وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباله بل إنه ليعلنه ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا انه إذا نام كان ظهره من ورائه ، ومع ذلك فعقله أكبر من عقل زوجه . وقد ذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه هذه فى صورة مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المفارقة والتباين فى هزله ، فبينما هو فى مستهل هذه القطعة يملأ الجو بشراً وابتساما لهذا الزواج السعيد ، إذ هو يملؤه بعد ذلك كآبة وغيما واكفهراراً ؛ لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة فى هذه الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه . وأمعن النظر فى القطعة فانك تجده يقف أثناء وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابه بقامتها على ما فيها من عوج وأمت ، بل على ما فى صاحبتها من بعج وعرج وفلج وحدب ! وهذا هو التباين أو هو المفارقة التى تنبع منها فكاهة ابن سودون ، وإنها لمفارقة تميزه من نظرائه الفكهين فى الشعر العربى ، بل فى الشعر المصرى نفسه ؛ فنحن لا نعرف أحداً سبقه إلى هذا التفنن الواسع فى استخدام المفارقة على هذا النحو فى شعره ، فاذا هو يتحول كله إلى هذه الطرائف الفكاهية . وقد كان ابن سودون يدمج فى هذه المفارقة ضروبا من التباله وإظهار الغفلة كما مر فى الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحر والنخيل نخيل والفيل فيل والزراف طويل
والأرض أرض والسماء خلافها والطير فيما بينهن يجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة فالأرض تثبت والغصون تميل
والماء يمشى فوق رمل قاعد ويرى له مهما مشى سيلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فان شيئاً من الضحك يلم بنا ؛ لأن ابن سودون جمع لنا فى هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة ،

وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال نجدها فى شعره كقوله :

ولما أن كبرت بحمد ربى — وصار لمنتهى عقلى ابتداء
بقيت أقول نتو تتو تاته — ودحوكخ وانبو مم آء

فقد حشد فى البيت الثانى كل ما يمكن من لغة الأطفال ، وله فى هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى فى ديوانه كثيراً من أصوات الحيوانات ، إذ نراه يقلد صوت الخروف والبقرة ، وقد قلد صوت الأوز مراراً . ومن طرفه قوله فى « كتكوت » :

شريت لى كتيكيت — فيمو بزيق
عـريين يصيح — من البرد زيق
لو حليق فيـه زماره — وحنيك فيـه نقاره
يزمر ينقـر — دويحـك رشيق
أقول لو كتـكت — يكتـكت يجى
يرفرف يزقزق — لحسو زعيـق
لو جناح لاح من جنبو — كلما انشرح لولح بو
غـليظ البطينـه — ولو ساق رقيق
كبر صار شويطن — ينـاقر أخوه
ويعمـل لأختو — قبيح فى الطريق

وما من ريب فى ان هذه قطعة خفيفة ، وإنها لتعبر عما امتاز به ابن سودون من حاسة الفكاهة التى لا تجد لها نظيرا بين من عاصروه ، فقد كان يعرف كيف يجمع الصفات والخصائص لكل شئ يعالجه ، وكانت تسعفه فى ذلك مخيلة لاقطة تعرف كيف تضم آشتات الصورة بعضها إلى بعض . وقد تعلق -بجانب ذلك- بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع بل تشوبه «الفجعة». وقد أتى فى هذا الباب ببدع كثير . وله بعد ذلك مواليات كثيرة لعل من أغربها قوله :

التور والبقرا ذى العـام ومن قبله — فى مصر والشام وف غزه مع الرمله
هديك تحبل وتولد عجل أو عجله — وذاك فى السـاقيا ياكل بفرقله

وإن الانسان ليخيل إليه أن ابن سودون لم يترك شيئاً فى حياته يمكن أن يستخرج منه لوناً من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام نظارته وقرائه . وقد ساق فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وإنها لا تقل غرابة ولا إضحاكا وتفننا فى الاضحاك عما رويناه من شعره بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر . وقد نعرض لهـا فى مقال آخر ، أما الآن فحسبنا من شعره هذه النخب الطائرة .

شوقى ضيف

من وراء البحار

مصر فى المجلات البريطانية

رأى مجلة علمية

فى مجلة « العالم اليوم » ، وهى من أكثر المجلات الانجليزية تدقيقاً فى أخبارها ، إذ يصدرها المعهد الملكى لدراسة الامور الدولية فصل (فى عدد مايو) عن بريطانيا ومصر ، ووجهة النظر المصرية فى تعديل المعاهدة . ومما جاء فيه أن مشاكل مصر ناشئة إلى حد كبير عن مركزها الجغرافى الخاص . فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كان التسلط على مصر مفتاحا للسلطة على جميع المساحات التى هى مهد الحضارة الغربية . وفى العصور الحديثة صارت جميع المساحة التى نسميها عادة ، وللسهولة أكثر من التدقيق ، بالشرق الأوسط ، هى أهم مفتاح ستراتيجى ، لما لاحظ نابليون فى سرعة ؛ وصار امتلاكها أو المقدرة على منع الغير من امتلاكها هو وسيلة النصر فى الحروب العالمية .

ولا يوجد فى عصور التاريخ إلا القليل مثل التاريخ المصرى الحديث تراه واضحا وضوحا ظاهرا فى حوادثه . وهو لا يحتاج إلى فن المؤرخين . فسنة ١٧٩٨ ، وهى سنة الغزو الفرنسى ، هى أول سنة فى تاريخ مصر الحديث . وقد جاءت مع جيوش نابليون آراء الثورة الفرنسية وجميع مثل الحضارة الغربية ، وأدّى وجود العلماء الذين أنقل بهم مركز قيادته إلى اكتشاف أقدم مدنيات العالم ، بفضل شامبليون وتابعيه وتعريف الغرب بها . وبفضل مطابع الفرنسيين واحتذاء عاداتهم وتأثير طرقهم ، تأثرت عقول المصريين بطابع الغرب ، وصار للفرنسيين دور هام فى حياة الامة المصرية . وكانت محاولة الفرنسيين فتح العالم مما فرض على مصر الدور الذى ما زالت تقوم به على أنها مفتاح لتحقيق الكثير من مطامع الدول العظمى ، وظلت مسرحا لمنافساتهم ، وبقيت شديدة الاتصال بالحياة الاوروبية فى سياستها وآرائها وآلاتها وفنها . واتصلت مصر بعدد كبير من أهل أوربا ، أكثرهم من العناصر غير المرغوب فيها ، وكان ذلك أيضا مما جاء بالبريطانيين .

لقد رأت حكومات بريطانية متتابعة أنها مضطرة إلى اعتبار التسلط على شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو الذى تمكن منه الانجليز لاول مرة بانتصار نلسون فى موقعة النيل ، نقطة أساسية فى السياسة ، لا سيما أن للشرق الأوسط أهمية ستراتيجية وله علاقة بمصالح بريطانيا التى تمتد إلى جوانب العالم . وقوى هذا المظهر من السياسة الخارجية البريطانية منذ السنة السبعين من القرن الماضى بعد إنشاء قناة السويس . فمملكة مصر ليست كبيرة الأهمية فقط من الوجهة الجغرافية العسكرية العامة ، ولكن بين حدودها ممر يمر فيه الجزء الأكبر من السفن التى تربط المملكة المتحدة بالهند وممتلكات المحيط الهادى والشرق الأقصى . لذلك ظلت بريطانيا نحو مائة وخمسين سنة تلعب دورا هاما فى العلاقات بين مصر وسائر انحاء العالم . ومنذ احتلت الجيوش البريطانية مصر فى سنة ١٨٨٠ صارت مسألة هذه العلاقات على صورة ما أهم

بالحياة مصر السياسية ، والآن صارت أداة الحكم فى العلاقات بين انجلترا ومصر هى معاهدة التحالف والصداقة التى عقدت بينهما فى سنة ١٩٣٦ .

ثم تكلم الكاتب عن العلاقات بين مصر وانجلترا بعد الاحتلال ، فذكر مركز مصر منذ عهد محمد على ثم الأسباب التى أدت إلى الاحتلال بما هو معروف فى الكتب الانجليزية التى تبحث فى سياسة بريطانيا نحو مصر ، وانتقل إلى الحرب العالمية الأولى وما كان من تقدم الروح الوطنية فى مصر واهتمامها ، لا سيما على اثر المبادئ التى أعلنها الرئيس ولسن ورغبة مصر فى تمثيلها بمؤتمر الصلح وعدم إجابتها إلى تلك الرغبة ، وتأليف الوفد تحت زعامة المغفور له سعد زغلول باشا الذى يعتبر أبا الاستقلال المصرى ، وأثر تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ وعدم رضا الوطنيين عن مركز مصر السياسى الذى أوجده هذا التصريح ثم سوء الحالة الدولية الذى أدى إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وقال إن مساعدة مصر فى الحرب الأخيرة لها نصيب كبير فى الجدل السياسى الحالى ، فالبريطانيون ينتقدون رغبتها فى استرداد جميع ما لها من دين كبير نشأ عن نفقات الحرب البريطانية ، لا سيما إذا نظرنا إلى الموضوع فى ضوء أن مصر لم تعلن الحرب رسميا إلا فى مارس سنة ١٩٤٥ ولكن الواقع أن تعاون مصر فى أثناء الحرب كان كاملا وذا قيمة كبيرة وأنه لا الرأى العام ولا السياسيون أظهروا أى ميل للاستفادة من المأزق الذى كانت فيه بريطانيا . ولو نظرنا إلى ذلك فى ضوء التاريخ العاصف للسنوات العشرين السابقة لوجدنا قصة العلاقات المصرية الانجليزية أثناء الحرب قصة تسترعى النظر .

ثم تكلم عن موقف الحكومة المصرية عند أزمة العلمين ، وانتقل إلى ما تلا الحرب من حوادث داخلية حتى وصل إلى مرحلة المفاوضات الحالية ، وذكر أنها تسير فى جو غير ملائم ؛ فان هيئة وفد المفاوضات التى اختارها رئيس الوزراء المصرى قوية ، ولكن تأثيرها ضعف لرفض الوفد الاشتراك فيها .

وقال إن المطلبين اللذين تطالب بهما الوطنية المصرية الآن هما جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، والاعتراف « بوحدة وادى النيل » وهو ما يعنى وحدة مصر والسودان . ولقد كان للسودان دور مهم فى الآراء السياسية المصرية على مدى التاريخ ، وهذا طبيعى إذ أنه منبع النيل ، فهو يلعب دوراً حيويا فى حياة مصر أهم من الدور الذى تلعبه مصر فى حياة بريطانيا ومجموعة دول الامبراطورية . ومشكلة مستقبل السودان أكبر وأعقد من أن يبحث فيها الآن . ومن وجهة نظر العواطف المصرية يلاحظ أمران : أولهما أن السودان ولو أنه اسميا تحت حكم ثنائى من انجلترا ومصر فقد ظل فى الواقع تحت إدارة موظفين انجليز وهم يسيرون به الآن إلى درجة متزايدة من الحكم الذاتى ، وثانيهما أن قوة الارغام التى تكون بيد الدولة المستولية على السودان إذا هى أرادت الضغط على مصر هى قوة فى الواقع لا حد لها . على أن هذه القوة لم تستعمل قط ، ومن غير المعقول أن البرلمان البريطانى يوافق على هذا النوع من الضغط الاقتصادى على الحياة المصرية . ولكن الاحتمال موجود ؛ وقد أشار إليه انجليز غير مسئولين فى خطب عامة لهم . على أن الأمر يتعلق بالثقة ، فاذا كانت الثقة متبادلة والتعبير عنها سخيا فليس ثمة سبب يحول دون ضمان مستقبل السودان ، بحيث يزيد نصيب أهله فى السيطرة على مستقبلهم ثم فى الوقت ذاته يجب أن تذهب مخاوف مصر . وربما كان مما يسترعى النظر ويبعث على التفاؤل فى الموقف بأجمعه هو عدم وجود أى نوع من العداء الجنسى أو الوطنى ، وندرة العداء الشخصى .

رأى فى مجلة محافظة

أشارت مجلة «ناشنال رفيو» ، وهى المجلة الشهرية التى تنطق بلسان المحافظين ، فى عرضها لحوادث الشهر (فى عدد يونيو) إلى للفاوضات المصرية ، وتصريح مستر أتلى بمجلس العموم البريطانى فى جلسة ٧ مايو حين أعرب عن نية الحكومة البريطانية فى الجلاء عن مصر . وقال محررها إنه مما لا يصدق أن حكومة تتخذ مثل هذه الخطوة دون أن تستشير غير مجرد أهوائها ، ودون أن تسأل المستعمرات المستقلة التى ساعدتنا على الاحتفاظ بالبحر المتوسط ، فى الحملة الافريقية العنيفة التى كانت فى سنة ١٩٤٠ — سنة ١٩٤٢ . هذا مما لا يصدق حتى من حكومة متقلبة قليلة التجربة مثل الحكومة البريطانية . ولكن هذا ما كان فعلا . ولقد وقف المستر تشرشل الذى يعرف ما هى مصر وما هو الدفاع عنها فى التوو طلب استمرار المناقشة . وقد نوقش الموضوع بأكمله فى جلسة كبيرة الأهمية فى اليوم ذاته ؛ إذ كان حزب المحافظين بأكمله يؤيد زعيمه ، فان الدفاع عن مصر معناه الدفاع عن قناة السويس ، والدفاع عن القناة معناه الدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الشرق ، وعن جنوب إفريقية واستراليا ونيوزيلاندة وفى هذه المناقشة صرح مستر أتلى وهو يقتصد فى صدق القول اقتصاداً باعثاً على الأسف أن المستعمرات المستقلة وافقت على هذا الانسحاب .

وفى اليوم التالى اى ٨ مايو خشى أن ينشر مارشال سمطس تكذيباً لذلك ، فاعترف بأن المستعمرات المستقلة أخبرت بأن بريطانيا ستتخذ هذه الخطوة الخطيرة جداً ، ولكن لم يؤخذ رأيها فى هذه الخطوة . وهذا التقلب المزدوج الذى قام به رئيس الوزارة ليس من المناظر السارة ، ولكنه كان ذا فائدة كبيرة ؛ فقد كشف عن الواقع وهو أن المستعمرات المستقلة ، فيما يسمى بالاستشارات، تخبر فقط بما تنوى الحكومة الامبراطورية عمله ، ولكنها لا تستشار فيما يجب أن تكون عليه السياسة الامبراطورية . والواقع أنه لا يوجد أية استشارات أو سياسة فى جميع الأمور المرتبطة بالامبراطورية ، أى الأمور التى لها مساس حيوى بالمستعمرات المستقلة ، بقدر مساسها ببريطانيا . وقد صرح مستر أتلى فى أحد ارتباكاته أن وزراء المستعمرات لا يطلب إليهم أن يبدوا موافقتهم فى مسألة خاصة بالمملكة المتحدة ، فما أغرب هذا القول ! إن الدفاع عن الامبراطورية والدفاع عن مصر حيوى للامبراطورية بأسرها .

رأى سياسى محافظ

وكتب اللورد الترنكهام فى هذه المجلة المحافظة مقالا عن « أمة النيل » ابتدأه بوصف ما حدث فى مصر من تطور ويقظة وطنية بفضل سعد زغلول . وقال إن هذه اليقظة ليست بمستغربة بل هى مثال آخر لليقظات الوطنية التى كانت من ظواهر تاريخ العالم فى القرنين الأخيرين . وبينما مسلك الشعب المصرى آخذ فى هذا التطور ، إذا بالمركز الجغرافى لمصر لا يزال هاماً كما هو بل زاد أهمية ؛ فان التقدم الحديث فى الهندسة واكتشاف آبار

البترول والتغلب على الجو ، كل هذه الأمور زادت المثل القديم تحقيقاً ، وهو الذى يقول إن مصر هى المركز الاستراتيجى للعالم . وقد أشار إلى أن الامبراطورية البريطانية صارت مع الجمهورية الأمريكية والاتحاد السوفييتى اكبر الدول شأناً ، ولكنها فى مركز أصعب من مركزى القوتين الاخيرتين ؛ فهما دولتان أرضيتان كبيرتان تحت حكومة مركزية واحدة تجرى مواصلاتهما داخل حدودهما ، ولا يمكن أن تفصل هذه المواصلات عنهما إلا بغزو كبير . وهما من الوجهة السياسية والاقتصادية والحربية قادرتان على الاكتفاء بنفسيهما ، فى حين أن بريطانيا مؤلفة من أمم متفرقة ذات سيادة ، ومواصلاتها تتوزع على العالم حيث يكون تأمين هذه المواصلات البحرية والبرية متوقفا على صداقة بعض الدول الأجنبية ومن أهمها مصر . وسلامة المواصلات الامبراطورية تتوقف على حسن علاقاتها مع جميع أمم الشرق الأوسط . فحسن النية فى جميع تلك المنطقة شرط ضرورى لسلامة استراليا وحريتها ، وكذلك نيوزيلندة وجنوب أفريقية ، وحلقة كبيرة من المستعمرات البريطانية والاراضى المحمية ، ولبريطانيا نفسها . ولذلك يتوقف الكثير من الأمور على الحكمة السياسية نحو مصر بعد أن تسلطت عليها نزعة الحماسة الوطنية الآن بحيث صار أعقل زعمائها غير قادرين على توجيه هذه النزعة فى سهولة .

وقال إن البحث فى هذه السياسة على أساس القواعد الحربية أو المادية وحدها معناه عدم فهم المشكلة القائمة . هذا ، مع أن مشاكل الامبراطورية نفسها لا يمكن تسويتها على هذا الأساس ، فكيف ببلد غريب عنها . فالوطنية لا تخضع للمادة . والواجب أن تقوم العلاقات على التعاون المتين العملى مع مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط .

وقال إن هذه الاعتبارات يجب ألا تغيب عن الأذهان . ثم أخذ يستعرض العوامل الاستراتيجية فى الشرق الأوسط على ضوء أن مصر مفتاح له ، فقال إن المصالح المادية للامبراطورية البريطانية قد نمت نمواً كبيراً منذ موقعة النيل فى أيام نلسون ، وهو نمو لم يكن يحلم به قواده ، فتسلطها وتجارتها على بلاد الشرق أمداها بقوة مالية تغلبت فى آخر الأمر على محاولات نابليون بأجمعها .

وفى هذا القرن خاضت انجلترا غمار الحرب مرتين ، وكان المعتدى هو ألمانيا فى المرتين مع انضمام تركيا إليها فى المرة الأولى وإيطاليا فى المرة الثانية ، ومع ازدياد المصالح زيادة هائلة ، فقد أنشأت المهارة الفرنسية قناة السويس واحتلت بريطانيا مصر بعد بضع سنوات من شرائها لأسهم الخديوى فى القناة ، وأعادت بريطانيا (!) فتح السودان ، واكتشفت آبار الزيت فى العراق وجنوب إيران . ولو أن الشرق الأوسط خرج من يد الأمم المتحدة لما تمكنت من الانتصار على إيطاليا ثم ألمانيا ثم اليابان . لذلك كان من حسن الرأى ومن الجرأة السياسية المحمودة أن أرسلت بريطانيا جيشها الوحيد المدرع إلى مصر إلى خريف سنة ١٩٤٠ فى وقت كانت فيه فى خطر الغزو من البحر . ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الشرق الأوسط أن تيار الحرب إنما اتخذ وجهته الحاسمة بعد الانتصار البريطانى فى العلمين . أجل ! إن هذه الموقعة لم تكن لتنجى الشرق الأوسط لو سقطت ستالينجراد ، إلا أن الانتصار فى ستالينجراد لم يكن لينجى روسيا لو لم تجعل الجيوش البريطانية من المستحيل الزحف الجنوبى على حقول البترول الروسية ، بأن كسرت شوكة هجوم المحور على مصر والقنال .

ثم تكلم عن معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر وإخلاص الجانبين فى تنفيذها مما أدى إلى خروج مصر من الحرب سالمة وغنية وحرة . على أن مظاهر الحرب غيرت من وجه

القاهرة والاسكندرية ، وامتلأت مصر بالجنود والمنشآت العسكرية ، وصارت بلداً محتلا ، مع أن حكومتها قد ساعدت فى ظروف الحرب . ولقد أخذت الوطنية المصرية تنظر إلى هذه الحال بعين القلق . ولقد مضت ثلاث سنوات على معركة العلمين ، وصارت الحرب بعيدة ومع ذلك ظلت صعوباتها قائمة . وكان من الواجب الجلاء عن القاهرة والاسكندرية فى أسرع فرصة بمجرد زوال الظروف المقتضية لبقاء الجنود فيهما ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فهاجت خواطر المصريين .

وقال إن حكومة المحافظين غير مسئولة عن ذلك ؛ لأنه نبه الحكومة الحالية إلى هذا الأمر عند ما كان فى منصبه بمصر (فقد كان وزير دولة فى مصر واسمه سير ادوارد جريج قبل منحه لقب لورد) على أثر انتهاء الحرب اليابانية .

ومع ذلك فقد نقد الكاتب تصريح الحكومة البريطانية بالجلاء ، وقال إنه لا ييسر المفاوضات بل يزيدها صعوبة ؛ إذ يؤيد هذا التصريح الوهم القائل بأنه يمكن ضمان سلامة مصر بغير إقامة منشآت دائمة على القناة . وزعم أن مصر لا تحتمل عبء الدفاع عن نفسها ؛ فان ذلك العبء يخل بتنظيماتها الاقتصادية والاجتماعية . وانتقد القول بأنه يمكن ضمان القناة وماجاورها بالضمانات الدولية ؛ فان الضمانات الدولية تتطلب تبادل الثقة بين الدول الكبرى التى تحتكر وسائل الحرب . ومما له مغزاه أن أكبر قوتين حربيتين مستقلتين بنفسيهما لا تظهران أى ميل للاعتماد على الضمانات الدولية . فروسيا ترفض فكرة السيطرة الدولية على الدانوب ، وتطالب فى إصرار بميناء فى شرق البحر المتوسط ، وبقاعدة حربية فى الدردنيل ، فى حين لا يخطر على بال الولايات المتحدة أن تجعل قناة بناما تحت مسئولية دولية .

وهو يرى أن القوة الجوية والقنبلة الذرية لم تغيرا من أهمية الدفاع المحلى لقناة السويس ، ويؤكد أن أمريكا وروسيا يشاطرانه هذا الرأى فيما يتعلق بالدفاع عن الطرق المائية الهامة لديهما .

وهو يلوم الحكومة البريطانية على تلكئها فى الجلاء عن القاهرة والاسكندرية بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، وقال إن المعاهدات الدفاعية لا تمس حرية الأمم الصغيرة فان الأمم الكبيرة نفسها تحاول عقد مثل هذه المعاهدات .

واختتم مقاله ذاكراً أنه بقلبه مع الوطنيين المصريين ، وأن علاقات مصر مع جميع الأمم يجب أن تكون علاقة الأمة ذات السيادة فى أرضها . ويبدى أسفه على أن السياسة البريطانية لم تظهر ذلك فى وضوح . ومع ذلك يعزو إلى المتطرفين من المصريين عدم فهمهم لمرامى بريطانيا .

ظهر حديثا

نابليون لأميل لودفيج نقله عن الألمانية الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي — الجزء الأول
(دار الكاتب المصري)

لاريب في أن كتابة سير العظماء قد اتخذت في القرن العشرين اتجاها لم يعرف من قبل ؛ فقد كانت كتب السير ، لاسيما في القرن التاسع عشر ، عبارة عن أسفار مطولة مملة لايكاد يقتنيها غير أصدقاء الأسرة التي نجم منها العظيم . وكان أكثر هذه الكتب يوضع باتفاق بين الأسرة والمؤلف ، وفي هذه الكتب يحاول المؤلف أن يبرز المحاسن إن وجدت ، أو يعزو لصاحب السيرة ما يستطيع من فضائل ، ويخفي من الرذائل ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولكن هذا النوع الجديد من الكتابة صعد فجأة إلى مصاف الآداب ، وأقبل عليه القراء حتى كان في وقت من الأوقات وما زال ، إلى حد ما ، أحب ألوان الأدب إلى الجمهور . وكان الفضل في ذلك لثلاثة أسماء : ليتون ستريتشي الأديب الانجليزي ، وأندريه موروا الأديب الفرنسي ، وإميل لودفيج الأديب الألماني ، ومنذ أخذ هؤلاء الثلاثة ينقطعون انقطاعاً تاماً ، أو إلى حد كبير ، لكتابة السير ، برزت أسماء عشرات من الأدباء الذين يعنون بهذا اللون من الأدب عناية كبيرة ، ويجدون جمهوراً كبيراً من القراء في جميع أنحاء العالم .

لعل ليتون ستريتشي (١٨٨٠ — ١٩٣٢) كان أول هؤلاء الثلاثة ، فهو عند مانشر كتابه «عظماء من عصر فيكتوريا» ورسم فيه صور أربعة من العظماء بطريقة جديدة حية ، واصفاً فضائلهم غير مغرق فيها ، ومشيراً إلى نقائصهم في غير قسوة وفي أسلوب فكه وانسجام بديع ، أقبل الناس على كتبه كما يقبلون على قصة ، بل أقبل بعضهم عليها أكثر مما يقبلون على قصة ؛ فكثير من الناس لا يحلو لهم الخيال الصرف ، وهم في هذا الكتاب وأمثاله يجدون بغيتهم من خيال يستعمل لاحياء الحقيقة .

كان مما أتى به ليتون ستريتشي في كتابة السير دقة الملاحظة مع جمع الخلال الصغيرة البسيطة التي تلازم المرء في حياته ، كما جاء بروح الفكاهة العريضة والتسامح . أما موروا الفرنسي كما ترى في خير ما وضعه من سير ، كأريل التي هي حياة شلي ، ودزرائيلي ، فقد جاء بتلك الأناقة التي يشترك فيها كبار الكتاب الفرنسيين ، مع توضيح الشخصية بسوق مئات الشواهد التي تفوت الملاحظ العادي .

وجاء إميل لودفيج ، الألماني ، بشيء آخر ، لا أستطيع أن أقول إنك تجد فيه روح الفكاهة ، فليست الفكاهة من صفاته البارزة ، ولا أستطيع أن أقول إنه أنيق في كتابته واضح التحليل ، فليس ذلك من صفاته البارزة ، وإنما ميزة أسلوبه هي تلك القوة التأثيرية الناشئة — فيما أظن — عن قلم اتجه نحو المسرح والدراما قبل أن يتجه نحو الأدب القصصي وكتابة السير .

والواقع أن إميل لودفيج كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا للمسرح ، ففي الثالثة والعشرين من عمره ألف دراما عن لورنزو دي مديتشي ،

وفى الخامسة والعشرين فكر فى مسرحية ينظمها شعراً لنابليون ، ولم يتجه إلى كتابة السير إلا حين درس حياة بسمارك ليخرج مسرحية ، ثم بدا له أن هذه المسرحية لن تمثل على مسرح ألمانى ما كان ولهلم الثانى غريم بسمارك جالساً على العرش . وعلى ذلك وضع صورة قلمية عن بسمارك ونشرها فى سنة ١٩١١ .

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى كان لودفيج فى الثانية والثلاثين من عمره فقصد إلى منطقة البحيرات الايطالية حيث عاش فى تلك المناظر الساحرة ، وهو يضع مؤلفاً كبيراً عن حياة جيتى .

فاميل لودفيج إذن كان بميله الأول كاتبا مسرحياً ، ولذلك تجد فى كتبه قوة فى اللفظ ومحاولة للتأثير ، كما تجد فيه ميلا إلى استعمال طرق المسرح . ويفقد أحياناً السيطرة المسرحية — كشأنه فى كتابه عن بتهوفن — فيصبح الكتاب مجرد مجموعة من النوادر ، أما فى الكتب القوية ، فانك تجد قوة تأثير بالغة ، كما فى كتابه عن جيتى ، وفى سفره عن نابليون الذى نشره فى سنة ١٩٢٢ ، وأضافت دار الكاتب المصرى إلى المكتبة العربية فى هذه الأيام . فهو مجموعة صور متتابعة ومناظر رائعة تصور حياة ذلك البطل خير تصوير .

وقد وجد المؤلف خير من ينقله إلى اللغة العربية ، فقد نقله الاستاذ محمود ابراهيم دسوقى وهو خير من ينقل عن الالمانية فى أمانة ودقة ومحافظة على الأصل معنى ومبنى ، مع طلاوة أسلوبه ومحاولته الأمانة حتى فى نقل الأسلوب .

وقد أبت دار الكاتب المصرى إلا أن يظهر هذا الكتاب فى صورة بديعة ، فأخرجت الصور التى ازدانت بها الطبعة الالمانية خير إخراج ، كما أن غلاف الكتاب جاء آية فى حسن الذوق . وهذه أمور يهملها الناقدون عادة ولكن من الواجب أن ينوهوا بها حتى يزداد الاهتمام بالاتقان الفنى فى الكتاب العربى .

وإنا لنرجو ألا تتوانى الدار فى إخراج الجزء الثانى قريباً ، حتى يستطيع القارئ المتشوق أن يتابع قراءة هذا السفر بأكمله .

أسامة بن منقذ تأليف الاستاذ محمد أحمد حسين (مطبعة دار الكتب المصرية)

عندما عثر المستشرق الفرنسى درنبورج فى أثناء بحوثه وتنقيباته بمجموعة قصر الاسكوريال على النسخة الخطية الوحيدة لكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، رأى أمامه صورة واضحة لحياة امير من أمراء العصر الذى عرف نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى وغيرهما من سلاطين الاسلام ، وهم الذين وقفوا فى وجه الغزوات التى شنها الفرنج على البلاد الاسلامية ، وأرادوا بها استخلاص الاماكن المقدسة من يد المسلمين وأراد الأمراء منهم أن يحققوا مطامعهم ، وأن يقتطعوا لأنفسهم ملكا فى البلاد الاسلامية .

فلقد كان مولد هذا الأمير من آل منقذ الذى وضع هذا السفر ، قبل نحو ثلاثة أشهر من تلك الدعوة التى نشرها البابا إربان الثانى من أرض فرنسا ، حين انتقل إليها خاصة من روما ، لنشر دعوته إلى الحرب الصليبية فى مؤتمر كليرمون من أعمال أوفان ، ولقد ذهب من عاصمة عرشه الدينى مصحوبا بالكرادلة والأساقفة ، فى موكب كموكب منتصر ، وكان يخطب بفصاحة واقتناع الرسل .

نجحت دعوة البابا ، واجتمعت جيوش المتطوعين من أتقياء المسيحيين والأمراء ، وقامت هذه الجيوش إلى البلاد السورية حيث

استطاعت أن تستولى على الأماكن المقدسة وأنشأ بعض الأمراء المسيحيين لهم ملكا .
فى هذا العصر المضطرب نشأ وعاش أسامة ابن منقذ سليل بيت كانت له الإمرة على بلدة محصنة اسمها شيزر قريبة من مدينة حلب المعروفة ، وكانت إمارة مستقلة بين الامارات الاسلامية العديدة ، التى وجدت فى تلك الجهات من سوريا ؛ وكانت هذه الامارات لا تفتأ تتطاحن فيما بينها ، وبذلك وجد الأعداء من الفرنج سبيلا إلى الدخول . ولا ريب فى أن صغر هذه الامارات وضعفها ، مع حب الأثرة التى تملأ نفوس زعمائها جعلتها تسلك سياسة أقل ما يقال فيها ، إنها معوجة ، وإنها أحيانا تستحل الغدر والخديعة .
غير أن أسامة لم يتول إمارة شيزر فقد تولى الامارة بعد أبيه عمه ، وتوجس منه خيفة ، فاضطر إلى ترك وطنه ، وربما كان ذلك من محاسن المصادفات ؛ إذ بعد وفاة عمه تولى ابن عمه الامارة ، وحدث فى عهده زلزال مخيف هدم فيما هدم من مدن سوريا حصن شيزر وقضى على جميع آل منقذ وقد كانوا مجتمعين فى وليمة ، ولم ينج منهم إلا من كان خارج البلاد ومنهم أسامة .
عاش أسامة عيشة فارس من فرسان البلاد الاسلامية ، ورسم فى كتابه صورة حية لحياة الفرسان فى عصره ، وهى لا تختلف فى كثير عن صورة أمثالهم من فرسان الغرب ، فيها البطولة والشجاعة وجرأة الحياة وتقلبها ، وفيها الخديعة والدسيسة والغدر ، فهى صورة تجمع بين قوة السيف وقوة القلم . فقد كان أسامة محاربا قويا ، وكان كذلك أديبا له شعر وله رسائل ، بل كان أديبا متفوقا على كثيرين من أدباء عصره ، ويكفى أن تقارن نثره فى كتاب الاعتبار بنثر العماد الأصفهانى مؤرخ صلاح الدين فى كتابه عن حياة هذا العاهل الاسلامى ، لتعرف قيمة أسامة فى نثره السهل وحكايته الطلية على غير ما هو مألوف فى زمنه من استعمال السجع والمحسنات البديعية التى تكاد تخفى معالم المعنى .
على أننا قبل أن نحاول قراءة أسامة الذى عنى به الاوربيون عناية كبيرة يجب أن نعرف تاريخه وتاريخ زمنه ، ومن محاسن المصادفات أن وضع لنا الاستاذ محمد أحمد حسين كتابا عن أسامة ، وهو كتاب غزير المادة دقيق فى تحقيقاته ، وهو يصف لنا حياة أسامة بن منقذ وما كان فى زمنه من أحداث خير وصف . ويزودنا بكل المراجع التى يمكن أن يحتاج إليها الباحث فى هذا الباب . وهو كتاب يدل على نهضة حقيقية فى فن كتابة التاريخ قام بها مؤلف جدير بهذا العمل بفضل دراساته وثقافته .

اسماعيل وهو مجموعة وثائق نشرها باللغة الفرنسية الأستاذ جورج جندى بك والأستاذ جاك تاجر (مطبعة المعهد الفرنسى)

من أثمن المجموعات التاريخية القيمة التى ظهرت فى عالم الطباعة الفرنسية بمصر تلك المجموعة من الوثائق الرسمية عن المغفور له الخديوى إسماعيل ، وهى التى قام على نشرها كل من العالمين الفاضلين جورج جندى بك رئيس المحفوظات التاريخية وجاك تاجر بك امين المكتبة الملكية الخاصة بالقصر الملكى ؛ فان نشر مثل هذه الوثائق الرسمية مما يساعد الباحث فى تاريخ تلك الحقبة على تعرف الحقيقة فى عصر زاه يعد من أهم عصور تاريخ مصر الحديث ، ولا ريب فى أن مصر إذا كانت قد عرفت معنى الاستقلال فى عهد مؤسس الدولة العلوية

بعد أن فقدته فترة طويلة ، فان نهضتها الحقيقية ، ومجاراتها لتيار الحياة المدنية ، ودخولها معترك هذه الحياة على قدم المساواة مع الدول الاوربية ، واتجاهاتها إلى المدنية الحديثة ، كل ذلك قد تم فى عهد المغفور له الخديوى إسماعيل .

وهذه الوثائق تطلعنا على جوانب العظمة فى كثير من تصرفات هذا العاهل . وإنا لنرجو أن يصدر للمؤلفان الطبعة العربية منها قريبا فيكون فضلهما على الباحثين فى تاريخ هذه الفترة مضاعفا .

ألفريد دى موسيه بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف (مطبعة المقتطف والمقطم)

هذا الكتاب من لواحق المقتطف الشهرية وأخشى أن يكون الحصول عليه صعب المنال . ولكنى رأيت فيه من أناقة الأسلوب وحسن السرد ما أحببت معه أن أنوه بمؤلفه الفاضل ،

وأرجو أن ارى له فى المستقبل القريب من الكتب الأدبية أو القصص ما يضيف به جديداً إلى المكتبة العربية . فان هذه اللواحق بطبيعة الحال محدودة الحجم لا تتسع للافاضة فى البحث .

حسن محمود

التعليم فى رأى القابسى للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)

نواة هذا الكتاب رسالة مخطوطة فى التربية وضعها الحافظ المحدث أبو الحسن على ابن محمد بن خلف القابسى فى القرن الرابع للهجرة ، وعنوانها على ما يرجحه الدكتور الأهوانى : «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » .

وهى مخطوطة فريدة ليس منها إلا نسخة واحدة فى المكتبة الأهلية بباريس ، كتبها ناسخها فى أوائل القرن الثامن للهجرة .

والقابسى فقيه محدث مكفوف البصر مغربى النسب والدار ، توفى فى أوائل القرن الخامس للهجرة ، وله مؤلفات عدة من بينها هذه المخطوطة التى وقع عليها الدكتور الأهوانى فجعلها نواة بحثه هذا الممتع الذى حصل به على الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول ، ثم جعله بين دفتى هذا الكتاب .

وعنوان الكتاب لا يدل على كل ما اشتمل عليه ، فما كان أجدره لو أراد المطابقة بين الاسم ومسماه أن يجعل عنوانه « التربية عند العرب على توالى العصور » . بل لعل هذا العنوان لا يدل كذلك على الكتاب دلالة الوصف على موصوفه ؛ فقد كانت نظرة المؤلف فى موضوعه شاملة محيطة تتجاوز الأبعاد والمسافات وتتناول الموضوع من أقصى مراميه ، فلم يقتصر فى بحثه على عرض رأى القابسى فى التعليم ونقده والموازنة بينه وبين آراء غيره من أهل النظر فى هذا الفن ، بل جعل هذا البحث نواة لحديث ضافى الذيول واسع المدى يتناول فنون التربية من قريب ومن بعيد ، فى أسلوب مرسل وعرض منطقى سليم .

وكانت القاعدة الأساسية التى انبنى عليها البحث بكل ما تناوله من الأصول والفروع ، هى « أن تفسير حالة التعليم فى عصر من

العصور يقتضى النظر إلى آراء المربين وصلة آرائهم بالمذاهب العقلية التى يعتنقونها، ويقتضى النظر إلى حالة المجتمع الذى تفرع عنه التعليم كمظهر من مظاهر الحياة العقلية » .

على هذه القاعدة راح المؤلف يفصل آراء القابسى فى التعليم ، ويحاول تعليل أسباب الخلاف بينها وبين آراء غيره من أهل النظر فى هـذا الفن ، فيربط بين رأى كل منهم ومذهبه ، وبينه وبين الحياة الاجتماعيـة فى عصره . وفى سبيل تأييد هذه الفكرة أورد ما أورد من آراء الغزالى وابن سينا وابن خلدون وإخوان الصـفا وغيرهم من ذوى المذاهب الفلسـفية أو النزعات الصوفية أو السلفيين أو أهل الفكر الحر ، وأوضح فى جلاء كيف كان اختلاف مذاهبهم العقلية ذا أثر واضح فى اختـلاف رأيهم فى التعليم ، وكيف كانت الحياة الاجتماعية فى عصر كل من هؤلاء ذات أثر كذلك فى تلوين آرائهم .

وقد قسم المؤلف كتابه فصولا ؛ فكان الفصل الأول عن حياة القابسى ، والثانى عن بيئته وطريقته فى التأليف ، والفصول التالية بعد هذين عن تاريخ التعليم ووسائله وأهدافه ومظاهره واختلاف أحواله عند المسلمين على اختلاف العصور ، ثم كان الفصل العاشر إجمالا لآراء المسلمين فى التربية والتعليم . وجاءت الخاتمة بعد ذلك تقرر القاعدة التى بنى عليها المؤلف بحثه ؛ فاذا انتهى مما أراد جعـل رسالة القابسى ذيلا لكتابه، فنشرها مصححة مضبوطة مبوبة على ما وسـعه الجهد . فهما إذن كتابان لا كتاب واحد، فمن شاء فليلتمس النفع حيث أراد : من كلام الأهوانى فى صدر الكتاب، أو من رسالة القابسى فى ذيله، فسيجد هنا وهنالك شيئاً يستحق أن يفرغ له وقتاً يطول أو يقصر ، ينشد أسباب اللذة والمنفعة جميعاً .

الرءوس بقلم مارون عبود (منشورات دار المكشوف — بيروت)

قلت لنفسى حين مضيت فى قراءة الفصول الأولى من هذا الكتاب: هذا كتاب يستحق أن يقرأه كل أديب فى العربية ؛ إنه كتاب جديد . . . جديد جداً . . . إنه « فن » لم يسبق إليه سابق — أعرفه — فى العربية ! . . .

. . . ومضيت فى قراءته ؛ إننى لا أريد أن يفوتنى هذا « الجديد » .

هذا كاتب من كتاب العربية يعالج « علم الأدب » فى أسلوب من أساليب « الفن » ، وللعلم أسلوب غير أسلوب الفن ؛ فلعله أراد أن يقتحم على غير « أهل التخصص » فيحملهم بلطف حيلته على الدخول من البـاب حين يسوق إليهم « العلم » فى هـذا الأسلوب « الخطابى » الرشيق .

وكان عنوان الكتاب فنا من فن الكاتب، فهو يسـميه « الرءوس » ، والرءوس هى تلك الكرات القائمة على أعناقها بين أكتاف الناس وكواهل الحيوان ، ولكن لهذا اللفظ مع ذلك معانى جمة فى أذهان قرائه ، وإنما يريد المؤلف معنى واحداً من تلك المعانى ، فهو إنما يريد أن يتحدث عن « رؤسـاء » الأدب فى العربية منـذ كانت العربية ، أو بعبارة أخرى : يريد أن يتحدث عن زعماء الشعر فى العربية على اختلاف العصور . فذلك هو موضوع الكتاب كما يبدو لى ، وقد اختار أن يكون عنوانه «الرءوس» وليس بين كلمتى الرءوس والرؤساء كبير فرق فى المعنى ولا فى الاشـتقاق اللغوى ؛ فهو عنوان صادق الدلالة على موضوعه ، ولكنه عنوان « خطابى » كذلك !

وليس من شأنى فى هذا الباب ان أنقد ، وإلا لوجدت مجال القول ذا سعة ، وإنما كل قصدى هو التعريف والبيان والعرض ؛ فليس من شأنى إذن أن أتتبع آراء المؤلف فأزعم أنه أصاب الرأى فى كذا وكذا واخطأه فى كيت وكيت ، وإنما لى شأن آخر ، ولكن ذلك لا يمنعنى — على كل حال — أن أصرح عن إعجابى بالكاتب وكتابه ، فان فى طبيعتى العنف والثورة ، وفى هذا الكتاب عنف وثورة ، وحسبه هذا إحسانا يستر ما وراءه .

والآن ما هى هذه الرءوس ، أو من هم أولئك الرؤساء فى الشعر العربى ؟

هذه فصول متتابعة ، يتحدث فيها المؤلف عن الأوائل فى الجاهلية ، فيأخذ فى نوع من الحديث عن امرىء القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعنترة ، وغيرهم من الأوائل ، فى أسلوب طريف ورأى . . .

ثم يمضى فى الحديث عن الشعر بعد الاسلام ، ويفيض فيما يصف من شعر عمر بن أبى ربيعة « أبى جوان » أو دون جوان العربى كما يريد أن يصفه ، وشعر جرير ، فيسمى العصر الاموى بهذين الشاعرين : عصر الهجاء ، وعصر الغزل . ولعله فيما كتب من هذا الباب لم يأت بجديد فى الرأى ، ولكن له أسلوباً وفناً جديدين ، وعلى مائدته كثير من التوابل !

ثم يتحدث عن عصر الترف أيام العباسيين ، ويتعقب أبا نواس شاعر الخمرة ، أو شاعر الخلاعة ، ثم يمضى فى آثار بشار بن برد ، زعيم الخلعاء ، فيصف من خبره ، ومن شعره ، ويصور نفسيته تصويراً بارعاً رشيقاً ، كأن قد رأيته وجلست إليه وعايشته وكشفت عن مكنون صدره . فاذا فرغ من بشار تحدث إليك عن المعاصرين الأربعة : أبى تمام ، ودعبل ، وابن الرومى ، والبحترى ؛ فاذا بلغ المتنبى سماه « الرأس الضخم » . وهنا نترقب ما يقول الأستاذ ما رون عبود عن المتنبى ، ذلك الرأس الضخم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولكنه لا يتحدث إليك عن المتنبى ، وإنما يتحدث عن طه حسين .

ويمضى فى الحديث عن طه حسين وقد خيل إليه أنه يتحدث عن المتنبى ، حتى يستغرق من الكتاب ما يقرب من مائة صفحة فى مناقشة كتاب طه حسين « مع المتنبى » . وحسبه حديثاً عن المتنبى أن يستغرق هذا القدر من صفحات الكتاب فى مناقشة كتاب ألفه طه حسين عن المتنبى .

ماذا قال ؟ لا أدرى ! ليس هذا شأنى ولكنه شأن الناقد ؟

وكأنما كان انقطاعه عن موضوع الكتاب فى هذه الصفحات التى تقرب من المائة سبباً إلى عدوله عن النهج الذى التزمه فى الفصول الأولى من الكتاب ؛ فلما هم أن يرجع نى موضوعه وعدل عن طريقته ، فجاء حديثه بعد ذلك عن الشريف الرضى على أسلوبه فى الحديث عن المتنبى ؛ فلم يكتب عن الشريف وإنما كتب عن زكى مبارك والدكتور محفوظ ؛ ينقد كتابيهما عن الشريف الرضى ويفرقهما بفنه اللاذع .

ثم تأتى بعد ذلك فصول قصيرة عن بعض الرءوس الصغيرة ، فيتحدث عن البهاء زهير وابن نباتة وابن الفارض ، ويختم الرءوس بالحديث عن أحمد شوقى ، وفصل أخير عن الشعر بين الناقد والمعلم .

هذا هو الكتاب . وما أرانى قد وصفته كما هو فى نفسه ، وكما وقعت صورته فى نفسى ؛ وما يطيب لى أن أفرض على القراء صورة لعلها فى مرآتهم غير ما هى فى مرآتى ؛ فلست أنصحهم إلا بأن يقرءوا ذلك الكتاب ، فان فيه فناً جديداً . . .

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

دقيقة واحدة !

من مقال طريف للدكتور صبحى أبو غنيمة فى العدد ١١٨ من مجلة « الصياد » لبنان :

« جرب دوما قبل ان تعطى رأيا ، أو حكما ، أن تتمهل دقيقة ، دقيقة واحدة ، قبل الحكم ، فى المرض ، فى الأدب ، فى السياسة فى كل شىء ، وثق أنك لن تندم .

« أنت وأنا وذاك نمر فى حياتنا بمئات من المشاكل كل يوم ، فى الصنعة ، والناس ، والحياة ، « فنقرف » ، ونلعن ، ونمدح ، ونذم ؛ ولو تمهلنا دقيقة واحدة لتغير الأمر فى كثير من هذه ، ولكنا أقرب إلى الصواب وإلى . . . السعادة .

« تمهل دقيقة واحدة قبل أن تحكم على هذا المغرور الذى « يقرفك » ، وذاك السافل الذى تلعنه ، وهذا الطيب الذى تمدحه ، وذلك الشخص الذى تذمه ، فقد تنقلب معك الآية تماما . . .

« تمهل دقيقة واحدة قبل ؛ لقد جربت أنا ذلك فربحت . . . فجربها أنت ! . . . »

الحياة معرض

وفى عدد أبريل من مجلة « المنهل » التى تصدر فى مكة المكرمة — بقلم عبد القدوس الأنصارى :

« ليس الأمر الذى ينجحك اليوم فى الحياة الاجتماعية الحاضرة ، أن تكون ذا ثراء عريض من العلم ، أو ذا ثراء موفور من الأدب ، أو من أى شىء آخر ذى قيمة معنوية فى الحياة ، فالعصر اليوم كما ترى « عصر المادة » فهى تسيطر على كل شىء . والذى ينجحك إذن فى هذا الجو المادى أن تستطيع « إحالة جوهرياتك » إلى « طاقة ماديات » يأنس الأفراد ويأنس الجمهور منها فائدة لمصالحهم . ووسيلة النجاح فى هذا الشأن أن تكون « صيرفيا » لبقا فى عرض مالديك من علم أو فن ممتاز فى « معرض الحياة العام » . . .

« وإجادة العرض وحسن الاعلان يقومان على دعائم مركزة من إقناع الأفراد وإقناع الجماهير بأن معروضاتك قيمة تحوى الشىء الكثير من رفد مصالحهم الخاصة والعامة ، وبقدر ماتوفق فى هذا الاقناع تكون المتفوق الناجح فى الحياة ! »

رسالة الأمة العربية

وفى عدد يونية من مجلة « الأديب » — لبنان مقال للأستاذ أبى مدين الشافعى بعنوان « العناصر النفسية فى القومية العربية » يقول فى جزء منه :

« تتفاوت الأمم فى عظمتها بتفاوت اهدافها ؛ فبعض الأمم تعمل لهدف مادى

خاص بها ، وبعضها الآخر يعمل لهدف معنوى خاص به ، وأمم أخرى تحملت رسالة شاقة ، وجعلت رسالتها روحية تقوم على خدمة الانسان . . . وكانت رسالة الأمة العربية فى أن ترعى الحضارات فى العالم وتكمل نقصها وتؤديها بكل إخلاص مهما تحملت فى سبيل ذلك من تضحية . . .

« إن حروب العرب كانت دائما تنتهى إلى نتائج تضمن للانسان حريته وتضمن له الطمأنينة ، فلا يخاف على ماله وعرضه ، ويقاتل الرجل فى سبيل فكرة سامية لا فى سبيل أغراض مادية وتوسيع الحدود الحيوية والحصول على أرض غنية . ويقوم الايمان بدور كبير فى تنظيم الحياة الفردية والاجتماعية ويجعل الشخص يقف عند حد فى لذاته ، فلا يندفع الاندفاع المخيف الذى يجعل الحكومات مضطرة إلى خدمة الأفراد والتضحية بحق الجماعة لارضاء شهوات الفرد ، ويحد الايمان من الغضب الذى يدفع إلى الانتقام العنيف واستعمال القوة لاسكات الحق ، كما أن الايمان يحد من الغطرسة الناشئة عن غرور النصر ونشوته . . .

« إن الخطر الذى أحرق العالم يشتد ويهدد الباقى من الانسانية بالفناء . والآن نرى أنفسنا وسط المعمعة ، ومن الواجب أن نقوم برسالتنا إلى العالم ، وصوت البعث العربى يعبر عن هذا الاتجاه ، إذ يقول : إن الأمة العربية التى أظهرت فى الماضى شخصية قوية فذة وحملت رسالة كان لها أعظم الأثر فى تقدم الانسانية ، لا يزال الآن فى قدرتها ومن واجبها أن تؤدى رسالتها الضرورية بين مجموعة الأمم . . . »

هذا دمى !

وفى العدد ١٩ من مجلة « الرابطة » البغدادية ، للشاعر احمد الصافى النجفى :

أبعوضة حطت على قدمى — وغدت تمص دماى مص ظمى

أمهلتها حتى ارتوت ، فهوت — كفى عليها ، فعل منتقم !

كل شئ من وجد صاحبه — غلا ، وأطفأ لوعة الضرم

أغنى ، إنك كالبعوض : دمى — يجرى بجسمك ، فانتظر نقمى !

واعذر إذا عذر البعوض ، فلم — أسفك دماءك ، بل سفكت دمى !

سيادة اللغة !

ومن مقال عنوانه « مبلغ حاجة اللغة العربية إلى الاصلاح » بقلم هادى محيى الخفاجى فى العدد ١٧ من مجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف — العراق :

« نحن اليوم وكثير من الأمم أمثالنا ندرس اللغة الانجليزية ، لا تكريماً ولا تقديراً لها ، وإنما لأنها لغة « السادة » وكثير من رجالهم المستشرقين ، سياسيين وغير سياسيين ، يدرسون لغتنا ، لا تكريماً لها ولا تقديراً أيضاً ، وإنما لأنها لغة القوم « المسودين » ما فى هذا شك ؛ وإلا فلماذا لا ندرس غير الانجليزية ؟ ولماذا يدرس الانجليزى غير العربية : الفارسية والهندية والصينية وغيرها من لغات الأمم التى للانجليز

مصالح فى بلادها ؟ أتقديراً وتكريماً لكل هذه اللغات ، أم لغايات أخرى غير التكريم والتقدير ؟

أما كون اللغة العربية « سيدة اللغات » والأدب العربى « سيد الآداب » فهذا ما لم يكن ولن يكون مطلقاً ، فلكل لغة ميزة ليست للأخرى ، ولكل أدب فضل يفتقر إليه غيره . وإنما سادت اللغة العربية والأدب العربى وقتاً ما بسيادة أهلهما وقوتهم وسلطانهم ، شأنها فى هذا شأن الانجليزية اليوم والفرنسية قبل الحرب ، وإلا فلماذا لم تسد اللغة العربية فى الجاهلية ؟ ولماذا لم تسد فى القرون المظلمة ؟ ولماذا لا تسود اليوم ؟

كن معلما

ومن مقال بعنوان « الأزمة الخلقية » فى عدد مايو من مجلة « المعلم الجديد » — بغداد ، بقلم الدكتور محمد مهدى البصير :

« صديقى

« إنك تشكو مر الشكوى من أخلاق هذا اليوم ، وتنكر على الناس ظمأهم إلى اللذة ، وتكالبهم على المادة ، وبعدهم عن الأمانة ، وتهالكهم فى سبيل المصلحة الخاصة ، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

« إننى أوافقك على هذا موافقة تامة . فلنبحث عن السبب الذى نشأت عنه هذه الأزمة فانها لم تنشب فجأة ومن غير سبب . إنه من المفيد أن نقرر أن المجتمع الحاضر يعيش على خلقين مختلفين ، ويجرى فى حياته على مبدأين متناقضين ، يصطنع أحدهما فى الأقوال ، وهو أفضلهما ؛ وثانيهما فى الاعمال ، وهو أخسهما . إن الذين يعظون الناس ويرشدونهم فى كل فرع من فروع الحياة الأدبية والمادية ولا يعملون بشىء مما يقولون ، لايقعون تحت حصر ! . . .

« أتقول إنه ليس لك إلا خلق واحد ، وإنك تعمل كل مافى وسعك فى سبيل تنفيذ المبادىء السامية التى تدين بها مهما كلفك ذلك ؟ حسن جداً . إنك قدوة صالحة تستحق الاقتداء والاتباع ، ولكنك لم تفعل حتى الآن سوى نصف واجبك ؛ لأنه لايجب فقط أن تسلك السبيل السوى ، وإنما يجب أن تحمل الآخرين على سلوكه أيضاً ، وأن تقدم لهم كل معونة ممكنة على بلوغ هذا الغرض ! »

أدب المغرب

أصدرت مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس عدداً ممتازاً فى شهر مارس الماضى لتعريف بلاد المغرب ، لمناسبة زيارة محررها السيد نور الدين بن محمود لتلك البلاد . وفيما يلى كلمة من مقال فى ذلك العدد عنوانه «أدبنا المغربى كما أراه» بقلم الأديب المغربى السيد عبد الكبير الكتانى :

« أدبنا اليوم ينحصر فى أنواع ثلاثة :

« النوع الأول هو نوع الطبقة التى تكتب بالشكلية الأندلسية بحيث لا تبديل ولا تغيير ، ويمكننا أن نجعل زعيم هذه الطبقة الأديب الكبير السيد محمد بن للفضل غريط ، ذلكم المغربى الاندلسى الموهوب صاحب كتاب فواصل الجمان فى أدباء ووزراء الزمان ، وصاحب القصائد التى تتخذ شكلية النسيب والتغزل على تلك الطريقة ، ومنشىء

المقامات على طريقة الحريرى وبديع الزمان الهمذانى .

« أما النوع الثانى فهو ليس بالأندلسى المحض ولا فيه من العناصر ما يجعله مغربياً محضاً ، وليس هو بالأسلوب الجديد ، بل يعتمد على فخامة اللفظ وسمو المعنى وسبك الموضوع ، وأستطيع أن أجعل زعيم هذه الفئة فى النثر العلامة الجليل مولاى احمد النميشى ، وهو مؤلف كتاب الشعر والشعراء من عهد الحكم الادريسى السعيد إلى الآن ، ومؤلف كتاب ظريف فيمن قال كلمة فعرف بها — وأجعل زعيمها فى الشعر الشاعر المفلق الأستاذ الجزولى الرباطى . . .

« ثم هناك النوع الثالث ، وهو ذلك الأسلوب الصحفى الجديد ، وقد ظهر استعداد من سائر شبابنا للسير على طريقته ، وهو فى غالب أحواله يحاول تقليد كبار الكتاب المصريين ، خصوصاً الكتاب الذين ظهروا على مسرح مجلة « الرسالة » التى تتمتع بتقدير ممتاز عند شباب المغرب . . .

« على أننا لم نصل حتى الآن إلى تكوين اتجاه موحد لأدبنا الجديد ، ذلك لأن الثقافة فى المغرب كانت ، وربما لا تزال ، مقصورة على فئة مخصوصة ، ثم لانعدام أساليب النشر التى هى أكبر عامل على إيجاد الكاتب المجيد ، إذ لا يوجد كاتب أو شاعر خلقت معه عبقريته وإنما البيئة والعوامل والمشجعات هى التى توجد الكاتب والشاعر ! »

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش



فى ارجاء العالم العربى

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية